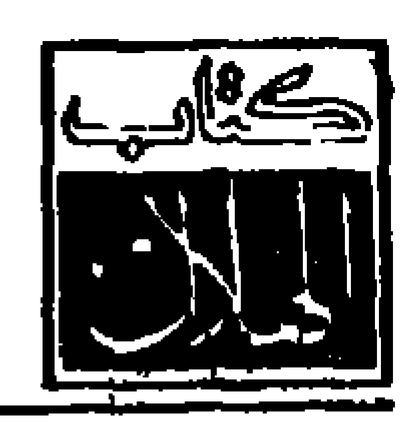

كتاب
الهلال
يحيى حقي
خليها على الله



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

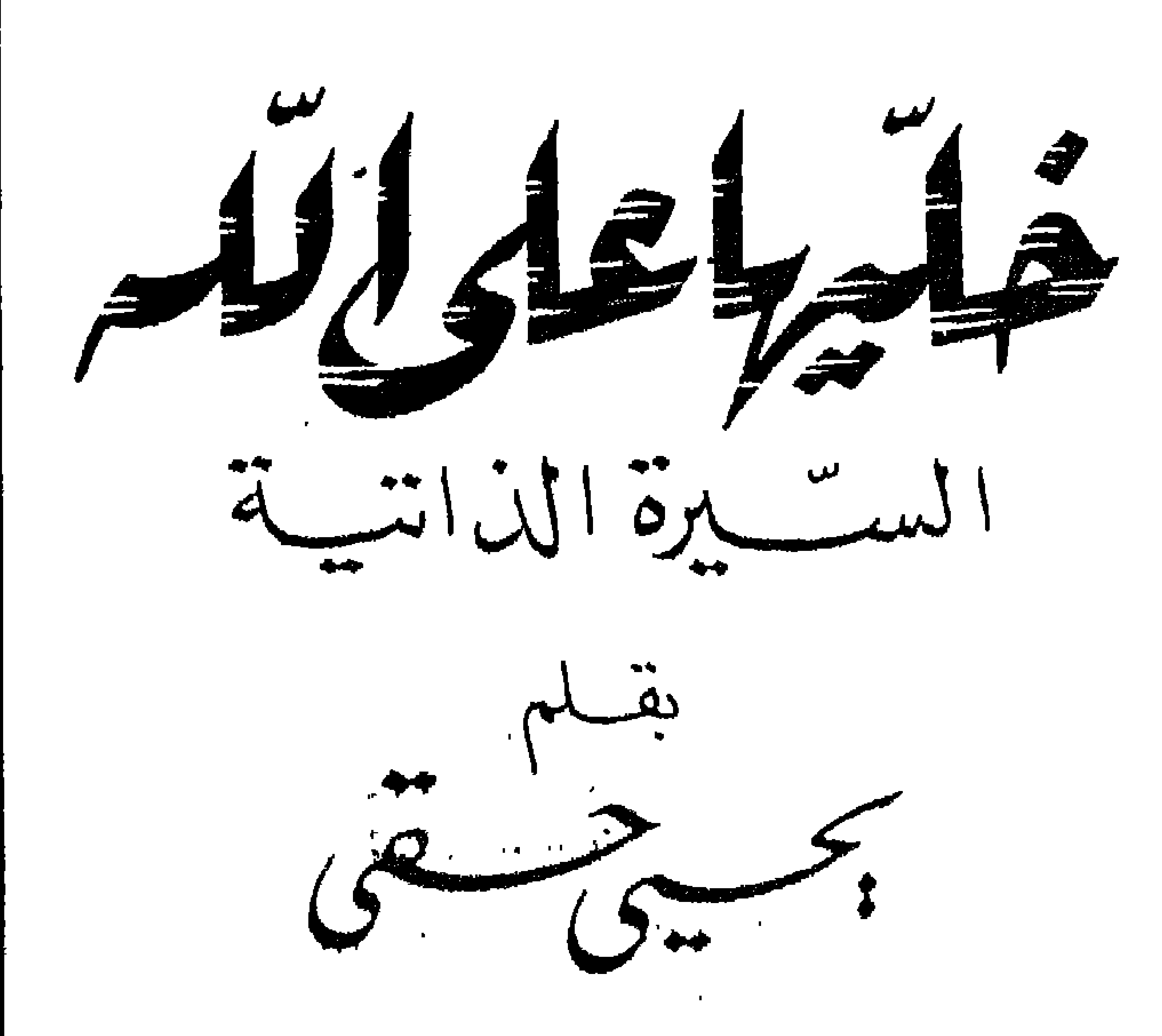
KITAB AL-HILAL

العدد ٤٨١ - جمادى الثاني - يناير ١٩٩١

المكاتبات : ص . ب ٦١٠ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١٥١١
تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.
فاكس : FAX 3625469
مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبى دانيال - ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٢٤٧٢٠

أسعار البيع للعدد فئة ٢٥٠ قرشا

لبنان ٣٠٠٠ ليرة ، الأردن ١,٥ دينار ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٠ ريالات تونس ٢ دينار ، المغرب ٣٠ درهما ، الكويت ١,٥ دينار ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الأمارات العربية ١٠ دراهم ، سلطنة عمان ١ ريال ، غزة والضفه والقدس ٥ دولار ، انجلترا ١,٥ جك .



مقدمة بقلم
محمد رويش

دار الهلال

الغلاف تصميم الفنان :
محمد أبو طالب

مقدمة

نعم ... خليها على الله

بقلم : محمد روميش

كتابات استاذنا الجليل « يحيى حقى » ليست في حاجة الى أحد لتقديمها ، فصاحب « مجموعة قصص « دماء وطين » وفيها قصة « البوسطجي » سنة ١٩٣٢ الرائدة فى فن القصة المصرية القصيرة وتحقيق شكل « الفلاش باك » لاول مرة فى ادبنا الحديث ، هى دراسة ، على مستوى الفن ، للغريزة ، تعمل فى بيئة طليقة ، وصاحب رواية « قنديل أم هاشم » والتى واجهت ، على مستوى الفن ، العلاقة بين الشرق الذى ننتمى اليه ، والغرب الذى يربض الى جوارنا متربصا بنا للانقضاض ، وقد اقترح صاحبها أن تحمل فى ترجمتها الفرنسية الحديثة سنة ١٩٩٠ ، عنوان « الصدمة » صدمة « اسماعيل » ، بطلها ، فى تلقيه حضارة الغرب ؛ وصاحب مجموعة قصص « أم العواجز » فى تعاطفها ـ على مستوى الفن ـ مع الانسان البسيط ، وهمومه الثقال ، ولتمثل دلالة صادقة وعميقة ، على موقع صاحبها ، وأين يقف ، بالفن والفكر ، فى معترك المجتمع وصراعاته ، وصاحب رواية « صح النوم » التى قدمت ـ هى الأخرى ـ نماذج حية من النفس البشرية ، فى تعقدها وتخفيها وتمردها على النمزجة ، وهى الرواية التى قالت ، فى وقت مبكر « ١٩٥٤ » ، نصيحة لثورة ١٩٥٢ ، أن انتبهى الى أخطار طغيان أجهزة الأمن ،

وان دعي الانسان المصري ، الذي ، عاني ، تاريخا طويلا من الخوف ، ان يتخلص من الرقابة على الذات ، وان دعى الفن يزدهر ، وعن طريق الحث ، اتخذى من الديمقراطية الانتخاب الحر ، وسيلتك الى التغيير . وصاحب القصة الفريدة « الفراش الشاغر » ومجموعتها التى تحمل نفس الاسم ، والتي تزلزل سكينة القارىء وترجه بعنف ، ان استيقظ ، انتبه ، أفق ، عاين ما يجنبه ضعف الارادة من تدمير في الكيان البشرى ، لا ، لا تكن كالسائمة ، تسيرها الغريزة ، كن انسانا صاحب ارادة .

وقد نشرت هذه القصة ، اول مرة ، فى مجـــلة « الكاتب » العدد الأول ، أول ابريل ١٩٦١ ، وقد قدمتها المجلة بمقدمة قصيرة ، دالة ، عنوانها ، « الفن والسلبية » ونصها « السلبية أم الخبائث كلها ، هى التى تنحــدر بضحيتها الى الحضيض ، انها عدو المجتمع ، قاتلة لكرامة الانسان ، وامالة رأس القارىء لحظة على الهوة ليـدرك بشاعتها ، وقاية له من الوقوع فيها وايقاظ لقدرته على المشاركة الانسانية ، وتبصير له بنعمة الجمال ، ما أحلى التنفس فى الهواء الطلق بعد الاختناق فى الجحور المسمومة، وخير أداة لبلوغ هذا الغرض هو الرمز ، والادب العربى فى تطوره الحديث ينبغى أن يألف كل الاساليب . التوقيع « لويس عوض » الا أن القارىء المدقق سيلاحظ ، ان لغة هذه السطور ليست لغة أستاذنا لويس عوض ، وان مســار فكريتهـا يخـالف مســار أفكـاره ، ولم يكن الواقع ، الا أنها ، كلمات وأسلوب « يحيى حقى » نفسه ، رغم أنها تحمل اسم « لويس عوض » . ويحيى حقى ، صاحب مجموعة قصص « ســارق الكحل » ــ

مختارات فصول ، خارج طبعة أعماله الكاملة ، ومنها ، القصة الطويلة « كأن .. » وبها يحقق الكاتب ، عبور الهوة بين الواقع المضطرب المعاش ، وبين الفن المتخيل ، والواقع قاتل شاذ ، يقرأ عنه يحيى حقى فى الصحف ، ويلاحقه فى المحكمة ، وهو داخل قفص الاتهام ، يحاول أن يسبر غوره ، اثنتا عشرة جريمة قتل واعتداء ، كيف يتحول الانسان الى قاتل ، انه « المعمل » الذى يقيمه الفنان ، يستمد منه « ماعونة » الا أن يحيى حقى ، لا يدعو ولا يطبق « طبيعية » اميل زولا ، ان يحيى حقى ، يسمى القصة « كأن .. » متجاوزا بالكلمة ، أن تكون مجرد عنوان قصة ، الى نظريته فى الفن .. خلاصتها المركزة ، ان الفن ليس هو الواقع ، ان الفن « كأن » هو الواقع ، فبين الواقع ، والفن المعبر عن هذا الواقع ، مسافة .

ويحيى حقى يفضل أن يستعيض عن اصطلاح الادب ، اصطلاح « فن القول » ليشمل ، القصة والروايه واللوحة والنقد والمقال الأدبى .

واذا كنا قد اومأنا الى ريادة ، يحيى حقى ، لفن القصة القصيرة الحديثة منذ ١٩٢٦ ، فقد بقى أن نشير الى انه ، اثرى فن اللوحة الأدبية ، وعنده لا تخلو اللوحة الأدبية من عنصر قصصى ، حادثه وحوار سريع ذكى كاشف ، الا انها تضيق بملالة السرد والحيل ، وتستجيب للتعبير عن عنصر المفارقة فى الحياة ، وتتيح له مساحات واسعة للسخرية ، فنبتسم ونحن نتخفف من عقدنا الآسنة ، ومن أطر تفكيرنا الجامدة المعوقة ، ونفتح النوافذ ، نتنفس هواء طليقا ، فنستعيد آدميتنا ، وفوق البيعة ـ كما يمكن أن يقول هو ـ سنتأمل فى اللوحة الأدبية ، العبرة والعظة والحكمة ، متبدية واضحة ، دون

تخفى ، ودون أستار القصة القصيرة أنظر «عنتر وجولييت» « فكرة فابتسامة »

والنقد الأدبى ، تزامن اهتمام يحيى حقى ، بالنقد الأدبى ، نقده ديوان « اغانى رامى » (١٩٢٥ ـ ١٩٢٨) والمنشور فى جريدة السياسة اليومية ٣٠ / ١٠ / ١٩٢٩ تزامن مع بدايات نشر ابداعه القصصى « قصة » « فلة .. ومشمش .. ولولو » والمنشورة فى مجلة الفجر بتاريخ ٨ / ٧ / ١٩٢٦ » وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على أن النقد الأدبى ، ملمح أصيل فى شخصية يحيى حقى الابداعية ، ويحكم يحيى حقى ، فى ممارسته للابداع الفنى ، وللنقد الأدبى ، مبدأ واحد ، انظر اليه يقول « تجنبت ـ بالسليقة لا بنصح من أحد ـ جميع المؤلفات التى تعالج صنعة القصة ، وترسم لها حدودهاوأهدافها، وتضع القواعد والشروط ، وتستخدم مصطلحات كثيرة ، كأننا فى هيكل ماسونى .. الفن ، فوق ، ووراءه جميع الآراء والنظريات .. انه خارج عن جميع التعاريف المانعة .. لا فن بلا صنعة .. لكن الصنعة فى الفن ، فن أيضا . . » « فكرة .. فابتسامة ص ١٩٠ / ١٩١ » .

وانظر اليه ، يقول عن اتجاهه فى تناول النقد الأدبى « لا أنكر اننى لم أخرج عن دائرة النقد التأثرى (الذاتى) ، فليس فى كلامى ذكر للمذاهب .. لا أدرس النقد دراسة منهجية ، تاريخية ، لا يسعدنى شيء مثل أن يفسح هذا الكتاب « خطوات فى النقد » مجال القول فى قيمة هذا النوع من النقد .. وهل نجح .. ولو من بعيد ، الى انشاء مذهب فى النقد » « خطوات فى النقد ص ١٠ » فيحيى حقى ، سواء فى الابداع أو فى النقد الأدبى ، لا يتبع مذاهب جاهزة مسبقا ، وفى النقد الأدبى ، اخذ الدكتور محمد

مندور ، على كتاب « خطوات فى النقـد » « أن يحيى حقى قد قصر نقـده ، عامدا متعمـدا على علم الاسـلوب الجمالى فى اللغة » الا أن الدكتور مندور قد افلت منه مقال يحيى حقى « توفيق الحكيم بين الخشية والرجاء » ١٩٣٤ ، وموضوعه نقد مسرحية « أهل الكهف » ورواية « عودة الروح » .

وقد اخـذ يحيى حقى على توفيق الحكيم انه فى المسرحية يدعو الى التصوف ، و « ليس لنزعات التصوف فى مصر محل ، لأنها فى ميدان قتال مادى يستلزم منهـا اقصى الجهاد وسلاحها فيه اعتداد بالنفس ، والتسـامى بها والشعور بقيمة هذا الشعب المظلوم المردوم فى الطين » ويطالب يحيى حقى ، فى نفس المقال « بكتاب أقوياء ، فيهم حرارة اليقين .. روحهم مزيج من الكبرياء والتواضع من الحـلم بالآمال ، والشعور بالواقع الملموس ، ادبهم مزيج من تعـاظم « هـوجو » وصـلابته ، واتضاع « دى بلزاك » الواقعى .. من تبشير «تولستوى» الرسول (لأن يده فى الماء) وألم « مكسيم جوركى » .. « ويده فى النار » « فجر القصة المصرية ص ١٣٠ / ١٣١ » وفى هذا المقال الفريد والهام والمبكر - والذى يحمل بقايا روح الثورة ، ثورة ١٩١٩ - فرق يحيى حقى ، فى عهد مبكر ، فى مجال النقد الأدبى ، بين مذهب الفن للفن ، والذى يهتم بجماليات الاسلوب واللغة والشكل ، وبين مذهب الفن من أجل الحياة ، حيث للفن رسالة اجتماعية، على قدم المساواة مع جمالياته ، وفى هذا المقـال ، ومن واقع نقد يحيى حقى لمسرحية « أهـل الكهف » ورواية « عودة الروح » فقد اخذ يحيى حقى وطبق الدعوة الى الفن من أجل الحياة ، ومع ذلك يبدو أن محمد منـدور ،

علي حق ، فان ، يحيى حقى ، مال ، بعد ذلك ، فى مجال النقد الأدبي الى الاهتمام بالاسلوب واللغة والجماليــات مركــزا على انســانية الفن ، دون أن يعطى للجانب الاجتماعى ، نفس الدرجة من الاهتمام ، ويبدو أن يحيى حقى ، كان ككل كتابنا الكبار ، بعد منتصف الثلاثينات ، قد غادر الثــورة الى الرشــد ــ كمــا يمكن ان يقــول استــاذنا لويس عوض ــ فى مجــال النقــد الأدبى ، أنظر « خطوات فى النقد » « فجر القصة المصرية » « عطــر الاحباب » « هذا الشعر » « انشودة البساطة » بقى من فنون القول ، فن المقال ، وهو مقال ادبى .. لا صحفى ، يصر يحيى حقى ، على التفرقة بين الاثنين ، وقد اتخذ ، المقال ، وسيلة ، لاغراض عديدة ، عبــر به عن همومه كمواطن واع مثقف بعانى مشاكل وطنه ، وهى ثقيلة ، يستشرف آمال مسـتقبله ، وهى متـأبية ، لا يـكاد يدع شيئا دون أن يسلط عليه ضوءه . الا أن أهم ما استخدم فيه المقال الأدبى ، هو الترجمة والسير ، لمن سمــاهم ، « ناس فى الظل » ويحيى حقى ، قد مارس احساســه الديمقراطى العميق ، للترجمة للانسان البسيط ، بحب وتعاطف وتواد ، واذا كانت الترجمة ، قديما ، كانت وقفا على الملوك والحكام والامراء وذوى الجاه والسطوة ، فقد غيرت النظرة الديمقراطية من هذا الرأى ، واصــبح نصيب المواطن العادى المكافح من الترجمة أو فى نصيب « التراجم والسير ، محمد عبد الغنى حسن ، ص ١٦ نشر دار المعارف » وهنا تتلاقى المقالة الأدبية مع ابداع القصة القصيرة ، فى ان الانسان البسيط المكافح ، عند يحيى حقى ، موضوعا لهما ــ القصة والمقالة ــ معاً .

وهنا يعبر يحيى حقى بلغته « عن هذا الشعب والى هذا الشعب كتبت المدرسة الحديثة » التى هــز احـد

أبنائها » وغنى سيد درويش ، ونظم بيرم ، ونحت مختار، وجدوا جميعا الأرض الصلبة التي يقفون عليها ... كلهم من دعاة التجديد المعبر في الوقت ذاته عن الأصالة » « صفحات من تاريخ مصر ص ٢١٧ »

وبالمقال الأدبي ، قدم يحيى حقي ، تراجم « للذين انسحبوا الى الظل » من كتاب وشعراء وفنانين ، رسامين وممثلين ، وملحنين ، « في الغربة » في الشيخوخة ، في قبضة الفقر ، في مكتب منزو كأنه اصطبل حمار شغل » « ناس في الظل ص ٧ » .

وامتد بالمقال الادبي، فيشارك به في احداث التغييرات الاجتماعية التي شهدتها مصر في الستينات « حقيقة معنى التشريعات الاشتراكية الأخيرة عندنا هي اننا لا نريد ان نتخلف في السباق مع الزمن .. » « .. ان الملكية عندنا اصبحت نظاما باليا ، عتيقا أفسح المجال للجمهورية ، هذا هو سير الزمن ، وان الشعب كله أصبح يؤمن بضرورة الاصلاح ، واول اصلاح هو اعادة النظر في توزيع الثروة العقارية — لأننا في بلد فلاحين — وان الشعب كله يؤمن ان أرض الفلاح قد سرقت منه ، وأن الاسرة المالكة هي رأس قائمة اللصوص .. ان الشعب كله ، أصبح لا يطيق السكوت على هذا الظلم ، وانه يؤمن أن «محضر التحقيق» في حادثة السرقة هذه ، لم يقفل بعد ، انه ينتظر قرار وكيل النيابة بوضع اللصوص في السجن ، ورد المال لاهله .. » « صفحات من تاريخ مصر ص ٤٠٣ / ٤٠٤ » لا غرابة في ذلك ، انه يحيى حقي ، ابن الحزب الوطني المصري ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، ابن ثورة ١٩١٩ ، اشترك في مظاهراتها ، وقرأ منشوراتها ، وكان يصاحب المرحوم والده ، في الذهاب الى سماع خطباء

الثورة « وكان الانجليز يطلقــون علينا النار » ، مع جموع
الوطنيين الذين كانوا يتحدون سلطة الاحتلال الانجليزى ؛
وهو ابن المدرســة الحــديثة في الأدب ، التى تخلصت من
الأساليب القديمة فى اللغة والفكر والفن » مجاوبة لتخلص
مصر من ذاتها فى ثورة ١٩١٩ ، من عهد التبعية والاحتلال
والحماية، الى عهد التحرر وتثبيت الشخصية والاستقلال»
« فجر القصة المصرية ص ٢٥٠ » « وكان لابد أن يتحول
الأدب ، ايضا ، من النزعة الرومانسية ، الى صراحة
المذهب الواقعى ، وأن يتخذ رجل الشارع والفلاح ابطالا
للقصص .. وهذا هو تفسير نشاة المدرسة الحديثة ..
مدرسة المذهب الواقعى « المرجع السابق ص ٢٥١ »
اكثر من هذا ، ان يحيى حقى ، يتخذ موقفـــــا فى غاية
الاهميه ، حين يسجل على تورة ١٩١٩ « ان ثورة ١٩١٩
ففدت سريعا فدرتها على التحول من الانقلاب الســياسى
الى الانفلاب الاجتماعى » « المرجع الســـابق ص ٢٥٣ /
١٩٦٤ » ارجوك ، لا تنسى ، دعوته الى اعادة النظر فى
توزيع الثروة العقارية ، وانظر اليه ، وهو يتســـــاءل
بعد أن تحدث عن « زينب » لهيكل ، وآثار محمد تيمور
الادبية « هل ولدت القصة اذن على يد فئة ارستقراطية
مرهفة ؟ اعتنقت الديمقراطية ؟ وهل لنا أن نقول انهــا
تخلصت بصعوبة من قبصة أبناء القصور ، ليتولاها ؛
أبناء الشعب ، للتعبير الصادق عن هذا الشعب » « المرجع
السابق ص ٧٥ ، ٧٦ » وليس هذا الموقف ، بالطارىء،
على يحيى حقى ، اصطنعه فى فترة الستينات ، مصـــانعة
للنظام السياسي الذى كان قائما آنذاك ، والذى كان يدعو ،
ويحاول أن يحقق ، دعوته ، للعدالة الاجتماعية . تأمل
الواقعة التالية ، ففي سنة ١٩٥٤ ، وبعد أن نشر يحيى

حقى ، رواية « قنديل أم هاشم » والقصص القصيرة التى كان ينشرها قبلها ، استدعاه ، أحمد حسانين « باشا » رئيس الديوان الملكى ، وظن يحيى حقى ، بطيب نيته ، انه سيستمع الى كلمة تحية وتقدير ، فتأنق ، وذهب ، وهناك ، كان احمد حسانين ، رئيس الديوان الملكى ، واقفا ، بقامته المديدة ، الى جوار مكتبه ، ولمح يحيى حقى على المكتب نسخة من رواية « قنديل أم هاشم » وتحدث احمد حسانين ـ غالبا فى ضيق

ـ ايه ده يا يحيى • مش لاقى غير الفقرا ، تكتب عنهم •• يا أخى شوف نجيب الريحانى ، عنده ، الفقرا ، ياكلوا فجل ، يتكرعوا تفاح ••

وانتهت المقابلة ، لتقول أشياء كثيرة ، ان يحيى حقى يكتب عن الفقراء ، الا أن القضية ليست هنا ، فان نجيب الريحانى ـ ايضا ـ يقدم الفقراء على مسرحه ، الاختلاف أن يحيى حقى يكتب عن الفقراء ، بصدق، انه لا يدلس على الفقراء ، أن رؤيته للحياة من موقفهم ، من عيونهم ، فليست القضية أن تكتب عن الأغنياء أو عن الفقراء ، القضية ، هى ، كيف تكتب عن شخوص أعمالك الادبية القضية ، هى ، ما اذا كنت تكتب للتوعية ، أو للتعمية .

وما ازعج السلطات فى أعلى قمتها ، رئيس الديوان الملكى، ان يحيى حقى يقول ان للفقراء الحق فى حياة انسانية كريمة ، ولنقل أن للفقراء حقا فى ثروة بلدهم ، موقف يحيى حقى ـ وهو الموقف الذى سبب القلق ، مع الفقراء والضعفاء والمساكين والمضطهدين ، وثقيلى الأحمال ، ليس موقفا طارئا فى حياته ، يرتبط بمناسبة ما ، ويعبره ناجيا بجلده ، لقد كتب يحيى حقى وعبر عن الانسان البسيط ، فى قصصه وفى رواياته ، وفى مقالاته الأدبية ، أيضا •

اللغة عند يحيى حقى ، لها موقع هـــام حتى وانه ليصارحنا ؛ « لقد ارضى أن تغفل جميع قصصى وكتاباتى، ولكنى سأحزن أشد الحزن ، اذا لم يلتفت أحد الى دعوتى للتحديد اللغوى » « قنديل أم هاشم ص ٤٥ » الا ان اهتمام يحيى حقى بالتحديد اللغوى ، وان صاحبه منــذ كتاباته الباكرة ، بل منذ نشأته صبيا فى البيت « كان الجو الغالب على بيتنا يتلخص فى ثلاثة مظاهر ، الأول : شغف برشاقة اللفظ ، والابتهاج بالتوفيق فى العثور على الكلمة المناسبة .. الثانى : نوع من الحيــاء يتنبه لزلة اللســان مهما كانت طفيفة .. » « المرجع السابق ص ١٧ » هذا الاهتمــام اللغــوى طرأ عليه تغيير فبعــد أن كان ينــادى باستعمال اللغة العامية « نأمل أن يكون تصميم كتابنـــا وشعرائنا وقصاصينا الاقتصار على لغة الشعب الــذى يجــاهرون انهم يودون رقيه وخدمته .. » « خطــوات فى النقد ص ١٢ » ولعل هذا الموقف الداعى الى اســـتعمال اللغة العامية ، كان أثرا من آثـــار ثورة ١٩١٩ فى ابراز الشخصية المصرية وتثبيتها ، فى الأدب والفن والاقتصاد واللغة كذلك الا أنه قد اتخذ موقفــا ــ أخيرا ــ أساسه ، اللغة الفصحى ، ويقول فى محاضرته فى دمشق فى ٢٥ مايو ١٩٥٩ عن « حاجتنا الى أسلوب جديد » « آن الاوان لان يكون لنا فى الادب اسلوب أسميه الاسلوب العلمى ، يعتمد على تحديد المعانى ، وبالتالى اختيار الفاظ محددة ، بل أقول الفاظ حتمية ، بحيث لا يكون المكان صـــالحا الا للفظ واحد .. اننى أتكلم عن أسلوب أدبى .. الجمــال شرط من شروطه الاساسية .. » راجع نص المحاضرة فى « خطوات فى النقد ص ١٥٥ وما بعدها » لكن يحيى حقى ــ فى اللغة ــ لم يتخلص تماما من دعوته الأولى الى استعمال لغة الشعب ، فمازال يرى جواز استعمال كلمات عامية

بشرط أن تحمل شحنة وجدانية ، والا توجد فى اللغة الفصحى ، كلمة تؤدى نفس المعنى ، « أكره الأبواب الموصدة ، والنوافذ المغلقة ، والادراج المصلجة والشفاه المطبقة .. » « ناس فى الظل ص ٥ » انه يستعمل كلمة « المصلجة » لأنها تحمل من الظلال الايحائية ، ما لا تحمله كلمة فصيحة ، لذلك لا يتردد فى استعمالها ، وغيرها كثير ، هو نفسه يفسر تحوله فى موقفه من استعمال اللغة العامية « ان الفصحى لم تكن قد افلحت بعد فى أن تسمى لنا أشياء نلمسها بأيدينا أو أفكار مجردة تطوف بعقولنا .. » « قنديل أم هاشم ص ١٧ » الا أن الحقيقة ان التحول من استعمال العامية الى الفصحى ، أثر من آثار عبوره الثورة الى الرشد . الأدلة كثيرة ، لنقرأ معا ، وهو أحد أبناء المدرسة الحديثة « كان أعضاء المدرسة الحديثة ـ فى أغلبهم ـ يعتنقون حرية الفكر ، المقدسات لا ترهبهم ، وأحيانا لا تقنعهم .. » « فجر القصة المصرية ص ٢٥٤ » حقا لقد رشدوا وشبعوا رشدا .

أنت ترى ، أن يحيى حقى ، ليس فنانا بحتا ، انه فنان مفكر ، وهاتان صفتان أصليتان فى تركيبه ، مرة يغلب الفنان المفكر داخله ، فيقدم القصة القصيرة ، والرواية وقصيدة النثر الرائدة « بينى وبينك » ومرة اخرى يغلب المفكر الفنان داخله ، فيقدم اللوحة / القصة ، واللوحة / المقالى ، الا انه وهو فنان لا يستطيع أن يتخلص من المفكر داخله ، ولعل هذا يفسر قلة الأحداث فى ابداعاته القصصية والروائية ، ففى رواية ، مثل « صح النوم » كاد أن يتخلص من الأحداث الا تلك الضرورية لتبدى أفكاره ، والمؤكد انه صرح فى احد أحاديثه أو بعض كتاباته ، انه يضيق بسرد الأحداث ، ولعل هذا أيضا يفسر ، انه لم يقدم عملا

روائيا كثير الصفحات ، ان المفكر داخله يضع قيودا على الفنان ، ان المفكر يقف بالمرصاد للفنان ، على أن المفكر ، والحمد لله ، ليس طليقا ، فالفنان صاحب دار اصيل ، لذا ، فالمقال الأدبى واللوحة ، ليسا أفكارا مجردة ، انهما أفكار حية ، فيها نبض حى ، أفكار مشخصنة ، انالمقال لوحة ، وقد تكون لوحة قصصية ، وعندما يقدم يحيى حقى اطروحته « فجر القصة المصرية » وهو كتاب فى تاريخ الابداع الادبى ، قدمه فى شكل لوحات حية «زينب » هيكل، محمد تيمور ، شحاته وعيسى عبيد واخيرا توفيق الحكيم ، بل أن موقفه من استعمال اللغة ، يشترك فى تحديده ، الفنان والمفكر ، فالدعوة الى حتمية استعمال اللفظ والكلمة والمفردة ، لم تصل بنا الى الدعوة الى استعمال الاسلوب التلغرافى ، والتى نادى بها استاذنا سلامة موسى ، ان لغة يحيى حقى ، شرطها الجمال ، والموسيقى الداخلية ، لا تخلو — فيها — فقرة ، من تشبيه ، وهى تشبيهات ، تقوم على علاقات بعيدة ، يعمل فيها بوضوح عمل المفكر وخيال الفنان . وقد اخذ يحيى حقى ، فى نقده ، للمجموعة القصصية « رسالة الى امرأه » ليوسف الشارونى ، خلو لغتها من التشبيه ، « خطوات فى النقد ص ٢٢٢ ومابعدها» وهو يصرح انه من المغرمين بالتشبيه .. « قنديل ... ص ٢١ » .

وقد جاءت لغة يحيى حقى ، مزاج فريد من تشـــــدد النظرة العلمية ، ويقف وراءها المفكر،ومن رحابة الخيال، وهو من متطلبات الفنان ، لذا فهى لغة فى حاجة الى تنبه والى يقظة لاستكناه العلاقات بين الكلمات داخـــــل هذه اللغة ، فكما انها لغة لم تكتب عفو الخاطر ، فانها لا تقرأ عفو الخاطر ، « قد اكتب الجملة الواحدة ، ثلاثين او اربعين

مرة حتى أصل الى اللفظ المناسب الذى يتطلبه المعنى »
« قنديل ... ص ٤٦ »

بل انه يقف أمام الكلمة أسبوع ، ففى رواية « قنديل أم هاشم » بعد عودة اسماعيل من انجلترا ، وشاهد امه تعالج عيني ابنة عمه فاطمة النبوية ، بزيت قنديل أم هاشم ، حمل عصاه ، وعلى مرأى من الناس ، حطم القنديل ، وتكأكأت عليه الناس ، ضربا ، وسقط على الارض ، ولما فاق كان عليه أن يقول كلمة ، ويحدثنا يحيى حقى ، فى حديث خاص،استغرقت أسبوعا للاهتداء الى كلمة تتضمن المعانى الآتية ! : البوح ، الاعتذار ، الاسترخاء ، الانين واخيرا اهتديت اليها ، انه يهتف : انا .

واذا كانت السطور السابقة ، قد أطلت على يحيى حقى الفنان / المفكر ، فى ايجاز مخل ، وفى قصور شديد، فان بعض السطور التالية ، تتقفيا يحيى حقى ، الشخص، ولعل هذه التقسيمات من متطلبات الكتابة ، فالحق أن يحيى حقى ، هو الشخص والفنان والمفكر معا ، وهو قد حاول أن يجنبنا الاجتهاد فى سيرته ، اذ سار على الدرب ، الذى سار عليه ، عدد من كبار كتابنا ، فقدموا سيرهم الذاتية ، اما خالصة كسيرة وترجمة شخصية ، أو متلبسة بأعمال أدبية ، مثل « ليالى سطيح » لشاعرنا حافظ ابراهيم ، الذى أخذ من التاريخ الفكرى ، شخصية « سطيح » واقام معها حوارا عن هموم الشاعر ، وهموم الوطن ، وثقل وطء الاحتلال الانجليزى للبلاد ، « انظر دراسة عبد الرحمن صدقى / مقدمة الطبعة الجديدة من « ليالى سطيح » ومثل « يوميات نائب فى الارياف » لاستاذنا توفيق الحكيم ، واذا كان هذا الرائد العظيم ـ

توفيق الحكيم ـ قدم عملا أدبيا جميلا من حياته الشخصية حيث اشتغل توفيق الحكيم فى بدء حياته وكيلا للنائب وهى ذاتها الوظيفة ، التى عمل بها بطل « يوميات نائب فى الارياف » الا انه قدم سيرته الذاتية ، صريحة فى كتبه « زهرة العمر » «من ذكريات الفن والقضاء» « عصفور من الشرق » ثم عرضها سيرة حياة « سجن العمر » ولم يكن الحكيم بدعا فى ذلك ، فالأدب العربى ، ولعل الأصح ، أن تقول الفكر العربى ، عرف ترجمات ذاتية عديدة ، عبد الرحمن بن خلدون ، محمد كرد على ، رفاعة رافع الطهطاوى وسنشير فقط الى تراجم الأدباء الذاتية ، « أيام » طه حسين بأجزائها الثلاثة ، « تربية سلامة موسى » لسلامة موسى ، « حياتى » لأحمد أمين ، « الحوار النور » لعبد الرحمن بدوى ، « أوراق العمر » للويس عوض « خط العتبة » لفتحى رضوان « أنا » للعقاد ، « معى » لشوقى ضيف . وسار يحيى حقى على الدرب ، فقدم « اشجان عضو منتسب » وهى سيره ذاتيه مختصره ، موجزة نشرت فى مايو ١٩٧٤ مع مجموعة الأعمال الكاملة ، كمقدمه لروايه « قنديل أم هاشم » والى « أشجان عضو منتسب » كنا نشير ، فى المرات التى رجعنا فيها الى « قنديل أم هاشم » وقد كتب يحيى حقى سيرته الذاتية ، عجولا ، متسرعا ، تحس انه ، لا يحب السرد ، حتى وهو يسرد سيرة حياته ، لاتزيدعلى ست وخمسين صفحة . هى كل ما « هان » على يحيى حقى أن يضع سيرته فيها . واذا كان قد دعا الى الاسلوب العلمى ، فانه قد طبق الاسلوب التلغرافى ــ ونجتزىء منها : ـ

ـ ولد فى ٧ يناير ١٩٠٥ فى بيت يقع فى حارة «الميضة» وراء مقام السيدة زينب « بيت من أملاك وزارة الاوقاف» وفى سنة ١٩٤٤ عندما كتب رواية « قنديل أم هاشم » قدم ميدان السيدة زينب فى ثلاث لوحات ، من وجهة نظر اسماعيل ، بطل الرواية ، مرة واسماعيل هادىء مستقر راض عن الحياة فى بلده ، ثم واسماعيل ساخط غاضب ثائر على الجمود والرتابة فى حياة مواطنيه ، بعد أن تلقى « الصدمة » وعاش الحركة واليقظة وديناميكية الحضارة الغربية ، واللوحة الثالثة ، بعد توازن ، واستقرار على ما يأخذه من حضارة الغرب اللدود وما يدعه منها ، وكيف يقدم ما يأخذه الى مواطنيه ، وكان « زيت القنديل » رمزا، للتوازن الذى انتهى اليه اسماعيل .

ـ البيت الذى نشأ فيه يحيى حقى ، كانت « الوالدة » شديدة التدين ، مغرمة بقراءة القرآن الكريم ، وكتب الحديث والسيرة النبوية ، وكان الوالد قارئا ، مغرما مفتونا بأبى الطيب المتنبى ، ولأخيه الاكبر ، ابراهيم ، مكتبة عربية وانجليزية ، وعمه ، محمود طاهر حقى ، كاتبا .

وقد صاحب يحيى حقى ، فى حياته ، عاطفة دينية حين واجه ، الحضارة الأوربية ، فى روما ، وفى باريس ، واخذ موقف التلميذ فى الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح ، وحركة التجديد ، والنشاط ، والابتكار .

ـ كان يحيى حقى نفسه « يشعر دائما ان داخله شيئا صلبا ، لا يذوب بسهولة فى تيار حضارة الغرب » .

ـ حصل على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية سنة ١٩١٧ ، من مدرسة والده عباس باشا الأول ، ويحرص

يحيى حقى ، أن يثبت فى سيرته ، انها مدرسة مجانية :
كان يلتحق بها أبناء الفقراء ، أما أبناء الاغنياء ، فقد كانوا يدرسون فى مدرسة الناصرية ، ورغم أن جد يحيى «ابراهيم حقى الكبير» «استطاع أن يقتنى حوالى مائة فدان» فانها كانت غالبا قد توزعت بين الابناء والاحفاد ، وعندما كتب يحيى حقى فى سيرته الذاتية ، انه كان فقيرا ، عاتبته الأسرة ، غاضبة .

ـ ثم التحق بالمدرسة الالهامية الثانوية ، وكانت تتبع نفس « الوقف » الذى كانت تتبعه مدرسة أم عباس ، وانتقل الى المدرسة السعيدية ، فالخديوية ، حيث حصل على شهادة اتمام الدراسة الثانوية فى سنة ١٩٢١ ، ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية (العليا) .

***

ـ كان متشبعا بمبادىء الحزب الوطنى المصرى « الذى انشأه مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) وهو التنظيم السياسى الثانى الذى يحمل نفس الاسم ، الأول أنشأه العرابيون ، وبعد الاحتلال الانجليزى ، تم قيام الحزب الوطنى المصرى ، للدفاع عن استقلال البلاد ، ومقاومة الاحتلال ، « ظل التنظيم السياسى للحركة الوطنية يتخذ شكل الجمعية السرية ، واذا كان التنظيم الذى أقامه القصر سنة ١٨٩٥ قد انهار نتيجة للانقسام بين المصريين والاوربيين فى اعضائه ، فان مصطفى كامل أعاد تشكيله سنة ١٨٩٦ ، من المصريين وحدهم ، وعلى رأسهم الخديوى ، كما كان من قبل ، وفى الوقت نفسه تقريبا تكونت جمعية أخرى ، أنشأها محام وكاتب شاب يدعى أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) .. واستطاع مصطفى كامل اقناع احمد لطفى السيد بادماج جمعيته ..

واصبحت الجمعية الموحدة ، هى الحزب الوطنى ، برئاسة الخديوى .. ومع ان مصطفى كامل كرس الجانب الأكبر من جهاده المبكر ، للحصول على تأييد أجنبى للخديوى ، فانه اهتم .. بنشر فكرة القوميـــة المصرية بين مختلف طبقات الشعب » راجع « الحزب الوطنى المصرى / ارثر ادوارد جولد شميث (الابن) / ترجمة فؤاد دوارة / ص ٨٩ / ٩٠ « سنة ١٨٨٩ اشترى مصطفى كامل آلة طباعة من أوربا ، وتعاقد مع عدد من المصريين ، واصدر العدد الاول من جريدة اللواء فى ٣ يناير ١٩٠٠ .. ولم يمض عليها وقت طويل الا واعترف بها كأقوى لسان معبر عن الوطنيين المصريين .. واخذ مصطفى كامل يتخلص تدريجيـــا من القيام بدور الداعية للقصر ، ليصبح ممثلا للطبقة المتوسطة المصرية .. فلما أنشأ « اللواء » اذ به يهاجم لا البريطانيين وحدهم .. بل الوزراء المصريين الخاضـــــعين لاوامر مستشاريهم البريطانيين .. وكتب مقالة عن « حقــوق الشعب وواجباته » .. وسطر دعوته الأولى لحكــومة ذات نظام نيابى تستند الى دستور مكتوب .. وتبلورت فى ذهنه فكرة الدستورية .. وكان يقصد بها قيام حكومة دستورية .. « المرجع السابق ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ » .

ـ التحق يحيى حقى ، اذن بمدرسة الحقوق العليا ، وهو على المام وايمان بمبادىء الحزب الوطنى المصرى ، اذ كانت جريدة « اللواء » هى جريدة اسرة يحيى حقى ، المفضلة ، وقد تشكل وجدانه ، من النشأة فى أسرة ، اضاعت بضعة فدادين آلت اليها عن الجد ، ومن مولده فى منزل « ضئيل » المبنى يتبع وزارة الاوقاف ، وفى وسط عائلة متدينة مثقفة ، تداوم على قراءة جريدة « اللواء » المعبرة عن مبادىء الحزب الوطنى المصرى (الثانى) حزب

مصطفى كامل ، والطبقة المتوسطة المصرية ، وما أضـــافه محمد فريد الى مبادىء الحزب الوطنى ، من الاهتمـــام بنقابات العمال ، ولهذا لم يكن غريبا ، أن يشارك الشـــاب يحيى حقى (١٤ سنة) فى مظاهرات ثورة ١٩١٩ ، وتعيش فى مخيلته مشاهد حية لا ينساها ، وفى ٢٨ / ٤ / ١٩٦٩ يكتب عن جنازة « ابن القباقيبى » الولد الوحيد ، والذى سقط قتيلا برصاص الانجليز فى مظاهرات ثورة ١٩١٩ « كانت ثورة لأن الناس بدأت تألف لأول مرة كلمة الشعب .. لم تكن ثورة مثقفين وحدهم أو عمال وحدهم ، بل ثورة الشعب كله اتحد فى عجينة واحدة ، زالت الفروق .. » « صفحات من تاريخ مصر ص ٢٣٣ » ولاحظ انه وهو يكتب عن ثورة ١٩١٩ يستعمل مفردات ثورة / ١٩٥٢ ، والتي كان من أهم مقولاتها ، وقت ان كانت ثورة ، حية ، معاشة، تجاهد لتحقق ذاتها ، مقولة « وحدة قوى الشـــــعب العاملة » ، على أن ، ولنستعمل هذا اللفظ تجاوزا ، انتماء يحيى حقى لمبادىء الحزب الوطنى المصرى ، والتى كانت تحملها الى بيته ، كل يوم ، جريدة « اللواء » ومشاركته فى ثورة / ١٩١٩ ، وما أخذه عليها من انها بقيت انقلابا سياسيا » ولم تتحول الى ثورة اجتماعية ، وانتمـــائه الفكرى ، الى المدرسة الحديثة فى الادب ، ستظل دائمـــا عناصر أساسية فى بنائه الفنى والفكرى ، ولا ننسى أن المدرســـة الحديثة قد انتزعت ، بصعوبة ، راية القصـــة والرواية من أبناء القصور ، لتضعها بين يدى أبنـــــاء الشعب .

— يسجل يحيى حقى ، انه قرأ كل ما وقع تحت يده من كتابات عبد الله النديم، ولعل منها ما كتبه عن ذلك الولد المصرى ، الذى تعلم فى اوربا ، ورجع يخاطب امه وأباه

بلسان ملتو ، الا ان هذه الحدوته ، لا علاقة لها ، بقنديل أم هاشم ، وفقط يدل الأمر ، على ان فكرة العلاقة ، بين ، من يتلقـون التعليم فى أوربا وبين وطنهـم ومواطنيهم ، فكرة قديمة ، منذ سافر رفاعة رافع الطهطاوى الى فرنسـا وعاد منها ،ميدانا للصراع بين حضـارة بلاده باسـتاتيكيتهـا ، وحضارة الغرب الديناميكية • ومازالت القضية ، قائمـة ، حية ، الموقف من حضارة الغرب • وقرأ أيضا ، كل ما نشر عن دنشواى •

ويحيى حقى يستعمل كلمتين دالتين ، فبالنسـبة لعبد الله النديم ، قرأ ماوقع تحت يده من كتـاباته ، وبالنسبة لدنشواى ، قرأ « كل » ما كتب عنها. والحقيقة، بعد ذلك ، ان يحيى حقى ، لم يحدثنا ، باستفاضة ، عن قراءاته وهى قراءات واسعة ، أعانه عليها ، شغف باللغة (فصحى وعامية) ومعرفة وثيقة بعدد من اللغات الأجنبية لعلها ، الانجليزية من مكتبة أخيه الأكبر ابراهيم ، والتركية حين عمل فى القنصلية المصرية باستامبول ، والايطالية ، حين نقل الى روما ، واجاده الفرنسية وهو سكرتير اول بسفارتنا بباريس ، وهو يسجل انه اسـتمع الى خطب مصطفى كمال اتاتورك ، وبندتو موسيلينى وادولف هتلر فى المانيا . وخطباء الجمعية الوطنية بباريس ــ تخـرج يحيى حقى فى مدرسة الحقوق العليا فى سنة ١٩٢٥ وحاول السفر فى بعثة دراسية بالخارج ، وفشل ، وعمل سـنتين وكيلا للنائب العام من منازلهم ثم بالمحاماه ، فى الاسكندرية وفى دمنهور •

ــ فى اول يناير ١٩٢٧ ، تسلم عمله « معاونا للادارة » بمركز منفلوط ، (بمديرية) اسيوط ، وهى وظيفة تقع

بين وظيفة وكيل النائب العام ووظيفة ضابط الشرطة .
وقضى فى هذا العمل سنتين ، يصفهما « أهم سنتين فى حياتى على الاطلاق » « أشجان عضو منتسب ص ٣٤ / ٣٥ » وهما سنتا ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ .

ـ فى عامى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ عمل أمين محفوظات بقنصليتنا بجدة ، واتاح له الفراغ ، أن يقرأ مكتبة القنصلية ، واهم ما قراه فى هذه الفترة ، « تاريخ الجبرتى »

وعلينا ان ننتبه الى ان عناصر جديدة ، ستقتحم شخصية يحيى حقى ، معايشة الحكم الأوتو قراطى .

ـ فى سنة ١٩٣٠ نقل من جدة الى استانبول . وقضى أربع سنوات ، « شهد تحول دولة شرقية اسلامية ، الى دوله علمانية » حديثة وشهد الحكم الفردى، الديكتاتورى، ولم يتعاطف مع التجربة ، لمشاعره الدينية العميقة ، التى اصطدمت بالغاء نظام الخلافة ، كوسيلة من وسائل الحكم، ومازال ـ حتى الآن ـ يتحدث بتعاطف ، وفى براءة ، « عندما حملوا وثيقة التنازل الى الخليفة ، كان سؤاله الوحيد : هل صدق المفتى على الوثيقة ؟ ولما اخبروه بتصديق المفتى ، سحب القلم ، ووقع وثيقة التنازل » ويحيى حقى ، يقصد ، ان السلطان العثمانى ، كان يتقيد بقواعد الشرع ، بقى انه ، هناك ، لقى بعض أقاربه ، فالجد ابراهيم حقى الكبير ، كان قد قدم الى مصر ، فى أوائل القرن التاسع عشر من بلاد المورة بتركيا .

ـ نقل من استانبول الى روما ، وبقى بها خمس سنوات ، اتصل خلالها بالحضارة الغربية ، وشهد تجربة الحكم الفاشستى لايطاليا على يد موسولينى واذا كان يحيى حقى ، لم يذب فى الحضارة الجديدة ، وعصمته

حضارة بلاده وتاريخها ، وتجاربه ، وأنتماءاته السياسية والفكرية والفنية التى كونت شخصيته قبل أن يصطدم بحضارة الغرب ، فلاشك أن حياته فى ايطاليا ، ثم فرنسا، بعد ذلك ، كان رافدأ أساسيا فى تكوينه « كان يشعر أن لديه حضارة ان لم تفق حضارة الغرب ، فهى تماثلها ، فضلا عن لديه دينا متكاملا » « وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر .. » « أشجان .. ص ٣٣ » .

ـ عاد الى مصر سنة ١٩٣٩ وتنقل بين وظائف وزارة الخارجية ، وبذلك اكتملت تجربة « قنديل أم هاشم » انها ليست رواية مكتوبة ، انها واقع معاش ، فضلا عن انهـا واقع تاريخى ومعاصر ـ فى سنة ١٩٤٩ ، عاد الى أوربا ، مرة ثانية ، هذه المرة ، الى فرنسا ، حيث « الاحساس الغامر بطعم الحرية » بعد أوتوقراطية جده ، وديكتاتورية مصطفى كمال ، وفاشستيته موسولينى ، عاد الى فرنسا ، حيث الحكم النيابى ، وحيث الحكومة الدستورية ، هذه المبادىء ، التى قرأ عنها شابا ، فى جريدة « اللواء » واستمع اليها ، غالبا ، فى خطب مصطفى كامل .

ـ فى حياة يحيى حقى تجربة عاطفية عاصفة ، لا يفرد لها عملا أدبيا مستقلا ، كرواية « سارة » للعقاد مثلا ، انه يشير اليها باقتضاب ، ليست اشارة صريحة ، بل بمناسبة الحديث عن واحدة من رواياته « .. كتبتها فى حجرة صغيرة كنت استأجرها ، فى حى عابدين ، وعشت فيها لوثة عاطفية مثيرة ، عبرت عنها فى أناشيد « بينى وبينك » « أشجان .. ص ٤٣ » .

واللوثة العاطفية التى يشير اليها ، عاشها سنة

١٩٤٠ ، وسجلها ، فى قصيدة النثر ، ٣٢ مقطوعة ، وهو عدد حبات المسبحة الصغيرة « ٣٣ حبة » والحبة الناقصة ، هى فتاته ، التى « هجت » منه فى صبحية ، « ما قالت لى عواف » كما يقول بيرم التونسى .

وهذه ليست التجربة الأولى ، فى حياة يحيى حقى ، فانه يحدثنا ، فى اشجان عضو منتسب ، انه فى سنتى منفلوط ، «اتصل مباشرة ، وبحرية ، بالجنس الآخر . وقد عشت هناك ، تجربة حب خصبة عميقة » ص ٢٦ ، ويحيى حقى لم يسجل هذه التجارب فى اعمال روائية ، الا ان قصصه ، ومنها قصتا « أبو فوده ، وقصة فى سجن » لتشير الى معرفة وثيقة بطغيان الغريزة بل انه فى أكثر من موضع يشبه تقدم مياه فيضان النيل ، فى ارض الحياض بالصعيد ، كلقاء جنسى —

— لماذا لم تتزوجها ، يااستاذ يحيى ؟ وهل هى الظروف الاجتماعية ؟

— قد لا أكون فى الأصل ، مؤمنا بفكرة الزواج ، وهذا بينى وبينك .

لكن يحيى حقى تزوج فى سنة ١٩٤٢ .. « وسرعان ما توفيت بعد أن انجبت وحيدتى « نهى » وتركت فى نفسى حسرة لا تنقضى » « اشجان .. ص ٤٤ » وفى سنه ١٩٥٤، وهو باريس ، التقى بفنانه ، وعبر حديثهما عن لوحاتها ، تلاقت العواطف ، وكان الزواج ، الذى من اجله ترك السلك الديبلوماسى،وعمل رئيسالمصلحه التجارةالداخلية ثم فى سنة ١٩٥٥ عمل اول وآخر مدير عام لمصلحة الفنون ، وقام بدور فى اكتشاف الفنون الشعبيه ، وعمل على احتضان الدولة لها ، بعد طول اهمال ، او ازدراء

كما يسميه ، وكانت فرق الرقص الشعبى ، والاغانى الشعبية ، واكتشاف الفنان الشعبى زكريا الحجاوى ، وقد واجه مقاومة من كمال الملاخ ، صاحب الصفحة الاخيرة فى جريدة الاهرام ، وحققت الفنون الشعبية ، مكانتها ، كنسيج حى فى الوجدان المصرى ، ويسجل يحيى حقى ، ان الفنون الشعبية ، حققت ، دون القصة القصيرة ، الهدف منها ، وهو أن تكون مصرية لحما ودما ، واذا كان لنا اليوم معاهد فنية ، ومسرح عرائس ، واوركسترا القاهرة السيمفونى وكورال أوبرا واكاديمية للفنون ، فالبذرة ، هناك ، فى دور مصلحة الفنون . . اننا — ومزة اخرى — أمام ، أين الشعب ، العاشق له ، تاريخا ، وفكرا ، وفنونا ، واحياء .

— فى ابريل ١٩٦٢ ، عين رئيسا لتحرير مجلة «المجلة» ويظل يتولى مسئوليتها حتى ديسمبر ١٩٧٠ ، حيث فوجىء بتركه لها ، ابان رئاسة الدكتورة سهير القلماوى للهيئة العامة للكتاب ، التى كانت تصدر عنها مجلة « المجلة »

— وفى مجلة « المجلة » قدم يحيى حقى جيلا كاملا من القصاصين ونقاد الأدب ، قصاصين قادمين ، من العزب والدساكر والكفور ، فتح لهم صفحات مجلة « المجلة » والتى كانت تحمل على غلافها شعارا مهيبا ، يبعث الخوف والوجل فى القلوب الناشئة « سجل الثقافة الرفيعة » واذا كان تاريخ الأدب فى مصر ، يتحدث عن « جيل الستينات » فقد نشأ وتثبت هذا الجيل ، على صفحات « المجلة » باصرار ووعى من يحيى حقى ، وللامانة ، على الصفحة الأدبية لجريدة « المساء » أثناء ان كان يشرف عليها ، القاص والروائى « عبد الفتاح الجمل » .

— كان الظن ان يحيى حقى مقل ، وهو نفسه اشار

الى ذلك فى « اشجان عضو منتسب » ولكن بعد الجهد الصادق الذى بذله الاستاذ فؤاد دواره ، أصبح لدينا ثمانية وعشرون مجلدا ، جمعت فيها ، أغلب كتابات يحيى حقى ، وكم وددنا ، لو ان فؤاد دوارة ، اتيح له ان يحدثنا عن المنهج الذى اتبعه فى جمع أعمال يحيى حقى التى لم تكن قد جمعت بين ضفتى اغلفة ، وأن يتبعها بمجلد يلم الاحاديث التى ادلى بها يحيى حقي ، وهى بالضرورة ثرية ومتنوعة بقدر ثراء فكر يحيى حقى نفسه وتنوع اهتماماته وعمقها ، ولكي ندرك الجهد ، الذى بذله فؤاد دوارة ، فان دارسا جزائريا ، قدم اطروحه دكتوراه عن « يحيى حقى ناقدا » وكان المجلد الثانى ثبت بالمقالات التى رجع اليها الدارس ، وبفضل مجهود فؤاد دوارة أصبح متاحا لنا ، أن نفتح المجلد من أعمال يحيى حقى ، لنجد ضالتنا ، وفى نهايتها تاريخ ومكان النشر .

ـ ترجم يحيى حقى ، عددا من الأعمال الروائية والمسرحية ، « البلطة » تأليف ميخائيل سادوفيانو ، « لاعب الشطرنج » ستيفان زفايج ، « طونيو وكروجر » توماس مان ، « الأب الضليل » اديث سوندرز ، دراسة عن مدينة«القاهرة»تأليف ديذموند ستيوارت،ومسرحيتى « كنوك » لجون رومان،و «الطائر الارزق» لموريس‌مترلنك وهو يعتز بترجمة مجموعة قصائد « همس الملاك » لشاعر الهند العظيم ميرزا أسد الله خان غالب « هذا الشعر ص ١٨٧ / ٢٢٠ » وفى كل هذه الصفحات ، ستقابلك ، مع الأمانة ، لغة يحيى حقي واحساسه ، وجهده ، ومعاناته .

ـ ومازال يحيى حقى ، يشع فينا وفى حياتنا ، فكرا وفنا ونشاطا ، ورعاية ، تعبر عنها المقولة ، التى اوردها

اندريه مالرو ، فى رواية « قدر الانسان » ترجمة فؤاد كامل « استاذ بالمعنى الصينى للكلمة ، اى أقل من الأب قليلا ، واكثر من الأم »

سندلف ، الان ، والفعل « دلف » من الأفعال التى اخذ يحيى حقى ، على الكتاب الذين كانوا شبانا ، كثرة استعمالها ، سندلف الى واحد من كتب يحيى حقى الأثيرة « خليها على الله » أثيرة ، عنوانا ، ففى الحياة ، « يفرد زورقه ، والبحـــر المخـوف أمامه » ، ويقـول خليهـا على الله ، وهذا لا يعنى أن يحيى حقى درويش أو كالدرويش ، فهو صاحب الدعوة الفويه ، الى تنمية الارادة الانسانية انما يقول لك ، ابذل جهدك ، أقصى جهـــدك ، اعرق ، وكافح ، وان عصتك المقادير ، والظروف والملابسات ، وآليات الحياة ، فلا تقف باكيا ، متحسرا ، قف ، واصلب عودك ، وابتسم ، لأن ، الابتسام قوة ، الانسان المتحسر ، المرور ، ضعيف ، ولعل يحيى حقى ، ينصحنا ، الانسان القوى ، خير من الانسان الضعيف ، وخذ بالك من عناوين يحيى حقى : « قنديل أم هاشم » ، « فكرة فابتسامة » ، « دمعة فابتسامة » ، « أم العواجز » ، « عطر الاحباب » ، « ياليل ياعين » ، « من فيض الكريم » ، « من باب العشم » هو يقول ، لا تعاند الاقدار ، لا تكن مثل « أوديب » فى الاسطورة اليونانية القديمة ، عاند الأقـــدار ، فكانت النتيجة ، وبالا ، قتل آباه ، وبنى بأمه ، وفقا عينيه • دمعة فابتسامة ، اى لا تجعل الهزيمة ، آخر منالك ، وآخـــر المطاف ، وكما ان يحيى حقى ـ فى حياته ـ يترك جانبـــا للمجهول ، فقد أخذ بنفس المبدأ فى كتابه .

والكتاب ليس أثيرا ، فى عنوانه ، وحده ، انه اثير فى موضوعه ، لقد سمى كتاب « خليها على الله » مذكرات ،

ولكنه سارع ، « مذكرات عابر سبيل » ، أى ليست مذكرات « مقيم » ، يذكر تاريخ الحدث بالساعه واليوم، ويوثقه فى مصلحة الشهر العقارى ؛ ولا يكتفى بذلك ، انها ، « مذكرات عابر سبيل ، يرويها عفو الخاطر ، تاركا نفسه على سجيتها ، والحبل على الغارب » أى انه لم يربط نفسه الى مكتب ، ليقدم للناس سيرة يحيى حقى ؛ بخطاياها ؛ بقصد التوبة ؛ كما فعل ، القديس « أوغسطين » « ٣٥٤ — ٤٣٠ م » وبعبلها ، بقصد الحكمة، كما فعل ، جان جاك روسو ، فى اعترافاته ، أو بتخطيط فكرى صارم ؛ كما فعل « جان بول سارتر » فى«الكلمات» ان يحيى حقى ، عندما كتب « خليها على الله » فى ثلاثةعشر مقالا ، نشرت بجريدة « الجمهورية » فى الفترة من ٢٧ / ١٩٥٩/٣ حتى ٢٦ — ٦ — ١٩٥٩ ، وبناء على طلب من احمد رشدى صالح ، المسئول عن الجريدة ، آنذاك ، وهى الجريدة التى انشأتها الثورة ، لتعبر عنهــا لدى جماهير القراء ، لم يكن قصده . ان يقدم سيرته « هو » الذاتية بالدرجة الأولى ، كان هدفه ، أن يقدم ، من خلال معرفته الشخصية ، ومن خلال تجربته الشخصية ، صورة للمجتمع فى مدينة منفلوط فى أواخر العشرينات من هذا القــرن « حيث أتيــح لى أن أعــرف بلادى ، وأهلهــا ، واخالط الفلاحين عن قرب ، وأهمية هاتين السنتين ترجع الى .. اتصالى المباشر بالطبيعة المصرية ، والحيوان ، والنبات .. واتصالى المباشر بالفلاحين ، والتعرف على طباعهم ، وعاداتهم » ونحن هنا على خلاف « أيام » طه حسين ، و « حياتى » لاحمد أمين ، و « سجن العمر » لتوفيق الحكيم و « اوراق العمر » للويس عوض ، لا نرى صاحب السيرة ، بالدرجة الأولى و « على نمط » « خليهــا

على الله « جاءت سيرة فتحي رضوان صبيا « خط العتبة »
أننا نرى من خلالهما صورة المجتمع الذى عاشا فيه
الكاتبان ، صحيح ان أصحاب السير الذاتية ، التى سبق
أن ذكرناها طه حسين واحمد أمين والحكيم ولويس عوض
يقدمون الينا أيضا ، المجتمع الذى عاشوا وتحركوا ، فيه،
الا أن ذواتهم ، ماثلة ، موضع الاهتمام ، وتأتي صورة
المجتمع بمناسبة الحديث عن شخصياتهم ، وهذا ، خلاف
« خليها على الله » و « خط العتبة » ، خصوصا الجزء
الثاني من « خليها على الله » وهو الجزء الأكبر ، والخاص
بيحيى حقى فى مدينة ومركز منفلوط ، اذ يقدم المجتمع
فى مدينة منفلوط ، وفى القرى والعزب والعشش التابعة
لمركز منفلوط ، ان يحيى حقى ، حين ذهب الى منفلوط
فى سنتى ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، كان ، رغم حداثة سنه ـ
فقد كان فى الثانية وفى الثالثة والعشرين من عمره ، ورغم
حداثة السن هذه ، فان يحيى حقى ، كان متعطشا
الى المعرفة ، اقرأ معي « نخرج من المدينة ونسير قليلا
على جسر « الابراهيمية » ثم نعرج على سطح صليبة
حوض .. يكون الجبل أمامنا تارة ، أو عن يميننا أو
يسارنا تارة أخرى ، وكان راسى يصيبه الدوار أول
الأمر ، من حوالينا غيطان متشابهه تمتد الي مرمى البصر
.. كان صوتا خفيا مرهوبا أمر الدنيا بالصمت « ص/
١٠١ » « كان رأسه يصيبه الدوار » ، ان يحيى حقى الفنان
يكتشف الدنيا الجديدة ، يكتشفها بوجدانه ، وبحسه ،
وبمشاعره ، يكتشفها حية نابضة ، يكتشفها مجسمة ، الى
الحد الذى يصيب رأسه بالدوار ٠ انه ليس سائحا يتفرج،
انه المواطن المحب الشغوف المهموم ببلده وبمواطنيه ، انه
ليس «هيرودوت» يجوس خلال بلاد غريبة عجيبة، رغم انى،

وانا اعيد قراءة « خليها على الله » سحبت كتاب «هيرودوت في مصر » وهو الاجزاء التي خصصها المؤرخ الكبير عن رحلته الى مصر ، وأعدت قراءته .

ويحيى حقي ، المكتشف ، والمتعطش الى المعرفة ، يحمل معه شغفه باللوحات ، وكثيرا منها فيهـــا عنصر القصة ، وهي ــ كالعادة ــ لوحات ، ذات دلالات ، تقدم الانسان والبيئة ، مهما بدت شاذة مسيئة ، منهـــا ، مجموعة لوحات ، لطبيب مركز منفلوط ، وهو الطبيب الشرعي ، لوحة لفلاح يزحف وراء هذا الطبيب ، يرجوه، انزال الحصوات ، التي حجزت البول ، حتى ملأت مثانته، والطبيب يرفض ، لأن الفلاح ليس معـه ريال . ويقـدم لنا ، هذا الطبيب ، يجرى عملية جراحية ، تدليســا ، لمريض يموت ، ويتقاضى الاجر ، وقد جمعتـــه زوجة المريض من ايادي الجيران ، ونفس الطبيب ، يشرح جثمان الموتى ، دون مقتضى ، وامام الناس ، لا لشيء ، ســوى أن يقبض أجر التشريح الى آخر « حيوانيات » هـذا الطبيب ، والتناقض الغريب ، وهو تناقض دال ــ أيضا ــ ان يحيى حقي صحب هذا الطبيب ، الى منزله ، مرة وحيدة ، « دخلت مسكنا انيقا ، نظيفا ، ينم لأول وهلة، عن ثقافة أوربية ، ستائر ملونة ، أنوار خافتة .. اثاث مريح من الطراز الانجليزي .. مكتبة غربية عامرة .. وبيانو في ركن الصالون .. يسود الدار جو من الســلام والدعة والنظافة والرقة والاطمئنان .. ومع ذلك لم أنعم بعشائي الفاخر ــ بين أطقم من الكريستال والفضة ــ وأنا احاول أن أطابق ما اشهد على سيرة الطبيب خارج داره» « ص ١٩٢ ، ١٩٣ » لقد عاش الطبيب داخل قلعة ..واقام حولها المتاريس .. ويتحدث يحيى حقى عن نفسه ، انه

يعيش دائما خارج المتاريس ، مع الناس ، لا ينفصل عنهم ، « ووقاني الله سبحانه وتعالى طول حياتي من شر هذا السياج » ص ۱۹۳ السياج الذى يفصل بينه وبين الناس وهم يعانون ويكدحون ، انه يشارك مواطنيه معاناتهم ، ـ فى سنة ١٩٥٩ ، حين اختار يحيى حقى أن يكتب ما تيسر من سيرته اختار فترة محددة ، لقد خطا على مرحلة التكوين الأولى ، وبدأ من سنة حصوله على ليسانس الحقوق فى يوليو ۱۹۲٥ ثم سنتين ، عمل فيهما محاميا ، وسنتين عمل فيهما معاونا للادارة ، وهي وظيفة ، لم تعد قائمة حاليا ، كانت بين وظيفة وكيل النائب العام، ووظيفة ضابط الشرطة . ولما كانت المذكرات ، مذكرات عابر سبيل ، فهو لا يتقيد بالتسلسل الزمنى ، فليس ما يمنع أن يرجع الى ماوراء الفترة التي بدأ فيها ، سنة التخرج ، ويحدثنا عن مدرسة الحقوق بين النفوذ الفرنسي والاحتلال الانجليزى ، والمنافسة بينهما للسيطرة عليها ، وأساتذة الحقوق من انجلترا وفرنسيين ومصريين ، ثم وهو يحدثنا عن سحر الخطابة، ليس ما يمنع أن يخطو في الزمن الى الامام ويحدثنا عن فترة لاحقة لعمله فى منفلوط ، عن استماعه لخطب مصطفى كمال أتاتورك ، وموسوليني وهتلر وجوبلز والى خطباء الجمعية الوطنية الفرنسية ، بل انه لا يتردد ، وهو يحدثنا عن السيرة الماضية ، ان يسحب الحديث الى اللحظة الأنية ، التى يخط فيها مذكراته ، ترك القاهرة الى الاسكندرية ، يعمل محاميا ، ووجد فى الاسكندرية محاميا يعمل معه فى مكتبه ، وكان المحامي ، يهوديا ، فيسجل ـ يحيى حقى ـ موقفه الآتى ،

الذى لم يكن موجودا ابان وقوع الحدث ، « كانت هـذه الكلمة ـ يهودى ـ لا ترن فى أذنى فى ذلك الوقت ، رنين اجراس عربة المطافىء أو الاسعاف .. كنا فى غفلة تامة .

ـ بفضل سذاجة زعمائنا السابقين ـ عن الخطـر الداهم رغم النذر السافرة والطلائع البينة ، أكان هذا ايذانا من القدر بان خطوتى الأولى تجمعنى بهذا الجنس العجيب « الاسرائيليين » من الناس الذى سـيقابلنى شبحه فى مستهل كهولتى ، فينكبنى ويؤذينى اشد الأذى .. ويقلب كل المبادىء الجميلة التى أعتنقها بحب وغرام بأضداد لها » « ص ٧٠ » ان المحامى اليهودى الذى عمل فى مكتبه سنة ١٩٢٦ جاء مناسبة ، ليحـدد موقفه الجديد ، من « اسرائيل » ، ثم راجع مقال « نكبة روحية » كتاب « دمعة فابتسامة ، ص ٥٠ وما بعدها طبعة الكتاب الذهبى ديسمبر ١٩٦٥ » ثم اغمضت عينى وفتحتها فاذا بى أرى العنصرية تعود فى أبشع صورها فتؤسس دولة اسرائيل .. « كان قد زال من قلبه كل أثر للتعصب ، وحلم باليوم الذى يسود فيه السلام والعدالة ، حتى جاءت اسرائيل ، فمثل قيامها له « نكبة روحية ، قلبت كل المبادىء الجميلة ، التى سبق أن اعتنقها .

انه يقدم اللوحة / الحدث بامتدادها فى الزمن سواء سبق الفترة التى يتحدث اساسا عنها ، أو كان لاحقا لها . وبذلك ، لا تنفصل المذكرات عن الواقع الراهن الحى المعاش ، ولا يدع قارئه يعيش فى ماض عفى عليه الزمن . على ان القارىء ـ مطالب ـ أن يعمل فكره ، ويقيم الربط ، فحين يحدثنا عن المحاكم المختلطة ، وقد كانت

أثرا من آثار الامتيازات التي تمتع بها الاجانب في بلادنا ، واتفق على الغائها في معاهدة / ١٩٣٦ ، وكان آخر العهد بها ١٥ اكتوبر ١٩٤٩ .. فسنعرف ان الواقعة وضعت هنا كجزء من تاريخ بلدنا ، على أن الكثير مما كان يحيق باهلنا ، وسجلته المذكرات ، مازال قائما ، وان اختلف الشكل ، ولعل هذا بالتحديد ، هو ما يشغل بال يحيى حقي ، حاليا ، هذه الصورة التي قدمتها ، هل مازالت قائمة ، هل الهوة التي تفصل الفلاح عن الحكومة مازالت قائمة ، ، هل الجفوة بين موظفي الحكومة وبين الاهالي مازالت قائمة ، هل مازال بعض أهالينا يساكنون الحيوانات في بيوت من أعواد الغاب وطعامهم العيش والبصل في الوجبات الثلاث ، يحيى حقي عاش في الصعيد وعينه وسمعه وحسه ومشاعره وأفكاره ، آلة فوتوغرافية عاقلة واعية تسجل ، وكان تأثير الصعيد على يحيى حقي عميقا « في أول يناير ٢٧ تسلمت عملي الجديد معاونا للادارة بمركز منفلوط حيث قضيت أهم سنتين في عملي على الاطلاق » « أشجان .. ص ٣٤ »

وقد تبدت هذه التجربة في أعمال فنية ، قبل أن يسجلها كسيرة ذاتية ، من حياته في الصعيد ، قدم ، قصة « البوسطجي » ومجموعة قصص « دماء وطين » وبعض قصص مجموعة « أم العواجز » وأعتقد أن رواية « صح النوم » رغم أنها لا تفصح، تجد مذكرتها الايضاحية في كتاب « خليها على الله » فالقرية التي تقع على الجسر، والحان ، والنماذج ، يفسرها كتاب « خليها على الله » .

واذا كنا قد عشنا مع يحيى حقي ، سنتيه الصعيديتين ، فان سنوات عديدة ، أفلتت منه ومنا ، تلك ،

سنوات عمله في السلك الدبلوماسي ، سواء في جدة ، أو استانبول أو روما او باريس او في وزارة الخارجية كمدير مكتب وزير الخارجيه ، واذ تسأله يجيب :

الحقيقة انه من الاشياء المؤلمة انني لم اكمل تاريخ حياتي بعد « خليها على الله » اذ كان ذلك يقتضي ان تكتب تاريخ الخارجية المصرية ، بما يقتضيه من الاطلاع على وثائق بالقلعة وغيرها ، مما لم تمكنني حياتي من انجازها ، وبالتالي عدلت عن أن أكتب عن هذه الفترة تفصيلا ، ثم استدرك، انني لست كاتبا سياسيا . . فالفكرة المستغرقة لكل كتاباتي هي الانسان . . كانسان .

يقول يحيى حقي هذا ، وهو الذي عمل مدبرا لمكتب وزير الخارجية ، قرابة عشر سنوات ، وفي ادراج مكتبه شفرات وزارة الخارجية .

لذلك ، فانا اعتقد ، الى جوار السبب ، الذي ذكره يحيى حقي ، من انه ليس كاتبا سياسيا ، يوجد سبب آخر ، اذ ان صاحب امتياز اصدار جريدة « الجمهورية » قال في لحظة ما ! يحيى حقي .. كفاية بقى !! وتوقفت المذكرات .. مذكرات عابر السبيل .

فما أشد خسارتنا

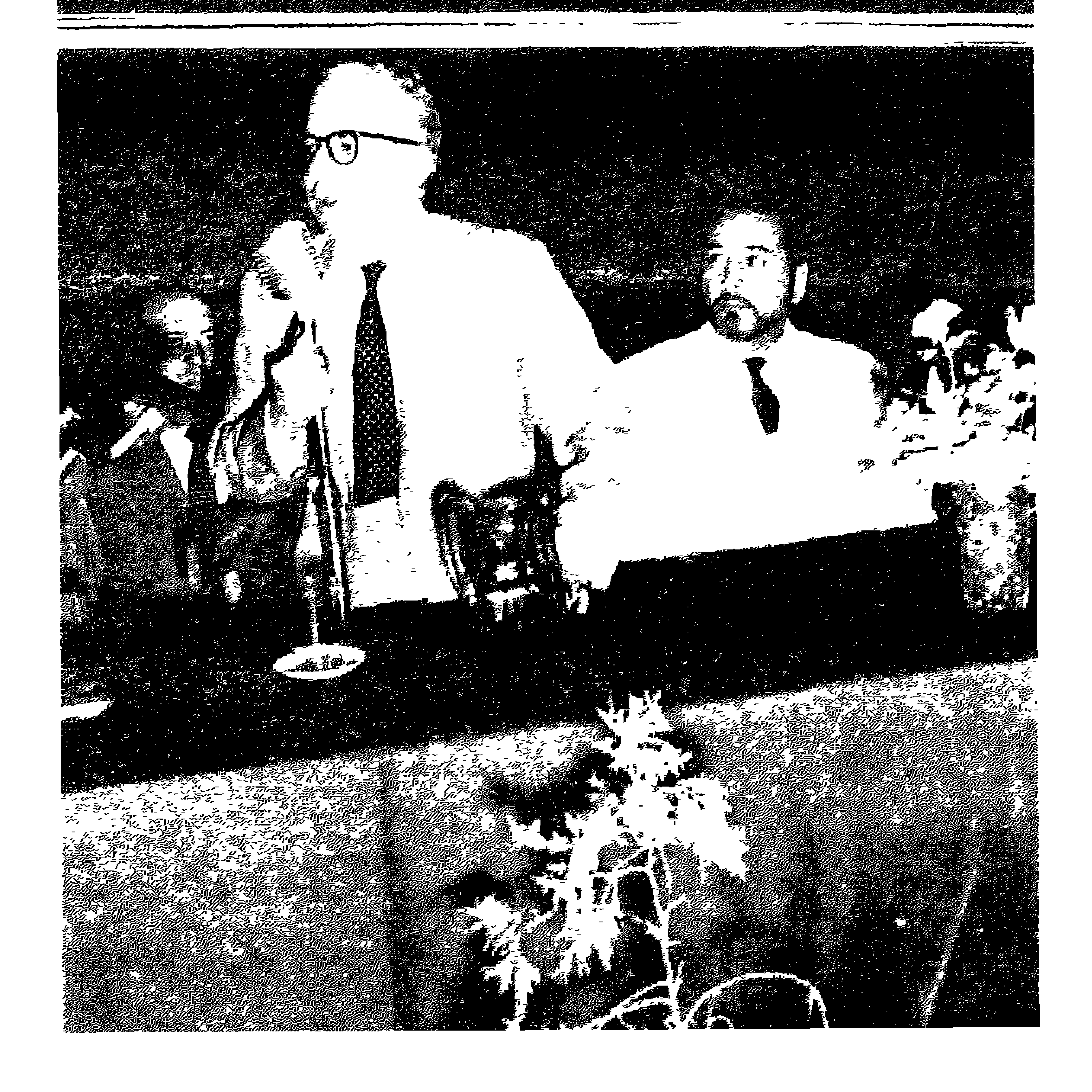
أستاذنا الجليل ! يحيى حقي

لقد هممت أن اعانق البحر .. فاغرقني البحر . فعذرا .

محمد روميش

الباب الأول

مدرسة الحقوق .. ومضاعفاتها ..



يوم أديت الامتحان الشفوى لآخر مادة فى شهادة الليسانس (وقد دام الامتحان بين تحريرى وشفهى أكثر من خمسة وعشرين يوما) عدت من الجيزة الى شارع السيوفية تحت شمس محرقة ـ وان كادت تغيب ، فنحن فى عز الصيف ، يوليو سنة ١٩٢٥ ـ فاذا بى حين وصلت الدار اعجز عن صعود السلم .

لا اذكر كيف حملت الى مسكننا ، ولكنى اذكر بوضوح أننى ارتميت بملابسي وحذائي راقدا على الكنبة ، مسندا رأسي الى ركبة أمي ، انفاسي متلاحقة تلهث ، فى جفاف ، كأنما هرب ريقي كله الى عيني فهما مغرورقتان بالدموع . والتعب يبكى كالحزن .

فى جسمي اعياء شديد ، وفى روحي اعياء أشد .. كان ينبغى أن أنجح ولو جاء اسمى فى الذيل ، لا اعتزازا بشهادة الليسانس وبلقب « متر » ـ وهو طولى ان زاد المتر « لكمية » ـ ولا طلبا للنجاة من المدرسة وقرفها ، او تلهفا على الاستقلال والقدرة على كسب الرزق ورد الجميل ،

ولا املا فى مستقبل مرموق فى الوظيفة ، او شهوة فى العمل الحر .. ليس لشيء من هذا كله .. بل كان ينبغي ان انجح لدافع واحد وحسب : هو الا اغضب امي ؛ او ان اجرعها خيبة الأمل .. يهون على كل شيء الا ان اقف امامها وقفة الخائب .

لو انها اكتفت بلومي وتقريعي لما باليت ، وانما خوفى أن تنعى كيف ضاع جهادها من اجلنا عبثا . وتندب سوء حظها .. مع اولادها ايضا !.

هي عماد الأسرة .. ربتنا بيديها ، تخيط ثيابنا — ونحن ستة ، (من هذا الماضي تقفز الي ذهني كلمات : التنبيت ، الحردة ، القبة ، السكة) ، تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك اشد العناء ، متحايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ، اذا قدمت لنا فى بعض الأحيان طعاما نزرا لا يغنى ولا يسمن من جوع ضاحكتنا وصبت علينا ضجة مرحة كأنما اجتماعنا حول المائدة لعبة مسلية فكنا على ضحكها — ونحن نعلم انه تمثيل ! — نجد الطعام وفيرا مشبعا لذيذا . وهى التى ربتنا بلسانها ، تحثنا بغير الحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة ، كسوط صاحب الجواد الأصيل ، له وقع وليس له لسع ..

وربتنا — فوق هذا وذاك — بنظراتها اذا كنا فى مجمع من الناس ، نظرات تحوط علينا ، وتعلمنا كيف ينبغى أن نجلس ، وكيف ينبغى أن يكون الكلام المهذب ، وتقيد علينا كل زلة لسان — وان كانت بريئة — وتنبهنا اليها اذا انفض الجمع .

ومما يؤكد لنفسى الآن ان لسانها هى لم يزل قط فى مثل

هذه المجتمعات ، أننى أذكر من بين صورها الباقية فى ذهنى صورة لها وهى مضطربة قلقة ، تكاد تعض بنان الندم لأنها هفت والحديث ثرثرة وذكرت من امرأة غائبة أنها بدينة كالبرميل .. وكان بين الحاضرات زائرة ينطبق عليها هذا الوصف ..

***

سباق بيض ..

كنا نغبط المتقدمين لشهادة الليسانس فى البلاد الأوربية لسببين ، الأول : انهم يمتحنون فى بعض المواد دون بعض ، اما نحن فى مصر فحتم علينا أن نجتاز امتحانا تحريريا وشفهيا فى جميع المواد وان نحصل من اجل النجاح على نسبة ستين فى المائة من مجموع الدرجات ، واذا سقطنا فى علم واحد اعدنا السنة كلها .

والسبب الثانى : أنهم يدرسون قانون بلادهم وحدها . اما نحن ، فبعد المامة سطحية بالقانون الرومانى ينبغى ان ندرس الشريعة الاسلامية ، والقانون الأهلى ، والقانون المختلط ، مع الرجوع فى أغلب المواضيع الى القانون الفرنسى ، حتى فى القانون المدنى الأهلى كان لا مفر من أن نعرف نصه الافرنسى المزعوم بانه ترجمة غير معتمدة للنص العربى ، وهو فى الحقيقة أصل التشريع والنص العربى ترجمة له ، فى اغلب الأمر فاسدة . يبلغ هذا العبء ذروته فى قانون المرافعات حيث تختلف المواعيد فى القانون الواحد ، وتتباين بين قانون وآخر ..

حفظت كل هذا عن ظهر قلب ضمانا للنجاح ، وكان حرص الطلبة الأوحد أن يأخذوا العهد والمواثيق على الأستاذ بالا يخرج الامتحان عن النص الموجود بين ايديهم ، اذا رأى حذف بعض التفاصيل فى أحد الابواب تشبثوا به حتى يبين لهم بنفسه من أية صفحة يبدأ الحذف وعند أية كلمة ينتهى ، ولو كانت وسط السطر .

— والهامش يا أستاذ ! محذوف أم غير محذوف ؟

تجرى أقلامهم فى لذة كبرى تشطب المحذوف « يالللا فى داهيه ! » .

لم أجد الا فى القلة النادرة أستاذا يرتفع عن هذا الارهاب ليشرح لنا العلة والسبب والمنطق وراء ما نحفظه من التفاصيل ، كنت أشعر وأنا ادرس الشريعة الاسلامية اننى أغوص فى بحر من الرمل لا أجد لقدمى مستقرا صلبا .. لم افهم فلسفة الدية ، لأن قانون العقوبات الاهلى علمنى شيئا مختلفا جدا .. كنت أود أن أعرف قانون الحجاز قبل الاسلام لافهم الشريعة فهما صحيحا .. ولكن هذا لم يحدث ..

ولم يفكر أستاذ أن يدلنا على كتاب نقرؤه خارج المقرر لننتفع به . كأنهم يقولون « التلميذ الكسول حمار بليد لا يأبه حتى لوقع العصا ، والتلميذ المجد حصان سباق يشق طريقه جريا بغير حاجة لمهماز .. »

وضعت انا — كالبغل ! — بين الاثنين .. كنا نحفظ الشىء الكثير عن « الفتاوى الهندية » ، بحثت عنه فى المكتبة حتى ظفرت به . ولكنني وجدتنى بازاء خضم واسع أحتاج

فيه الى مرشد فلم انتفع به الا قليلا ، والى الآن لم أفهم سر نسبة هذه الفتاوى للهند ..

تعليم كسلق البيض ، وتدافع كالقطيع الى المجزر ، وحشو للدماغ ، حتى تكاد تنفجر ، بالتفاصيل والقشور .. ان اردت أن تظفر بالجواهر فعلت ما تفعله فقيرات شعبنا الباحثات فى صفائح القمامة ، أو فى أكوام الرماد بمخازن السكك الحديدية عن شظايا فحم لم تحترق .

عرفت زميلا لى كان يباهى بذاكرته الخارقة ، يكاد لا ينسى شيئا ، ولكنى بعد امتحان الليسانس كنت اذا حدثته عن شيء وقع بالأمس القريب اجابنى ببلاهة :

ــ آه ! حقا ؟ اننى لا اذكر ..

اننى عاتب اذن على مدرسة الحقوق للأسباب التي ذكرتها ــ وهى أسباب تتعلق بالمبادىء « فكأننى أقدمها لمحكمة النقض ! »

الى جانبها سبب آخر ، ان كان أهون شأنا الا أنه أبقى أثرا لأنه وليد الاوهام والغرور وحب استعراض النفس .

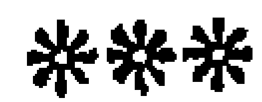
كان يقال فى المدرسة الثانوية للطامعين فى دخول مدرسة الحقوق :

ــ يا بختكم ! هذه مدرسة تقام فيها محكمة وهمية .. فيختار تلميذ لتمثيل دور رئيس المحكمة ، وآخر يتكلم باسم النيابة ، وثالث يتولى الدفاع ، ورابع يقف فى قفص الاتهام ، وقد تدوم المحاكمة أكثر من يوم .

اذا سمعت هذا الكلام ارى نفسى لا فى قفص الاتهام ، فهذا دور غير خطير ، وحتى لو حكم على بالاعدام فاننى

سأخرج لتناول الغداء فى دارى ، ولا على منصة الرياسة ، فهذا دور يصلح لابكم متعنطز .. بل ارانى امثل النيابة ، ظانا أن الشريط والوسام على صدرى ، أو أمثل الدفاع ـ اخب فى روب خيالى ـ وانطلق فى مرافعة طويلة مشوحا بيدى ، مشيرا بسبابتى ، مرة للسقف ـ حين أذكر العدالة ـ ومرة الى قفص الاتهام ـ مؤلبا أو مسترحما .. ادق المنضدة بقبضة يدى ـ ستضع مدرسة الحقوق منضدة امامى ؟ سأخلع الطربوش وامسح بين الحين والآخر عرقى ـ ارجو الا يكون منديلى ذلك اليوم مخروقا ! ـ سأرفع صوتى لأعلى الطبقات ، ثم اهبط به الى الهمس حانيا راسى على الأوراق اقلبها للبحث عن المستند القاطع الذى اخفى خبره ولا ابرزه الا فى تمام المفاجاة .. والمحكمة كلها تكتم انفاسها فى تلك اللحظة الرهيبة ..

ومرت السنوات الأربع ولم تعقد قط هذه المحكمة .. مدرسة تعد اغلبنا لصنعة الكلام ، تتركنا دون ان تتيح لطالب منا فرصة واحدة ليقف فيتكلم أمام جمع ، حاضر الذهن ، مالكا لشخصيته واعصابه ، غير متلعثم ، لا يتفصد وجهه عرقا وخجلا .. والخطابة موهبة ولكنها تكتسب ايضا بالمران .



سحر الخطابة

وكان لى شغف قديم بالخطباء ، دسست نفسى وانا تلميذ صغير اخاف الزحمة ـ فما بالك بالرصاص ـ وسط

المتظاهرين حتى بلغت بيت الأمة لاسمع سعد زغلول . صورته الباقية عندى كخطيب تعود الى يوم فى سرادق كبير كأنه يوم الحشر .

وهاج الجمع حين علم أن سعد زغلول معتذر عن الخطابة لانه مريض ، وأنه سينتدب أحد اعضاء الوفد ليتحدث الينا بدله .. رايته يشير الى رقبته ، يلفها بكوفية .. ويهز راسه كأنما يقول : لا .. لا .. وهجم عليه رجال يجذبونه جذبا الى المنصة ، وهو يدافعهم وتتشبث أقدامه بالارض ويثقل وزنه بين أيديهم ، ولكنه غلب على أمره (أو هذا — على الأقل — ما فهمناه نحن ، والله أعلم بصدق عزوفه) وبدأ كلامه بصوت خافت متقطع ، راسه كأنها مغروزة فى جسم بلا رقبة من اثر الانحناء .

وشيئا فشيئا دبت فيه حركة — يالها من حركة — وحماس اى حماس !.. انتصب الراس كأنه تمثال حى للنبل والجبروت والاعتداد بالنفس .. ذراعاه الطويلان — كذراعى الغوريلا — يضمان الى صدره العريض امانى الدنيا ، ويقصيان عنه فى حركة واحدة كل خبائثها .. ترتجف القلوب حين يشير بسبابته متوعدا .. رفعنا وهبط بنا .. أذاقنا السعادة والحسرة والأمل .. اربع ساعات كاملة لا ينقطع سحره .. وخرجت سعيدا مخدر الجسم متعبا ورأسى دايخة ..

وحرصت — وأنا صغير أيضا — على سماع أول خطبة يلقيها توفيق دياب ، بعد عودته من انجلترا ، وقيل لنا انه درس فيها فن الالقاء .. على أصوله .. لا عجب ان كان خطابه كهدير المانش .. وكانت « توبة من دى النوبة » .. ثم حين اشتغلت بالمحاماة سعيت الى سماع كل محام

مشهور بالخطابة ، ووصفتهم ــ بعد الانتفاع بكتاب ل « هنرى روبير » نقيب المحامين فى فرنسا ــ فى مقالات نشرت بصحيفة « وادى النيــل » التى كانت تصــدر بالاسكندرية ــ ولنا عودة لها ــ أسماء غير قليلة لا فائدة الآن من ذكرها ، ولــكنى أحب أن أقف عنــد ابراهيم الهلباوى .

الهلباوى

سافرت معه فى القطار مرة من الاسكندرية الى دمنهور ، حيث كان عليه أن يترافع فى احدى القضايا بمحكمتها .. تخلص برقة حازمة لا تجرح من تجمعنا نحن صغار المحامين حوله وقال انه لا مفر له من أن يفرغ من قــراءة ملف القضية ، لأنه ــ والكلام بين محامين ، مع حفظ المقام ! ــ لم يفتحه بعد ، وتناول ــ بعد أن تركنا مزارع الموز عند محطة سيدى جابر ــ ملفا ضخما وأخــذ يقلب صفحاته، لا تكاد عينه تستقر على الصفحة الا قليلا .. وانا أقول فى سرى « ما شاء الله أهذا شأن كبار المحامين ، ومبلغ امانتهم فى دراسة القضايا ؟ » .

جلست استمع الى مرافعته ، وقــد دامت اكثــر من ساعتين . نهب فيها أبصارنا وخلب البابنا ، من يسمعه يقسم بأغلظ الأيمان أن هذا الرجل « فلى » ملف القضية كلمة كلمة ، وحفظها عن ظهر قلب .. انه محام يعتمد على الجو وخلق الجو .

لو سطرت خطابه على ورقة ثم خلوت لنفسك بعيدا عن هذا الجو وقرأتها لقلت « هذا كلام محموم يهذى » فلا

رابطة قط بين الجملة والجملة .. واكثر الجمل غير كاملة ، بل هى كلمات متفرقة .

مسكين ابراهيم الهلباوى ، هـذا الـرجل الذى كانت شهرته مضرب الأمثال .. يقول الفلاح عن غريمه « والله لأقتله واجيب الهلباوى ! » ضامنا بذلك البراءة .. لا اعرف احدا من ساسة مصر تجرع مثله العذاب علقمـا وصابا ، كأسا بعد كأس ، سنين طويلة تكاد تكون هى عمره كله ، لا ادرى أى شيطان خبيث أوقع فى ساعة نحس ربيب الثورة العرابية ، وتلميذ جمال الدين ، وزميل سـعد المرفه الذى يحب أن يعيش فى ستر — مثل توفيق نسيم — وسط سرب من الجوارى البيض ، على حين ان المستقبل مبسوط أمام نفسه الهمام الذكية الطموح .. أوقعه فى نكبة لا براء منها ، وزلة لا غفران لها وان تاب الخـاطىء توبة نصوحا .. فنحن فى الارض لا فى السماء .. حين قبل أن يترافع ضد شهداء دنشواى ويجـرب فيهم فصاحته وبلاغته ، ويتجنى عليهم ويطلب الحـكم باعدامهم ليكونوا عبرة لغيرهم من أبناء شعبه .. اف ! ان نفسى تتعكر من جديد .. ان دنشواى جرح لا يندمل فى قلب مصر .. تتوارث حقده الأجيال .. فى ذلك اليوم حفر الهلبـاوى قبره بيده ونزله حيا .

بين المرات التى اذكر أننى بكيت فيها وانا صبى بحرقة ومرارة (الى جانب رثاء « شوقى » لمصطفى كامل) يوم أن فرغت من التهام العدد الخاص الذى اصدرته « مجلة المجلات » — ووجدته فى دارنا حين كبرت — عن نكبـة دنشواى .. لا ازال اذكر صورة المشانق ، وصفوف جند الانجليز على هيئة مربع .. وبكيت أيضا حين قرات قصة جميلة — منسية مع الأسف ، وهى جديرة بالذكر — اسمها

« عذراء دنشواى » مؤلفها – وزيتنا فى دقيقنا – عمى محمود طاهر حقى ، كتبها وهو فتى لم يطر شاربه .

ولعل خير من سجل شعور مصر هو المرحوم قاسم أمين النابغة العزوف ، المتعدد المواهب ، حين قال : « رأيت قلب مصر يخفق مرتين ، يوم تنفيذ حكم دنشواى ويوم وفاة مصطفى كامل » .

نسى الشعب اناسا آخرين ، مسئوليتهم – ان لم تزد فلا تقل عن مسئولية الهلباوى .. القضاة الذين أصدروا حكم الاعدام ، والوزير الذى صدق على هذا الحكم ، ورئيس الوزراء الذى بارك هذا الجرم بسكوته عنه .. من هم ؟ لا أحد يذكرهم . ونسى الشعب أيضا كثيرين ممن اجرموا فى حق الوطن ، ولكنه لم ينس قط جريرة ابراهيم الهلباوى .. وجريرة لا تجىء آخر العمر ، فان لم يسهل نسيانها غيبها القبر ، ووارى سوءتها التراب واراح صاحبها من رؤية الناس ، وأراح الناس من رؤيته .. بل تجىء فى أول العمر ..

حين عاد عرابى من منفاه فى شيخوخته .. قيل ان بعض الناس تلقوه على المحطة صائحين فى وجهه هاتفين ضده ذاكرين له هزيمته فى التل الكبير وانه سبب النكبة .. ربما كان ذلك بترتيب من الخديو عباس الثانى لحقده الدائم على عرابى الذى خلع أباه ، وللنكاية به لأنه لم يقدم عريضة الاسترحام بعودته للوطن الى ولى النعم ، بل جرأ على تقديمها من فوق راسه الى جورج الخامس – وهو اذ ذاك ولى عهد – حينما مر بسيلان فى طريقه الى الهند .

واعتكف عرابى فى داره لا يحس به أحد . لو سألت انسانا من الجيل اللاحق له أين يقع منزله لما عرف ..

وهذا اغرب مثل فى تاريخ مصر على قدرة الشعب على النسيان ..

حاول الهلباوى أن يشترى الغفران بدفاعه البارع عن الوردانى ولكن هيهات .. حاول أن يعود الى الحياة العامة والاشتغال بالسياسة فانضم الى حزب الأحرار الدستوريين .. ولكن ماذا حدث ؟ لقد شهدت بنفسى مصرعه ، من وقع لطمة أخرى ..

حضرته يخطب فى سرادق ضخم ازدحم فيه أنصار الحزب المتحمسين ـ يكفرون بسعد ويؤلهون عبد العزيز فهمى .

واقاض الهلباوى فى الحديث عن الوطنية الحقة مشيدا بجهاد الحزب من أجل تخليص حقوق البلاد من المحتلين ، وقوطع خطابه بالتصفيق والهتاف .. وامتلأ الرجل ثقة وزهوا وظن أن الدنيا قد صالحته ولكنه لم يكد يفرغ من خطابه حتى ارتفع صوت فى آخر السرادق يهتف :

ـ ليسقط جلاد دنشواى .

كنا واثقين أنه دسيسة بعث بها حزب الوفد لافساد الحفل ، بدليل اتخاذ المبعوث مكانه بجانب الباب ليسهل عليه الهرب . ومع ذلك فكأنى بالحاضرين قد مستهم الكهرباء فجأة ، واذا بهم كلهم ـ وهم أنصار حزب الهلباوى واعوانه ومشايعوه ـ يقفون وقفة رجل واحد ويهتفون بصوت واحد يجلجل كالرعد :

ـ ليسقط جلاد دنشواى ..

انه كان صوت مصر ينطلق من حلوقهم رغم ارادتهم ..

هل هو انتقام جديد للقدر من وراء القبر ام مراضاة منه

، مصافاة لا تخلوان من التهكم والسخرية ؟ .. ان الذكرى الوحيدة الباقية للهلباوى بعد وفاته تسمعها من كمسارى الأوتوبيس فى خط المنيل وهو يعدد المحطات :

ــ محطة الجراح .. محطة الهلباوى !

يرحمه الله ..

خطب لا خطيب

نوع آخر من الخطباء كنت أسعى اليه أيضا .. خطباء الجمعة فى المساجد (استمعت فى الأزهر ابان الثورة الى « أبو شادى » ، « أبو العيون » ، « شكرى كرشه » الخ الخ .. هذا شيء آخر ، فهى خطب سياسية) . وبعد جولة واسعة فى المساجد اكتشفت فيها الشيخ رفعت فى درب الجماميز ، والشيخ توفيق فى جامع ابن طولون ، عرفت الخطباء الذين يقراون من الكتب أو الورق ، والخطباء الذين يكرون الخطبة أداء لواجب ، بغير احساس ، فعزفت عنهم ، واصطفيت لنفسى خطيبا فى مسجد كبير يقع قريبا من دارنا ، أواظب على صلاة الجمعة فيه ولا أجرؤ على التخلف عنه للذهاب حيث تهفو نفسى .. الى الشيخ رفعت أو الشيخ توفيق ..

كان الخطيب رجلا ضخم الجثة ، مهيبا ، له لحية كثة بين الحمراء والصفراء اذا سقط عليها شعاع من الشمس تلألأت أنوارا .. نظيفا ، متأنقا ، متعطرا ، شاش العمامة أبيض كالثلج ، تقف فتله كأسنان المشط ، وطيلسانه يخرخش كأنه خارج لتوه من رجل ــ لابد ــ الكواء البلدى .

انه يرتجل خطبته ، لا شك عندى فى ذلك ، ولو انه لا

يتريث أو يتلجلج ولو فى كلمة واحدة .. ما يكاد يفرغ من البسملة والحمد حتى تنحدر رأسه للوراء وترتفع لحيته وكأنه يسبح فى بحور من الجلالة ، أو أنه يرى الغيب .. وقعنا كلنا أسرى فى قبضة سحره ، صوته يدوى فى أرجاء المسجد ، عذبا قويا ، يهز قلوبنا هزا .. الناس صامتون كأن على رءوسهم الطير .. يمصمصون بين الحين والآخر شفاههم تحسرا على انحدار المسلمين .. واذا ذكر اسم النبى صلى الله عليه وسلم ارتفعت موجة من الترجيع ، كأنها شهقة واحدة ، يخشع لها قلبى ويجف حلقى وتدمع عيناى ..

فاذا هبط الخطيب من المنبر تجمع حوله بعض المصلين يمسحون بيدهم على طيلسانه ، ثم يمسحون بها على وجوههم ، وهو مبتسم تواضعا لا كبرياء .. كنت أقلدهم وأحذو حذوهم ، كنت أكن لهذا الرجل محبة وإعزازا وفوقهما احتراما وتوقيرا .. كم تمنيت لو وقعت نظرته على وحدثنى ليعلم ما فى قلبى نحوه ..

ذهبت كعادتى للمسجد يوم الجمعة ونودى للصلاة وتعلقت أبصارنا بالباب المؤدى الى الميضة ، اذ عودنا الخطيب أن يهل علينا منه فى تلك اللحظة ، فلم نر شخصه. ولا أدرى من أين انفلت من بين الصفوف رجل قزم أجرد نحيل صعد المنبر وتلا علينا بصوت أخنف خطبة لم أع منها — لشدة خيبة الامل — كلمة واحدة .

وعدت الى الدار وذكرت الأمر لوالدى ، وكان موظفا بوزارة الاوقاف وعنده علم بكبار خطباء المساجد، فذكر لى — لا يعلم مبلغ وقع كلامه على — أن هذا الشيخ قد رفت من عمله لانه ضبط فى جريمة خلقية تزرى برجولته وكرامة

جنسه ، ليته قال لي انه ضبط مع امراة ، أو مع مخنث . فنحن في الشرق نفرق بين الاثنين ونغفر لواحد دون آخر ، نصب عليه احتقارنا ، أما في الغرب فالاثنان عندهم سواء ، تصفهما كلمة واحدة لا تعرف أيهما تعني ، وقع على هذا الخبر وقع الصاعقة وزلزلت له نفسي زلزالا شديدا .. وانقطعت عن صلاة الجمعة زمنا طويلا لا أذكره .. ولما عدت كنت غير الذي كان .. خط يسير حياتنا مرتبط بحوادث نقابلها قضاء وقدرا .

***

خطباء في المساجد

وما دمت أتحدث عن المساجد فينبغي أن اذكر أشياء باقية في نفسي . أولها ضيقي الشديد بصنوف الأحذية والشباشب والبلغ تصف حيث تقع جباهنا حين نسجد . على باب المسجد الذي كنت أصلي فيه خزانة لحفظ أحذية الداخلين ، لقاء قرش ، لست مجبرا على دفعه ان شئت ، ومع ذلك فان عدد الراغبين في الدفع لم يزد على أصابع اليد الواحدة .. يدخل رجال متأنقون ، يلبسون شيئا يقال له « المز » وهو حذاء مركب في قالب يشبه الشبشب له في خلفه سن بارزة من المعدن كالمهماز لتضغط عليه القدم الاخرى لتخلعه بدون حاجة الى الانحناء ، (وقاك الله في شيخوختك من الروماتيزم وعرق النسا !) ويدخل صاحبه المسجد بالحذاء النظيف تاركا القالب بالباب .. لم أعد ارى هذا النوع من الاحذية .. ورايت بعض اهل الحجاز فيما بعد يصلون بأحذيتهم ويدور جدل طويل هل

هذا جائز شرعا أم لا . ويذكرون باب «المسح على الخفين» .. هذه مشكلة باقية لا تزال تحتاج الى حل .

والامر الثانى هو ضيقي الشديد أيضا بخطباء كانوا كأنما لا يحلو لهم الا تقريعنا وسبنا وشتمنا ، الكلام موجه الينا . لقد ضاع الاسلام لانكم اهملتم الصلاة (ألم نأت للصلاة !) ونسيتم الزكاة (وأغلب الحاضرين من الفقراء المستحقين للزكاة !) لماذا انطوت قلوبكم على المعاصى والاثم ! ان جهنم لكم بالمرصاد .. يا أخى ! لقد جئنا للمسجد طاعة لله سبحانه وطمعا فى رحمته ورضوانه . أناس كثيرون غيرنا لم يأتوا للصلاة ، ولا نريد منك كلمة شكر ، بل ـ على الاقل ـ اعفنا من السب .

***

خطبة وفاء النيل

حضرت فيما بعد ، صلاة الجمعة فى مسجد باحدى قرى منفلوط . الخطيب يقرأ من كتاب به نص لاثنتين وخمسين خطبة منبرية موزعة على أسابيع السنة ، ومن بينها خطبة موضوعة لجمعة وفاء النيل .

وأخذ الخطيب يقرؤها علينا . وهى اشادة بالنيل ووفائه . ومجيئه لأرض مصر بالخير والخصب والبركات .. يصل الى أسماعنا صراخ النسوة فى القرية باكيات محاصيلهن التالفة ، وجاموسهن الفارق ، ونكبتهم الكبرى فيضان النيل ذلك العام ، اكتسح القرية وجسورها وأكل ارضها وأتلف محاصيلها وهدم بيوتها وزرائبها ..

والخطيب ماض فى خطبته والناس امامه مطأطئون الرءوس مدفوسة بين ركبهم .. ان كان قلبى قد رق لهم ، فقد رق رقة اشد لهذا الخطيب الساذج ..

***

تجربتى فى الخطابة

لم يتح لى أن أخطب فى حفل الا بعد ان جاوزت ســن الخمسين . وقد رأيت دائما أن الارتجال خير من الحفظ .. وانما ينبغى للخطيب ان يعد - على الاقل - مدخل كلامه ، ولو جملة واحدة .. تفتح له الباب ، فلا يتلجلج او يتريث طويلا عند بدء الحديث .

وخيل الى انى أروج فى مصر للمــذهب الانجليزى فى الخطابة وانا أؤمن به .. وهو مذهب ينفر من المبالغة فى الحركة والاشارة ورفع الصوت وخفضه ..

ذلك اننى أعتقد أن منصة الخطابة فى مصر ، ومسرحها كذلك (منذ ايام جورج ابيض) منكوبة بالمذهب الفــرنسى الذى يحب تلك المبالغة لقد استمعت فى الجمعية الوطنية الفرنسية الى « دلادييه » و « بول رينو » و «جول موك» اليهودى ، واستاذهم جميعا ، « ديكلو » الشيوعى ، كما سمعت قبلهم مصطفى كمال فى استانبول ، و « هتلر » و « جوبلز » فى « ميونخ » ، وجميع خطب موسولينى التى القاها من شرفة قصر « فينسيا » من ســنة ١٩٣٤ الى ١٩٣٩) واذا كان قــد خيــل الى أننى أروج للمــذهب الانجليزى فمما لا شك فيه عندى أننى لم انجح ، فلا يزال

جمهورنا لا يحب الالوان — ولا اقول الاصوات وحدها — الا اذا كانت صارخة ..

ولكن ما قولك فى أن هذا المروج للمذهب انجليزى لم يسمع قط خطيبا انجليزيا واحدا ..؟ الا يستحق الاخفاق جزاء وفاقا ؟.

***

قتيلة فى حارة السكر والليمون

عود لمدرسة الحقوق ، أو كما كان يقول اخواننا اللبنانيون فى مطلع هذا القرن :

« رجع ما انقطع ! .. »

لم تقم المحاكمة الوهمية — كما بينت — ولكن استاذ القانون الجنائى اصطحبنا الى محكمة الجنايات لنشهد قضية ونتعلم كيف تجرى المحاكمة ..

هى جريمة قتل — ولذلك فهى أشهى للنفس ! — ضحيتها امرأة من بائعات الهوى .. اننى لم أنس هذه الجريمة ، أفتش اليوم فى قلبى عن الاسباب فأتبينها بغير جهد ..

سائق ترام له عشيقة تسكن فى الدور الارضى بأحد المنازل الفقيرة (علشان الدفن مش ح نروح بره) .. وجاء اليوم — وهو يجىء دائما — حين ينقلب الحب الى ملال ، والملال الى كره وبغضاء .. ووثق الرجل أنهما ما داما على قيد الحياة فلا مهرب لاحدهما من الآخر ..

ولما كان عاجزا عن الانتحار ، لم يبق له الا ان يقتلها ..
ولكنها كانت امراة ضخمة الجثة ، جرمة عفية ، وكان هو رجلا قصيرا نحيفا .. فماذا يفعل ؟ .. ذهب الى صديق له وقال :

ــ انت صديقى ، قاصدك فى معروف ، والاصحاب لبعض ..

ــ انا تحت امرك !

ــ بس لازمنى مساعدة فى مسألة ..

ــ انا خدامك .. ايه هى ؟ .. قول ..

ــ بدى أخلص على واحدة اعرفها .. مش قادر اموتها لوحدى لازم أجيب خبرها قبل ما تجيب خبرى .. لازمنى زى ما انت شايف مساعدة .

ــ بسيطة ! ، انا تحت امرك .. فين هى ؟ .. ياللا بينا . *

وذهب الاثنان ، وشرب الثلاثة خمرا ، وامسك الصديق بذراعى المرأة وخنق السائق عشيقته ، فعضته فى اصبعه ..

وبعد ساعات قلائل من اكتشاف الجريمة ، بعد أن فاحت الرائحة ، ضبط البوليس القاتل وهو يسوق الترام بيده اصبع فيها ملفوف فى قطعة من قميص القتيلة .. ففرملوه قبل ان يفرمل هو ترامه .

لا انسى هذه القضية لانى حرت يومئذ ــ ولا ازال حائرا

---

* « جريدة الجمهورية » ٢٧/٣/١٩٥٩ ، ص ٥ »

ـ فى تفسير فهم أولاد البلد لحقوق الصديق على الصديق
ـ هل تذهب الى حد المساعدة فى القتل ؟

هذه قضية فريدة فى تاريخ الاجرام ـ فقد أقدم انسان على قتل انسان لا يعرفه ، لا بدافع الانتقام أو الرغبة فى السرقة بل تطوعا محضا ـ لوجه الله ! ـ لمساعدة صديق واقع فى ورطة .. أعتقد انه مما دفع الرجل الصديق الى القتل هو علمه بأن المرأة من بائعات الهوى فقتلها عنده حلال وتطهير للأرض ، له أن يطلب الشكر عليه ، ومن الظلم أن يحل به عقاب ..

ولا أنسى كذلك صورة الجثة حين نشرتها الصحف وقتئذ .. محال أن تكون هذه الشلفطة واللخبطة : الشعر الأجعد الملتصق بالجمجمة بفراء من الدم ، والعينان الجاحظتان كعينى السمك المنتن ، الفم المشروم ، البطن المنتفخ ، الذراعان المتصلبتان على هيئة قوسين ، محال أن تكون هناك صلة ـ أقل صلة ـ بين هذا كله وبين الانسان الذى كان منذ قليل يغدو ويروح ، وينطلق لا بلسانه وحده بل بكل خلية وذرة فى جسده ، ان الحياة فى أبشع صور الدمامة جميلة ولكننا لا نراها .

***

وما تركت فرصة فى حديث الا انتهزتها (وان كنت لم أنجح الا قليلا فى استمالة السامعين الى حتى أحسب نفسى أنفخ فى قربة مقطوعة ، أو أننى من عجينة غير عجينتهم .. أو أننى ملتاث !) لأندد بالغلظة وفقدان الاحساس وانكار أبسط مبادىء الذوق والحياء حين يتجلى هذا كله فى صحفنا التى تنشر صور القتلى مكبرة فى صفحاتها الأولى ،

صور مشوهة بشعة ـ والعجيب أن هذه الصحف تعلم أنها هى وحدها دون سائر صحف العالم كله ترتكب هذه الجريمة .. فهل نحن اقل ذوقا من خلق الله جميعا ؟!

لا تزال فى ذهنى باقية ، صورة نشرتها احدى الصحف ذات يوم لمجرم عات فى الصعيد أرهب البلاد ودوخ رجال الامن والعباد حتى رتبوا له كمينا وقتلوه بعد معركة طويلة ، وها هى جثته ملقاة على الأرض .. وهاهو مراسلنا بناحية كذا يهرول لمكان الموقعة ليسجل لنفسه نصرا صحفيا .. ولم ينس أن يأتى بمصور ، فالصورة اهم ما فى الخبر .. لا أدرى من الذى أصدر التعليمات .. ولكن الجميع تهيأوا لاتخاذ اماكنهم .. والجثة فى المقدمة بالطول لا بالعرض . اصطف من ورائها فى حلقة : المعاون النشيط الذى صرعه ، والمأمور الهمام الذى ضيق عليه الخناق ، ومفتش الخفر الذى كاد يصاب برصاصة .. الخ الخ .. ومن ورائهم عدد كبير من الجنود مبرومى الشوارب ، وغفر قد هبطت اللبدة فوق الحواجب ، وحار المصور كيف يفعل من اجل أن « يبشرق » القارىء عينيه بصورة هؤلاء الأبطال جميعا وصورة القتيل معا .. فى (صعيد) واحد .. والمصيبة أن القتيل لا يمكنه الوقوف على قدميه ولا يتأتى للأبطال أن يرقدوا ـ أو يقرفصوا على الارض .. فما العمل ؟. استدعى المصور فتى وكلفه بأن ينحنى ويرفع راس القتيل وحدها ويثنيها الى الامام حتى يظهر وجهه فى الصورة ، (يا اخى ! . هل هى صورة بطاقة تحقيق شخصية ؟) والفتى ميت على روحه من الضحك ..

لم أر شيئا ابشع من راس هذا القتيل وهى تبحث عن مكانها فى الصورة .. انى اخجل من ان أطالب باصدار

قانون لمنع هذه الصور لئلا يقال عنا اننا لا نعرف الحياء الا بقوة البوليس !..

والسبب الثاني الذى من أجله أذكر هذه القضية انها وقعت فى حارة اسمها « حارة السكر والليمون » ، وكنت منذ صغرى مشوقا بتتبع الاسماء الغريبة أو ذات الدلالات لحارات مصر ، مثل « الزير المعلق » ، « بين النهدين » ، « درب الأغوات الخ الخ .. واشهرها عندى « حارة الوداع » ، نصفها فى المدينة مبلط ، ونصفها فى القرافة تراب .. اشد انواع التراب نعومة .. كأنه طحن عظام .. وكنت اتتبع أبحاث المرحوم الاستاذ رمزى عن أسباب هذه الاسماء ونشأتها ، ولكننى لم أكن وقتذاك قد سمعت — أو تصورت — أن القاهرة بها حارة تسمى « حارة السكر والليمون » ، وقد سحرنى هذا الاسم — ولا أدرى لماذا ؟ لعله كان بشيرا باتصال حياتى فيما بعد بالفنون الشعبية ! — ولكن هذا الاسم جعلنى ازداد حبا لأولاد البلد واستلطافا لروحهم المرحة وفكاهاتهم الرقيقة واعجابا بانسانيتهم ، لعل هذه الحارة كان يسكنها فى الأصل خدم القصور المكلفون باعداد الشربات فى الاعياد والمواسم .. من بقايا العهد الفاطمى الذى كانت فيه الدولة اكبر منتجة وموزعة للحلوى ولقمة القاضي ..

وقد سعيت بطبيعة الحال الى هذه الحارة بعد القضية فلم أجد بها لا سكرا ولا ليمونا ، بل ولا شربتلى واحدا .. حارة مقبضة رهيبة وهى — علم الله بريئة .. انما كنت أراها بعينى من حضر القضية ووقف على خبر الجريمة التى ارتكبت فى أحد منازلها ..

اسماء الحارات

ومن فكاهات أهل البلد ودعاباتهم ـ فى باب تسمية الحارات ـ ما فعلوه مع « مسيو كفاريللى » العالم الذى جاء مع نابليون فى حملته على مصر ، وسكن احدى حاراتها ..

ـ اسم الخواجه ايه ؟

ـ قال اسمه كفاريللى ..

ـ يعنى « اللى كفر » .

ابدال بسيط لنطق الكلمة فاصبحت اسما على مسمى.

وهكذا سميت الحارة « حارة اللى كفر » .

ولما بدات مصلحة التنظيم تضع لافتات باسماء الحوارى وقفت حائرة أمام هذا الاسم . واخيرا هداها الله أن تكتبه هكذا :

« حارة الذى كفر » ..

واضاع التفاصح نكتة العامة ..

وهذا القلب والابدال من عادات أهل مصر .. اذكر أن أهل القاهرة كانوا ينشدون فى أوائل الحرب العالمية الأولى اغنية غريبة مطلعها هكذا :

كنت فين امبارح

ايا .. شن .. ورن ..

كنت باسكر وباحشش

وباحمص بن ...

وظللت مدة لا افهم مطلع هذه الأغنية واخيرا أدركت انهـا تقطيع لاسم « كتشنر » العميـد البريطـانى وقائد الجيش .. « كت . شن . رن » وان الاغنيـة سـخرية منه .

***

مدرسة الحقوق فى عهدين

بقيت مدرسة الحقوق منذ انشـائها خاضـعة ـ رغم الاحتلال الانجليزى ـ للنفـوذ الفـرنسى ، منصب مدير المتحف المصرى وقف على فرنسى ، ومنصب مدير دار الكتب متروك لالمانى .. وهكذا فى تقارير اللورد كرومر كلام ملفوف عن براعته فى استرضاء دول الامتيازات الأجنبية بتوزيع مناصب مصر عليها ـ وعن سخريته من هذه الدول التى تتكالب فيما بينها لالتهام هـذا الفتات ، هـذا ومنصب النائب العام يحتله انجليزى ، فلم ينقطع الجذب والشد بين الانجليز والفرنسيين حول مدرسة الحقوق ، الى ان أفلح الانجليز كخطوة اولى ـ فى شق المدرسة قسمين ـ انجليزى وفرنسى ـ ولعل مما أمال الطلبة حينذاك الى دخول القسم الانجليزى ـ وهو ثقيل الـدم عليهم ـ انهم يأملون بذلك استجلاب رضاء النائب من اجل الحاقهم بوظائف النيابة ، وفى الازهر الشريف شىء يشبه هذا : فان مصر ، واغلب أهلها شوافع ، تجرى القضاء الشرعى على مذهب ابى حنيفة ـ كأثر من آثار الاحتلال العثمانى ـ فكان الرواق الحنفى أعمر الأروقة بالطلبة دواما ، ثم أقدم الانجليز عن خطوتهم الثانية ، فألغوا القسم الفرنسى .

لم ينس الفرنسيون ما فعله الانجليز فوقف المحـامون الفرنسيون فى المحاكم المختلطة ـ فيما بعد ـ وراء الحملة التى تزعمها سعد زغلول (سنة ١٩١٧ تقريبا) لوأد مشروع « برونيات » ـ المستشار الانجليزى لوزارة الحقانية ـ والـذى رمى به الى صـبغ التشريع المصرى بالصـبغة الانجليزية ، وتأليف جمعيـة تشريعيـة يدخلهـا الاجانب المقيمون فى مصر . وكان واد هذا المشروع ارهاصا يقرب الثورة الوطنية . هل وقف هؤلاء المحامون أنفسهم وراء تأليف الوفد المصرى وحثه على معاداة انجلترا ومطالبتها برد حقوق مصر ؟ هذا جانب من تاريخ الحركة الوطنية لم يلق ما هو جدير به من عناية الباحثين .

وحين التحقت بمدرسة الحقوق (أكتوبر سنة ١٩٢١) وجدت أسماء بعض أساتذتها الفرنسيين لا تزال مذكورة كأنها لصيقة بالجدران .. مثل الاستاذ « جرانمولان » والناظر السابق مسيو « تستو » .

ناظر المدرسة رجل انجليزى ، اسمه مستر « والتون » (ولعله من أصل كندى وهـذا هو سر اختياره ـ فآثار احتلال فرنسا لكندا من ثقافة ولغة ـ وان اختلفت بعض الشيء عن لغة فرنسا ذاتها ـ لا تزال باقية فى كندا الى اليوم رغم الاحتلال الانجليزى) ووجدت لمستر « والتون » كتابا حسنا بالانجليزية عن الالتزامات فى جزءين ، يوزع علينا دون أن نمتحن فيه .. وكيل المدرسة الاسـتاذ « سيزوستريس سيداروس » أمد الله فى عمره وفى شاربه المعقوص بالكوزماتيك ، وياقته المنشية ، ونظارته المفروزة الاظافر على جانبى انفه كأنه هابط علينا لتوه بالباراشوت من السوربون .. مستر « ميلفل » ، أستاذ القـانون

الرومانى ، حبيب الينا لانه يدخل الفصل اغلب الايام مخمورا .. فيمضي درسه فكها سهلا ..

مستر « البوكيرك » العجوز ، مدرس المنطق ، متواضع يركب معنا الترام ـ سكوندو ـ أراه وهو يراقب الحقول الخضر بين الجسرين ـ يتمتم بأشياء كنت أحسبها شعرا .. كم تمنيت أن أعرف ما يقوله .

كل هؤلاء الاساتذة يتعمدون البساطة فى ملبسهم ومسكنهم ، حتى الناظر مستر « والتون » يأتينا راكبا « بسكليت » ووراءه الساعى على « بسكليت » مماثل فنظل حائرين فى فهم الخلق الانجليزى حين نعرضه على مافى طبع بعض أهلنا ـ فى خطئهم فى تفسير العيب ، (وما العيب الا العيب) فى التمسك بوجاهة كاذبة وتأنق مصطنع ـ علمونا أن الكرامة والمكانة فى المجتمع صفات أصيلة فى الخلق والنفس لا فى المظهر والملبس .. يشذ عنهم مستر « روبسون » ـ أستاذ مقدمة القوانين ـ شاب أنيق حليوة .. معجب بنفسه وبملبسه . لأول مرة ارى تناسقا بين القميص وربطة العنق والبدلة والجورب . ومع ذلك يأتينا هو أيضا راكبا « بسكليت » .

وغشى المدرسة كلها ذات يوم شعور عجيب ، خليط من الوجوم والخوف والأسف والاستعلاء وترقب تحقق سريع ظافر لأهدافنا .. حين بلغنا نبأ مصرع مستر « روبسون » ضربا بالرصاص بالقرب من الكوبرى الاعمى وهو عائد من المدرسة الى داره .. كان ممن اقتصت منهم تلك الجماعة السرية التي لم يكشف أمرها الا بخيانة شاهد ملك فى مقتل السردار « لى ستاك » .

وقيل لنا ان البوليس عثر على طبعة حذاء بالقرب من مكان الحادثة ، وقدمت الى المدرسة بعثة من البجـانة وقصاصى الأثر ـ باحثين عن صاحب هذا الاثر بين طلبـة المدرسة ، اذ حسب البوليس أن المتهم واحد منا ، ولم يسفر البحث عن نتيجة .. والواقع أن أحد أفراد هذه الجماعة واحد المشتركين فى مصرع « روبسون » كان تلميذا بالمدرسة ، هو الاستاذ عبد الحميد عنايت وكنت أعرفه واجلس اليه احيانا .. شاب صموت خجول يكاد وجهه يقطر حياء .

***

فهمى النجار

وقد حضرت ـ كمتفرج ـ وقت اشتغالى بالمحاماة فيما بعد ، فانا رجل ـ والحمد لله ـ خالى شغل ، كل جلسـات الجولة الثـانية لقضية مقتـل السردار ، فاذا كان روب المحاماة لم ينفعنى بعد فى شىء فلا اقل من أن استغله لدخول محكمة الجنايات بدون عائق . وراسى شامخ امام الحاجب الذى يصد الجمهور بقوة البوليس . لم تكـن العادة قد بدأت بعد بطبع تذاكر دعوة لحضور محاكمة !. وجعلت مقعدى الى جانب قفص الاتهام ، اذ من اجـل شاغليه وحدهم قبلت التزاحم بالمنـاكب وجلوسى معظم النهار فى مكانى محشورا لا اتحرك .

يجلس المتهمون فى صفين : فى الصف الخلفى السياسيون المثقفون ، ماهر والنقراشي جنبا الى جنب، كأنما هما عاشقان فى خلوة لا يكفان عن التحدث والابتسام كأن الأمر لا يعنيهما

.. حسن كامل الشيشيني ، صامت صمت القبور لعله يتلو اورادا فى سره ، عبد الحليم البيلي منبوذ من الجميع ، لم يوجه اليه زملاؤه كلمة واحدة ولا ابتسامة ولو خاطفة ، وفى الصف الاول جلس المتهمون من غير الساسة المثقفين ، جماعة من أولاد البلد ، فى وسطهم النجار محمد فهمي (وذكراه وحدها هى التى تدفعني لكتابة هذه النبذة) محنى الراس يعتمدها على ذراعيه المسنودتين الى ركبتيه ، يتتبع باهتمام العامة ما يدور من كلام عويص بين القضاة والمحامين ، الشيخ جاد الله ، بلحيته السوداء الطويلة ، اكثرهم حركة وأخفهم دما ، الطالب الشاب مصطفى — وهذا كل ما اذكره من اسمه — وهو وحده يلبس بذلة افرنجية ، والغريب أنه قلما دار حديث بين الصف الأول والثاني ..

من حسن حظى ان هذه المحاكمة أتاحت لي الاستماع لاول مرة الي الاستاذ احمد لطفى فى دفاعه البارع عن المتهمين ، هو الذى اضطلع بالعبء الاكبر ، وكان أول المتكلمين ، وقيل لنا انه جاء متحاملا على نفسه لانه مريض، وكنا نجل اسم هذا المحامى لسبقه الزمن بتفكيره فى انشاء الجمعيات التعاونية وتشجيعها كدعامة لبناء الاقتصاد القومى ، وتلاه نخبة من أكبر المحامين فى مصر يا لها من وليمة دسمة ، وكنا نحس أن من ورائهم جميعا يربض سعد زغلول فى بيت الأمة لتوجيه خطة الدفاع ..

على المنصة مستر « كيرشو » رئيس الدائرة ، انتزعها — بضغط الانجليز — من المستشار على سالم ، خشوا أن يكون هذا الأخير مواليا للوفد (وهذا مثل من امثلة خرق الانجليز لحرمة القضاء فى مصر) ، ومستشار اليمين

الاستاذ كامل ابراهيم ، مكب على كراسة يختصر فيها كل ما يدور في الجلسة ، ومستشار اليسار : علي عزت لم يكن عضوا أصيلا بالدائرة ولكنهم جاءوا به لتكملتها بعد تنحي المستشار علي سالم ، وكنا نعلم في قلوبنا ان مفتاح القضية في يده ، فاذا انضم لـ « كيرشو » ضمنا واذا انضم لكامل ابراهيم نجونا ..

كنت في الجلسة ساعة أن نطق مستر « كيرشو » بالحكم : براءة جميع المتهمين ما عدا شخصا واحدا فقط هو النجار محمد فهمي ، اذ حكم عليه بالاعدام شنقا — ليس في أحكام أمثال هذه القضايا وسط !.

القاعة تغص حتى تكاد تختنق — في هذه الساعة الرهيبة — بالمثقفين أصدقاء الساسة المثقفين . يحتلون المقاعد والممرات .. فلم يكد « كيرشو » ينطق بالحكم حتى هبوا جميعا يصرخون ويهللون ويصفقون ويهتفون ، فرحا وضحكا ومرحا ، بعضهم يقبل بعضا ، غرقوا جميعا بعضهم في أحضان بعض .. بل بدأ بعضهم يرقص رقصا بلديا مادا ذراعيه ، مطرقعا ، هازا كرشه المتدلي .. ونظري مثبت على وجه محمد فهمي ، ابن البلد ، النجار الذي حكم عليه وحده بالاعدام من اجل القضية الوطنية ذاتها ، الموجهة لزملائه ، لا من اجل السرقة أو النهب .. لا أستطيع أن اقول ان وجهه شاحب أو مذهول ، بل من عينيه تنبعث نظرة بلهاء لرجل حائر لا يفهم ما يرى ولا يدري كيف يفسره .. لم يكلمه واحد من زملائه أولاد البلد في الصف الاول ، فهم مشغولون بأنفسهم ، ولا واحد من شركائه الساسة المثقفين الجالسين وراءه ، بل كفوفهم تمتد فوق راسه لمصافحة الأصدقاء .. المباركين .. لم يكلمه واحد من الجمهور لأنه منشغل بالرقص والضحك والهتاف ، وظللت

مستمرا نظراتى عليه الى أن امتدت الى كتفه يد رجل البوليس يدعوه للقيام ، وآخر ما أذكره منه ظهره وهو يغيب فى معطف أصفر ـ لعله من مخلفات السلطةالعسكرية الانجليزية ـ وراء الباب ..

رحمه الله رحمة واسعة .. ظللت أتتبع انباءه الى أن وافى يوم شنقه فجدد حزنى عليه ..

لما خرج مستر « كيرشو » من المحكمة حمله الجمهور على الأعناق وهم يهتفون :

ـ تحيا العدالة ! يحيا مستر « كيرشو » .. يحيا القاضى العادل !.

وعلمنا فيما بعد انه لم يقصد داره ، بل هب لفوره الى دار المندوب السامى ليعلنه ان القضاة المصريين اخلوا بالعدالة اخلالا شديدا ، وانه يقدم استقالته احتجاجا على ذلك أولا ، ولأنه يربأ بنفسه ـ ثانية ـ عن مزاملة هؤلاء القضاة ..

حار ونار فى جتتك يا « كيرشو » حملك على الأعناق والهتاف بعدالتك !..

***

نزع ملكية ..

وما دام ذكر المحاكم المختلطة قد جاء فى هذه المذكرات فلن أستطيع الا أن أروى منظرا شهدته ـ ولا انساه ـ هو يكفى وحده للدلالة على الدور الخطير الذى لعبته هذه المحاكم فى هدم الاقتصاد القومى وسلبه وتثبيته فى يد الاجانب ..

يوم كنت ـ وأنا قد أصبحت « معاونا للادارة » كما ستعلم فيما بعد ـ أجوب الحقول على ظهر حمار بالقرب من التلال التى تحد الوادى من الغرب فى زمام « منفلوط » .. هدوء شامل ، تؤكده ولا تخل به زقزقة العصافير .. مشاكل محلية لا يزيد نطاقها على مدار الساقية .. تحتاج الى دلو .. طول حبله عرض السموات والارض ليخرجك من قاع هذه البئر لترى سطح الأرض ويعيد صلتك بالعالم والعمران .. فى الحقل أمامى فلاح .. تحتاج الى نظر قوى لتتبينه وهو قريب منك .. جلبابه مصبوغ أيضا بلون الطين .. مكوم أعوادا عجافا انعقدت عليها الآمال للظفر بلقمة من خبز الأذرة أو الشعير ، ثم انتبه على صوت سيارة قادمة نحونا تكركر وتدخن وتتمايل كأنها بهلوان على حبل .. ينزل منها شيخ البلد ومعه (خواجة) بدين ، يرتدى القبعة التى صنعتها أوربا من الفلين للمستعمرات فى بلاد الشمس المحرقة .. (حضرته محضر المحكمة المختلطة .. لا يليق به أن يركب الحمار مثلى !) ونودى على الفلاح فجاء ووقف بينهما وقفة الخوف والخشوع . جذب شيخ البلد ـ بدون سلام أو كلام ـ ابهامه وضغط به على ختامة ، وبصم على ورقة ، ثم قذف اليه المحضر بأوراق من عدة صفحات مكتوبة باللغة الفرنسية .. هذا هو حكم نزع ملكية الارض وبيعها بالمزاد العلنى فى القاهرة ..

ووقف الفلاح وحده يقلب الورق بين يديه كأنما عثر على حيوان عجيب يتلوى فى خشخشة الورق أنين خوفه .. ولكزت حمارى هاربا من منظر عينيه وهو (يبربش) بهما .

***

« ويلكوكس »

من العدل ان اذكر واحدا من الأجانب اعلم انه قد شذ عنهم هو مستر « ويلكوكس » الذى كان من أشهر مهندسى الرى فى العالم وعمل فى مصر .. فقد روى لى الشاهد الثبت أنه حينما نزعت ملكية أراضى الدائرة السنية من يد اسماعيل وسلالته خرج هذا الرجل يطوف القرى على قدميه يحث الفلاحين على شراء هذه الأراضى ، لأنها حق لهم ، وملكهم ينبغى أن يعود اليهم ..

وقد رفض اغلب الفلاحين الاستماع لنصحه ، فلم يدخل فى روعهم قط ان الفلاح يضع يده على أملاك افندينا ، وان يوما ما سيأتى — وهو قريب — يثب عليهم الخديو لاسترجاع ارضه والانتقام منهم .. وهكذا نزعت الدائرة السنية من مالك واحد غنى ووزعت على عدة ملاك اغنياء ، اغلبهم من صنائع الانجليز .. وهذا باب فى تاريخ مصر ونشاة الأسر التى اعتمدت أرستقراطيتها على الأرض ، لم يلق هذا ايضا عناية من الباحثين فى تطور مصر الاجتماعى.

وقد فعل « ويلكوكس » هذا لأن روحه كانت روح « مبشر » .. والغريب أنه كان من المدافعين عن اللغة العامية ، ونشر بها كتبا من تاليفه عن الايمان ، وطعام المؤمن ، كما نشر بها ترجمة للانجيل ..

كنت أحار فى تفسير نهم سلالة اسماعيل وتكالبهم على الثراء — حتى بوسائل لم تقصر عن السرقة والنهب — الى

ان نشرت مذكرات الخديو عباس الثانى فكشفت لى عن السر * .

انه يقول فيها بصراحة ان سلالة اسماعيل قد وقع عليها وحدها ، دون سائر فروع اسرة محمد على ، ظلم صارخ بنزع ملكيتها للدائرة السنية ، وانه لم يفهم علة لهذا النظام ولماذا تبقى سلالة حليم وطوسون مثلا محتفظة بأراضيها ..

لذلك نهب عباس اراضى الأوقاف ، وضرب بالشلوت من اجل برتقالة ، كما نهب فؤاد اراضى الأوقاف ، وخطف فاروق ما وصلت اليه يداه .. من نفائس افراد اسرته قبل غيرهم .

***

اساتذة وزملاء ..

لا تقبل مدرسة الحقوق الا خمسين طالبا حسب ترتيب نجاحهم فى شهادة البكالوريا ، هذا عدد قليل كان ينبغى أن يتيح للقائمين عليها امتحان الطلبة المتقدمين لمعرفة مدى استعدادهم للانتفاع بدراسة الحقوق ، ولو فعلوا ما دريت هل كنت أصبح مقبولا عندهم ام مرفوضا .. على كل حال دخلت المدرسة لسبب واحد هو أننى كنت من بين الخمسين الأوائل وكنت أعد دخولها شرفا عظيما لا يناله من يدخل التجارة أو المعلمين ..

ما لبث أن ولى مستر « والتون » ، وفى غمضة عين رأينا الأستاذ عبد الحميد أبو هيف أستاذ المرافعات يتولى

★ الجمهورية ، ١٩٥٩/٤/٣ ص ٣

نظارة المدرسة . كنت اجلس أمامه فى الدرس واتطلع الى وجهه الوسيم وجبهته العريضة الذكيـــة ، واشرب من منطقه الفصيح وأهتز لحججه السليمة القوية ، وبيـانه الناصع .. كنت احبه واجله ، واغض النظر عن ســاقه يمدها من تحت المكتب اذ كانت مبتورة من فوق الركبة ـ وأراه يضغط على ســاقه الصناعية ليضع قدمهـا على الأرض ، وكان يسير معتمدا على عصاه ، فلا عجب أن مال جسـده الى البدانة . (وكان يقال : ثلاثة من نبغاء القانون فى مصر يحملون اسم عبد الحميد ، استاذى ابو هيف ، وعبد الحميد بدوى ــ أمد الله فى عمــره ــ والمرحــوم عبد الحميد مصطفى) .

لم يكن أحد يحسـب أن هذا الأستاذ الوديع يضم بين جوانحه قلبا كأنه شعلة من نار ، اعلن فى اول لحظة اعنف ثورة على الاحتكار الفاسد وسد أبواب العلم أمام أبنـاء الشعب ، حطم فى اول يوم كل القيود والسدود ، ووقف بيننا يعلن أن دراسة الحقوق متاحة لكل من يريد ، ارتفع عدد المقبولين الى مائة وخمسين ، ولمـا زاد العـدد امر بافتتاح قسم ليلى يتولاه اساتذة الصباح ، قيل له : ليس لدينا أماكن .. فامر باقامة اكشـاك خشبية فى حديقـــة المدرسة . ولم يكفه ذلك ، بل امر بفتح باب الانتســاب لكل من يشاء دون حاجة للحضور للمدرسة بل يكفى التقدم للامتحان .

اعتقد أنه أول من استحدث نظام الانتسـاب لتلقى العلم فى معاهد مصر ، وقد قابلت فيما بعد اناسا من اكفـــا رجالات بلدنا ، يشغلون المناصب الرفيعة بجدارة وكفاية نالوا شهاداتهم بفضل نظــام الانتســاب الـذى استحدثه ابو هيف ، وكانوا من قبله من صغار الموظفين الـكتابيين

الضائعين فى دواوين الحكومة ، ففتح لهم هذا الرجل الكبير باب العلم وخدمة الوطن ، ان فضله على مصر لا ينسى ..

كنت أراه يأتي مبكرا قبل الطلبة ، فيصعد السلم على مهل خطوة خطوة .. يمرر يده على الدرابزين ليرى مقدار نظافته وينادى الفراش لينبهه الى التراب الذى يكسوه ، ولو كان قليلا لا يأبه له آخرون ، ثم يدخل الفصول فصلا فصلا ليشرف بنفسه على نظافتها .. كل هذا وهو لا ينقطع عن القاء درسه ..

وكان اذا رآنا نميل للتهريج .. فنهجر المدرسة متذرعين بحجة واهية للسير فى مظاهرة تؤدى الى نزهة .. وقف بيننا شأن الأب العطوف ينصحنا الا ننقطع عن العلم لأنه أقوى سلاح .. ولا أنسى يوما من الايام وقف فيه زعيم من زعماء الطلبة فوق المنضدة الكبيرة التى تتوسط بهو الدور الاول يخطب فينا ، يحثنا على الخروج .. هو شاب نحيف عصبى المزاج جهورى الصوت ، تحسبه سيفقد وعيه بين لحظة وأخرى فى نوبة صرع .. وكان هو ايضا أعرج .. الأعرج الوحيد فى المدرسة .. وأقبل عبد الحميد أبو هيف يسير على ساق وعصا ، وأراد ان يخطب فينا ، وابى الا أن يصعد هو الآخر فوق المنضدة ذاتها ـ كأنها أصبحت حلبة ملاكمة ـ وحملناه بجهد حتى اعتلاها .. وقف الاثنان معا يتجادلان أمامنا ، هذا يذرع المنضدة على صغر مساحتها الى اليمين ، وهذا يذرعها الى اليسار .. لا اظن كثيرا من الطلبة قد ابتسم لهذا المنظر الفريد ، فان هيبة الاستاذ أبو هيف ومحبته تمتلىء بها قلوبنا جميعا .

أتدرى ماذا كان جزاؤه ؟ تألب عليه بعض زملائه من الاساتذة المصريين ، وسعوا بالدس والكيد والوقيعةوالكذب

والبهتان بخسة ودناءة حتى زحزحوه من مكانه ، وصدر الأمر بنقله مديرا لدار الكتب (من حسن الحظ ان على مبارك قد أنشأ هذه الدار لتضم الكتب والمغضوب عليهم) صورته معلقة فى اللوحة التى تضم صور مديرى الدار منذ انشائها .

لعلى كنت قد بلعت هذه الوضاعة من اناس ينبغى لى ان اجلهم واسمو بهم لو وقف الأمر عند هذا الحد .. ولكنى خرجت عن حلمى حين دخل علينا واحد من هؤلاء الاساتذة الذين دسوا لعبد الحميد ابو هيف وقطع درسه ليقول لنا بأعلى صوته ، وهو يفرك كفيه ، فرحا وافتخارا :

– لا تتريث ان استطعت أن تصرع خصمك ولو طعنته فى ظهره ..

خرجت من المدرسة ذلك اليوم محنقا اكره الحياة ، وسعيت لدار الكتب لأزور عبد الحميد ابو هيف ، وانا مبتلى بالحياء ، وما أقدمت يوما على زيارة استاذ لى .. فاستقبلنى ببشاشة ووجدته راضى النفس باسما ، وما اظنه علم سبب زيارتى ..

لا شيء يلقى حتفه لحظة مولده مثل الاعتراف بالجميل .. انه الموءودة التى يحمل الانسان عارها ، تؤكد الألسن العزم على حفظ الوفاء ، وتهمس القلوب فى وجلها وخجلها انه وهم وضرب من المحال ، فما يكاد ينقضى عند قبول المنة ولثم اليد طمع حتى يثب على الفور مكانه سلالة له من اطماع اخرى متباينة مختلفة عنه مترتبة عليه عند الغير شفاؤها ، تفعل فعل المخدر فى النفس فلا يتحرج النسيان من طعنها بخنجره .

ليت العطاش الذين اغترفوا من منهل عبد الحميد

ابو هيف ــ وهم كثرة ــ عرفوا كيف يذكرونه ، لا باقامة الحفلات ، والقاء الخطب .. بل بترقب عودة يوم وفاته ليقرا كل منهم فى خلوته الفاتحة على روحه او يذهب ــ ان كان من ابطال الأساطير ــ الى قبره ليغرز فوقه صبارة ، او يضع حزمة من الخوص والريحان .. والمصيبة اننى لم اعد اذكر متى مات . لقد نسيت انا ايضا ..

من زملائى فى الفصل منذ أن دخلنا مدرسة الحقوق الى ان خرجنا منها معا : الاستاذ عبد الحميد الرفاعى العصامى الجلد الصبور ، مثال يحتذى فى الاستقامة والجد ، نعم الأدب والحياء حياؤه .. يلتهم مكتبة المدرسة التهاما ، وما قرأ كتابا ــ ولو مرة واحدة ــ الا انطبعت صورته فى ذاكرته العجيبة الخارقة ..

والاستاذ المرحوم حلمى بهجت بدوى ، الشاب الوسيم الأنيق ذو الذكاء اللماح والشخصية الجذابة والبسـمة الحلوة والنفس الهادئة الطيبة الراضية ، قليل الكلام .. لا يخالط الا صفوته .. ولكنه يهش للجميع .. احسسنا أنه سيكون له شأن عظيم فى خدمة الوطن ..

على قيد ذراع منى يجلس تلميذ ، يلبس ــ دون سائر الطلبة ــ طربوشا قصيرا جدا ، غليظ الاسنان ، جاحظ العينين شيئا قليلا ، يجلس معتمدا ذقنه على قبضة يده ونظرته شاردة وذهنه سارح ، ملابسه نظيفة ، ياقته منشية .. قلما يكلم أحدا من زملائه .. كنت أقول لنفسى : هو ، ولا ريب ، أحد أبناء المرفهين ياتى للمدرسة لا للجهـاد وفصد العرق بل للفرجة والترويح عن النفس : سواء لديه نجح أم لم ينجح .. ولذلك فبالرغم من طول تأملى له ــ كأن شيئا يجذبنى نحوه ــ لم أسع الى مخالطته او التعرف اليه ..

هذا هو الاستاذ توفيق الحكيم فى مدرسة الحقوق . واذكر اننى ما سمعته قط يذكر لأحد مفاخرا انه يؤلف المسرحيات ، وكان قد فعل وهو لا يزال طالبا معنا ..

لقد خدعنى توفيق الحكيم عن نفسه بصمته وحيائه وعزوفه عن الناس وتهيبه من الغرباء ..

***

لا انسى كذلك عم فرجانى ، فراش المدرسة المعمم ، المكلف بتسليم بريد الطلبة وتوزيعه عليهم .. الأسئلة المتلهفة تنهال عليه اغلب الأمر من طلبة الأرياف .. مكانه فى البدروم .. بيننا وبينه عوارض نافذة .. كأنه مكتب بريد بحق وحقيق ، ونطل عليه من خلال شبك الحديد وهو أسفلنا ، نسأله :

ـ فيه بوستة يا عم فرجانى ؟.

فلا يرفع نظره حتى يرى وجوهنا ، بل يرد على كل سائل باسمه ، يعرفه من صوته وحده ، فى المدرسة اكثر من ستمائة تلميذ ، فيهم من دخل المدرسة منذ عهد قريب .. ولعله لم يكلمه من قبل سوى مرة واحدة .

أتأمل جبهته الوضاءة الذكية واتئاده واتزانه ، وعينيه الباسمتين الوديعتين وضبطه لنفسه ولعمله ، شيء خفى فيه يجعلنا نحترمه .. وأقول :

ـ لو أتيح لفرجانى أن يتلقى العلم ويدخل مدرسة الحقوق معنا أكنا جميعا تكون قادرين على اللحاق به ؟.

أراه بعين الحالم استاذا جليلا فى مدرسة الحقوق تنحنى له الجباه احتراما ..

اجيال عديدة ، جيل وراء جيل ، يمر بمدرسة الحقوق — فى دوران الساقية — يجتازها ويخرج للحياة ، فيهم من ينطلق ويلمع نجمه ، وفيهم من تبتلعه الأرض فيندفن مكفنا فى النسيان .. وعم فرجانى قابع فى مكانه ، العجينة بين يديه واحدة والأرغفة متباينة ، كأنه يوزع — كالقدر — مع بريد الطلبة حظوظهم ايضا ..

لعل فى هذا سر ابتسامته ..

***

سعدت بتلقى العلم على يد اساتذة اجلاء افاضل لا انسى جميلهم .. منهم الاستاذ الشيخ أبو زيد ، مدرس الشريعة ، رجل دائم الابتسام ، يعالج الشريعة حتى يحيلها شرابا مساغا لو استطاع لصبه فى حلوقنا صبا .. والأستاذ احمد امين ، العالم الثبت فى قانون العقوبات ، لو وضعت كل كراكيب العالم شذر مذر فى زكيبة وسلمتها له لهزها هزة واحدة وصبها فخرجت لك محتوياتها فى نظام بديع منسقة خير تنسيق .. الاستاذ المرحوم احمد نجيب الهلالى .. دخل علينا الفصل فحسبناه لنحافته وصغر سنه تلميذا مثلنا ، ان زاد علينا بشىء فبهذه النظارة السميكة التى تدل على افناء بصره فى القراءة .. فما كاد يتكلم حتى انعقدت السنتنا وفغرت أفواهنا اعجابا به ، لقد هدم فى درسه الأول كل ما بين أيدينا من كتب قديمة بالية بكلام جديد تشع منه الحياة ..

ولكن الى جانبهم عرفت مع الأسف — وهذا شأن الحياة — أساتذة يجاملون رياء ونفاقا وظلما أبناء الوزراء وكبار

موظفى وزارة الحقانية ــ وكانت المدرسة تتبعها ــ وأساتذة هم أقرب الى التجار الجشعين منهم الى حملة العلم ، واساتذة جهلة فارغين يسرقون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة .

هذا كلام ثقيل الوقع على نفسى ، أخرج به عن حد الأدب الذى هو فى طبعنا منذ حفظنا « من علمنى حرفا صرت له عبدا » . ولكنى اعتزمت فى هذه المذكرات الادلاء بشهادتى صادقة ، لا أكتم شيئا ولو بدا للناس أننى قليل الادب ، ناكر للجميل .

وبعد ، فهذه شهادة رجل واحد لا تصلح نصابا للشهادة ، وقد تهدمها شهادة أخرى ، قد يكون العيب فى انا لا فيمن وصفت .

أضم الى هؤلاء الأساتذة من ذكرت من الدساسين الذين هدموا عبد الحميد ابو هيف لتعلم سبب قولى السابق : اننى عاتب على مدرسة الحقوق .. كنت أحسب أنها ستغسل أرواحنا وتبعثنا خلقا جديدا وتضرب لنا الأمثلة الباقية فى توقير العلم وخدمته لوجه الله ، وأن منصب استاذ المدرسة لا يعلوه منصب آخر ، وأن العلاقة بين الأساتذة والطلبة تراحم ، وانصاف ، ومساواة . ولكن كل هذا ضاع فى انهاء المقرر ، وزحمة الامتحانات واعلان السباق المروع من اجل الظفر بالأولوية .

ولماذا أخص مدرسة الحقوق وحدها بالعتب ؟ انها اكملت ما فعلته المدرسة الابتدائية والثانوية فى عهدنا ، من اهمال تربية الخلق وانماء الشخصية ، وكشف المواهب ، وحرصها ــ فهذا اسهل ــ على حشد الراس

بالقشور والعلم النظرى مدرجا فى اكفان .. اننى لا اغفر للمدرسة الابتدائية انها اماتت يدى فلم تكن تصلح لشيء الا ان أضرب عليها بحد المسطرة فى عز الشتاء .. ليس فى كتبنا شيء يمت بصلة قريبة او بعيدة الى الموسيقى وهى غذاء الروح ، او الفنون الجميلة ، وهى مهذبة للحس والذوق .

لم يحدثنا احد عن اشجار مصر وطيورها وحيواناتهـا كانما طلب منا ان نسير فى مناكبها كالعمى ، درسنا رى الحياض على الورق فكان لغزا لم نفهمه ، ولو ذهب بنا المعلم الى الاهرام ــ وهى قريبة ــ لرايناها راى العين .. بقيت زمنا طويلا اجاهد لأتخلص من الشعور بأن المسافة بين انف سيبريا والاسكا هى عرض الارض كلهـا لأننـا درسنا الجغرافيا على خريطة مبسوطة .. وبقيت الى ان ذهبت للصعيد فى سن الثانية والعشرين لا أفرق بين القمح والذرة فى الحقل .. ماتت الطبيعة من حولنا ودفنت بين اكداس الكتب .. كانت القسوة هى القانون والقلظة هى العملة الدارجة والدمامة هى محيطنا ..

وظللت أحلم وأتمنى أن يكون فى ريف مصر ضيعة نظيفة خالية من القمل والبق والبعوض ، براغيثها قليلة .. ماؤها غير عكر ، فلو كان بها مثل هذه الضيعة وكان لى ولـد لفضلت الف مرة أن ادفعه اليها وهو فى سن الثامنة ليعيش بها الى ان يكتمل شبابه ، فهذا افضل من أن اسلمه لمدرسة يلقى فيها ما لقيته .. ومما يشجعنى على هذه الاحـلام والامانى أن المولى سبحانه لم يرزقنى ولدا .. حمدا لله وشكرا ..



الباب الثانى

خبط عشواء



يوليو سنة ١٩٢٥ ـ شهادة الليسانس هى اليد التى دفعتنى فى ظهرى وأنا واقف ـ كمتفرج ـ على سلم القفز فوقعت بملابسى فى حوض السباحة وسط متسابقين أشداء ـ وكنت لا اعرف العوم ! ـ فيهم من يشق الماء بذراع قوى ، وفيهم من يتمنطق بقرعة استامبولى مكتوب عليها « المحسوبية » أو « الوساطة » وفوزهم لا يخلو مع ذلك من عامل غريب خفى مجهول اسمه « الحظ » .

كيف احصل على عمل التحق به وارتزق منه ؟ ليس امامى الا أن اطرق باب الحكومة . اننى لم أحن رأسى صاغرا للمثل الذى كان سائدا حينئذ « من فاته الميرى يتمرغ فى ترابه » اعتقد أن هذا المثل قد اختفى الآن ، ولم تعد الألسن تردده ، والأمثال ـ كالناس والاغانى ـ يجرى عليها قضاء الموت ، لا لأن أحدا من اسرتى لم يصل الى المناصب الرفيعة فى الحكومة التى تحف بهاالأبهة والكبرياء، فاننى لم يفتنى أن الحظ فى ذلك العهد أن صغار الموظفين اشد من كبارهم خيلاء بمناصبهم وفخرا بها .. بل لأن اسرتى كان يشملها منذ وعيت روح من الديمقراطية والشعبية لا ادرى من أين جاءتها . هى طبع وخلق ، لاثمرة علم واقتناع ، فما دخل بيتنا خادم الا خالطنا مخالطة الأهل ، لم ننظر قط بانفة الى القصاب والبقال وبائعة الجبن والصابون ، ولكنى اظنها ديمقراطية معاملة فحسب،

فلو جاء لأمى خاطب يطلب يد ابنتها لقدمت الموظف الصغير على التاجر الميسور ، لا تفضيلا لطبقة على طبقـة ، بل بحثا عن الاطمئنان باتصال الرزق على نمط مضمون ، وفى موعد محدد ـ ولفضلت أيضا المطربش على المعمم، والمصرى على الأجنبى أيا كان .. سبحان مغير الاحوال !

فلم يكن وقوفى بباب الحكومة طلبا للابهة والخيلاء . انما كان مرجعه لسـببين :

الأول : ان جميع افراد أسرتى من الموظفين ، فليس فينا أحد من أصحاب المهن الحرة حتى أقتدى به أو أسير فى شق محراثه ـ والسـبب الثانى أن ترتيبى جاء بين أوائل المتقدمين فكان من الطبيعى والمنتظر الا أجد صعوبة فى الالتحاق بوظائف النيابة العامة ، وكانت تعتبر حينئذ هى ووظائف قلم قضايا الحكومة أقصى ما يصبو اليه حامل الليسانس .

اما وظائف النيابة المختلطة فكانت وقفا على أولاد الذوات ومن ساعدتهم ظروفهم على جرى لسـانهم باللغة الفرنسية وكان هذا يكفى بالنسبة للمصريين . وبين جرى اللسان واجادة اللغة بون شاسع ، وكان القضاة الأجانب لا يحترمون الا من يعرفون هذه اللغة كأحد أبنائها، وينظرون شزرا لمن هم دون ذلك .

وحين طالب احد القضاة المصريين فيما بعد برد اعتبار اللغة العربية فى هذه المحاكم للمرافعة وكتابة الأحكام اتهموه بأنه يفعل ذلك لعجزه عن اتقان اللغة الفرنسـية . . فالمسألة فى نظرهم ليست حمية وطنية بل قصر ديل .. وكان لم يتح لى اتقان اللغة الفرنسية لأنى لم أدخـل المدارس الاجنبية فى مصر ولم أرحل الى فرنسا لطلب العلم . وكنا

لا ندرسها الا دراسة سطحية فى الســـنتين الاخيرتين من المدرسة الثانوية واول سنة فى مدرسة الحقوق ..

لم يبق امامى الا النيابة الاهلية .

وكان لى شغف عظيم ان التحق بها . فاكذب اذا قلت اننى لم أكن مسحورا بالوسام يعلق على صدرى ، وبوقوفى مترافعا ــ هل تذكر كلامى عن الخطابة فى الباب الأول ؟ ــ امام محكمة تحف بها الرهبة .. ياحضرات القضـــاة ! ياحضرات المستشارين ! ..

***

احتضار ..

ينبغى ان اتريث هنا برهة ، لا احفل بنظام الكـــلام ولا ارهب اللوم ان هذه العبارة ــ ياحضرات القضـــاة ! ياحضرات المستشارين ! حين كتبتها احسست على الفور بهزة فى قلبى ، انها تخرج الى النور ذكرى كنت قدنسيتها وهى من خزائن نفسى ، ذكرى صراع بين الوجود والعدم والطمع والفناء فى لحظة ليس فى العمر كله لحظة اخــرى تساويها رهبة وعبرة ، هى وحدها الحق وكل ما سواها زائل ..

لحظة طلوع الروح ، هى ذكرى احتضار رجل كان من اذكى أبناء مصر واشدهم طموحا، عصامى، نفسه سودته، لمع اسمه وهو شاب صغير (بذكائه وفصـــاحته ودهائه ومضيه الى غايته فى عناد لا يعرف الوهن ولا اليأس ولا الاعياء) ، ثم بلغ من المناصب أرفعها ولعب فى سياســتها دورا خطيرا ، عبد الملك كما يعبد الوثنى الصنم وقدم على

لمذبحه قرابين لا يجهل انها غير حلال .. كان فى وقت من الأوقات يحكم البلد من وراء ستار .. رئيس الوزراء يتلقى صاغرا اوامره الجافة القاطعة . لم يكن يعجبه احد ولا يرى انسانا اكفأ منه ـ ولعله كان محقا ـ ولكن أضواء المجد تحيد عنه وتتركه فى الظلام وتسلط على دمى تقف على المسرح بفضل خيوط خفيفة تحركها من عل . فوق صدر هذا الرجل ارفع أوسمة الدولة ولكنها عنده من صفيح لا يبرق معدنها ما لم يعلها وسام فى حجم الرحى لا يكون الا من ذهب مرصع بالماس : وسام الرياسة تصحبه قلادة اذا لبسها صاحبها ردته الى بهجة بدواته الأصلية وهمجيته الاولى .

ان الفرق بين منصب الوزارة وبقية مناصب الدولة فرق شاسع . ولكن الفرق بين منصب رياسة الوزارة والوزارة هوة سحيقة ، فهو القمة التى تتلألأ عندها الانوار ، فاليها ترفع الأبصار ، وعندها يسجل التاريخ .. اصبح المنصب اقرب من حبل الوريد يكاد يلمسه بيده لو مدها .. ولكنه فضل أن يقف أمام العرش ـ ولو كان خاليا ! ـ وقفة الخشوع ، ضاما يديه فوق بطنه ، محنى الراس ، لا يريد أن تأتيه الرياسة الا باحسان من ولى النعم .. لم يرفع عينيه ولا نطق فمه ، ولم يفتر اخلاصه، لعل هذه الوقفة هى سبب مرور الأزمات الوزارية واحدة بعد اخرى دون ان يذكر احد اسمه .. وتمضى الايام وما عرف انسان دخيلة نفسه .

وجاءه الموت ، وبلغت الروح التراقى ، وزاغ البصر ، هزات فى صدره هى اواخر نبض قلب فى الدنيا واوائل دق على باب الآخرة .. لم ينطق لسانه بالشهادتين أو ان تلجلج لسانه رفع اصبعه دلالة عليها ، ولا سال عن ابن

ولا أوصى بوصية ، بل أخذ يتقلب في الفـراش ، مشوحا بذراعيه ، مشيرا بيديه ، يدير وجهه يمنة ويسرة ، وهو يصرخ بصوت مبحوح تقطعه الحشرجة. حضرات الشيوخ! حضرات النواب ،أحييكم أطيب تحيـــــة .. حضرات الشيوخ ! حضرات النواب ! .. أن حكومتى تعتـــزم .. حضرات الشيوخ .. حضرات النواب .. حضرات .. حضر .. حضر .. حضر .. حـ .. حـ ..

ما أفضى الى انسان وهو حى بدخيلة نفسه أو بمطمعه .. لله ما كان أشد عذابه فى مماته ، وأبلغ عذابه فى حياته .. رب أنت الرحيم الرحمن .. فاغفر له .. انه انسـان !

***

شغف بالمجرمين

كان طموحى أن التحق بوظائف النيابة العامة ، لسحر الوسام كما رأيت ـ ولسبب آخر ، ذلك لاننى لا أدرى لماذا شغفت أثناء دراستى بتتبع الابحاث التى تعالج الجريمة فى المجتمع وتصف المجرمين وأحوالهم ونفسيتهم . المؤلف الايطالى « لمبروزو » يزعم أن هناك صفات جسدية وخاصة فى الجمجمة تلازم المجرمين ـ ولن أخبرك بهذه الاوصاف حتى لا أثير الشك فى نفسك ! ـ ولما أتيح لى فيما بعـــد ـ حين اشتغلت معاونا للادارة ـ أن أخالط المجـــرمين كنت موضع دهشة زملائى ـ ولا أقول سخريتهم ـ حين يروننى أترك التحقيق جانبا لاسأل المتهم عن أصله وفصله وأمراضه وعلله ، وكان لى دفتر جعلت كل من يعـــرف منهم القراءة والكتابة يسطر لى فيه شيئا بخطه ، كأننى

« لمبروزو ! » مصر يريد ان يحقق القول بأن خط المجرمين يختلف عن خط بقية الناس ، فأى شيء يستهوى النفوس أكثر من أن تطل على نفسية هذا المخلوق المعجب الذى يعطى لنفسه حق الحكم على مخلوق آخر بالاعدام ، ثم ينفذ هذا الحكم بيده ؟

دع عنك جرائم الغيرة والدفاع عن العرض أو الجرائم التى تنبعث من الغضب والاستفزاز ، ليست هذه هى الجرائم التى تستهوى النفوس انها مآس ، المجرم فيها أسوأ حظا من المجنى عليه .. انما تستهويها جرائم ترتكب بعد اصرار طويل ، يضع فيها المجرم خطته وينفذها بمكر ودهاء . القتيل ــ فى غالب الأمر ــ ضحية بريئة تثق فى قاتلها ..

لذلك كانت جرائم القتل بالسم أبلغها سحرا وأشدها بغضا فى نظر القانون لانها أكثر خسة ولؤما . تتبعت أخبار المحاكمات الجنائية فى مصر وأوربا ، قديمها وحديثها ، أصبحت أعرف أشهر مجرمى أوربا معرفة وثيقة ، كما عرفت بفضلهم بعض كبار المحامين وقرأت تاريخ حياتهم ــ فى مقدمتهم عندى السير « مارشال هول » الذى دافع عن مرجريت فهمى قاتلة على كامل فهمى ــ وقد أروى لك قصتها اذا فتح الله على ..

وكنت اتأمل الفرق بين طبيعة الشعب الفرنسى والشعب الانجليزى ازاء هذه المحاكمات .

فى فرنسا تندلق أخبار الجرائم والمحاكمات على الصحف وتفور كما يفور اللبن ، وقد تزدحم قاعة الجلسة بعدد من نساء متأنقات يأكلن الشقانق والقانق وهن يشهدن المحاكمة ، ثم تنسى هذه المحاكمات سريعا .. الصحفيون

الفرنسيون ــ وفى مقدمتهم اليهودى « البيرلوندر » ــ متخصصون فى رواية المحاكمات بأسلوب كله فكاهة وسخرية لا تجده فى انجلترا الا فى النادر القليل . اما فى انجلترا فانهم يؤكدون أن الاهتمام بهذه المحاكمات مرض نفسى خبيث يدل على فساد فى الطبع ويزعمون أنهم أرفع من أن يصيبهم هذا المرض ، ولكن الاخبار تكتب مع ذلك بتفاصيل لا تقل عن مثيلاتها فى فرنسا .. اللبن عندهم فى اناء مغلق ، تحسبه خامدا وهو يفور .. يحدث كل هذا الاهتمام فى تستر وحياء وتظاهر بعدم المبالاة .. لا اعرف شعبا كالانجليز يعكف على الجرائم وتسجيلها وتحليلها .. ان هذا من اثر السادية التى يعانيها بسبب كبته لعواطفه وافتخاره ببروده وهو مع ذلك من أكثر الشعوب اهتزازا للعاطفة * .

***

ســلام للعريس

وقادنى هذا الشغف الى رغبة أن أتخصص فى دراسة الاحداث (المجرمين) ، وكنت أحسب اننى اول من يشق هذا الطريق ، ولكنى وجدت بحثا قيما كتبه الاستاذ حسن نشأت باللغة الفرنسية ونال من أجله لقب دكتور من احدى جامعات فرنســا ــ فقلت لأقتفين اثره واكتب باللغــة العربية ..

وكان أكبر آمالى واشـــدها ارهاقا لنفسى أملى اذا ما دخلت النيابة أن أرقى فيما بعد قاضيا للأحداث ، فلا

* (« الجمهورية » ، ١٠/٤/١٩٥٩ ، ص ٣)

اعرف انسانا أدعى للعطف والرثاء وأحوج للرعاية والعناية من صبى برىء ، اما يتيم او لطيم ، او مطرود من بيت اب متزوج من غير امه ؛ او مطـرود مرة اخـرى من بيت ام متزوجة من غير ابيه .. تطحنه رحى الحياة فينصرع ويضيع ولا يجد ملاذا ، ثم يسقط فريسة فى قبضة مجرم لا يعرف الرحمة ولا الشفقة ؛ فيدربه على الاجرام بقسوة تصهر جسده وروحه .

للصحافة المصرية ، منذ وعيت قراءتها مواظبة لا تخل ـ كأنها تتابع فصول السنة ـ فى فتح اعيننا للمآسى التى تحدث ـ ونحن غافلون ـ بين ظهرانينا حين تنشر بين الحين والحين نبأ اكتشاف عصابة تدرب على الجرائم جمعا من صبية قد يرتفع عددهم الى الستين والسبعين ، تحشرهم فى الكهوف والمغارات ، وتهتك ـ فوق البيعة ـ أعراضهم ، لا ابالغ اذا قلت ان كل قصة صورة طبق الاصل لسابقتها ، ومع ذلك تنشرها الصحف كأنها مفاجأة لم يحدث لها مثيل من قبل !.

قد تختلف المستويات فزعيم العصابة تارة مجرم خطير ، تلامذته من الفقراء ، وتارة صاحب دكان بسكليتات ، يجمع فى يديه أبناء الفقراء والموسرين ..

فى نفسى الآن هزة قديمة لا انساها لانها ترتبط بذكرى الافراح والليالى الملاح ، حين يفرش الرمل الاصفر وتصف الكراسى ويعلق البطيخ الوردى والاحمر والاخضر ، وترفرف الرايات المثلثة ، (لا تسأل عن معنى رسومها) وتلعلع الزغاريد ..

ما اشد فرحة الصبى فى قلبى حين تأتى موسيقى حسب الله لا تهمنى ثيابهم المهلهلة ، واحذيتهم المخروقة ، ولحاهم

النابتة ،ولا هزال بطونهم الخاوية .. سلام للعريس ، سلام للماذون ، طالع السعد ، أفراح القبة ، عصفورى يامة ، اولا أكواب الشربات الى حين موعد الاكل .. ثم الحلوى .

هذه الفرحة تخالطها عاطفة لا اتبينها ولكنها تجعل نفسي تغيم .. حين تكون الموسيقى القادمة ـ موسيقى الاحداث ـ ارى من بعيد يصطف جمع من صبية خائفين ذليلى العيون ، صامتين كانما يسوقهم معلمهم بكرباج خفى ، سترتهم لها باقة غليظة غالية تخنق رقابهم ، وتخالطها الوان صفر وخضر كأنهم قطع الجاتو .. يشقون الحارة جيئة وذهابا وجيئة ، فى مشية الجند ، ثم يجلسون على الكراسى فى ادب وحياء ، وعيونهم تنظر خلسة : اى شيء سيشربون وياكلون ؟ عجبا ، أيضا يحسنون عزف سلام العريس ، وسلام المأذون وطالع السعد .. لعل مرجع الغصة التى فى قلبى أن كلمة ـ الاحداث ـ كانت ترجمتها عندى ـ الأيتام بدليل أن بنات البلد ، الملتفات بالملايا السود ، يمصمصن شفاههن حين يرونهم ـ حسرة واسى يزيدهما لوعة رؤية صبى منهم غارقا فى حضن نفير كانه مخلوق عجيب يلتف حول عنقه ، له جسد أخطبوط وفم سمك القرش ، ومطلوب من الصبى الصغير أن ننفخ فى طرف ليخرج الهواء من الطرف الآخر !.. وصبى آخر عرف متاعب الحمل فى الشهر التاسع ، كأن الطبلة الكبيرة داخل بطنه لا خارجها ، هى التى تسيره وتجره الى الامام والى الارض فيمنع نفسه من الوقوع بالانحناء الى الخلف .. تحسب أن قلبه قد انتزع من صدره وعلق على طرف العصا الصغيرة التى يدق بها الطبلة .

نساء البلد ، ما ارقهن ! تود كل واحدة لو انها تناولت

الصبى منهم فربتت على ظهره وقبلته فى جبينه ، وأخذته فى حضنها ، ثم اطلقته وفى يده نبوت الغفير أو خد الجميل .

***

اصلاحية الأحداث

تمكنت من زيارة اصلاحية الاحداث فى الجيزة ـ ولا ادرى كيف ـ قد نسيت ـ وزرت ورشها وعنابرها ـ الله وحده يعلم ما يحدث بهذه العنابر بالليل ـ وجمعت بيانات واحصائيات عديدة عن نزلائها . كيف أقوى أو ارضى أن احتجز كل هذه المعلومات القيمة لنفسى لابد ان ادل بها على الناس ، اتفقت مع نادى الحقوق المطل على ميدان الأوبرا ان ألقى محاضرة عن ـ الاحـــداث المجرمين ـ ونشرت الصحف النبأ العظيم ، وذهبت فى الموعد المحدد وتحت ابطى مظروف محشو بالاوراق ، اتدبر كيف أفتحه وأخرج أوراقه بهدوء حين ابدأ الكلام ـ مخفيا عددها حتى لا يضج الحاضرون من قبل أول كلمة ..

أقول لنفسى ماذا أفعل حين ادخل ويعلو التصفيق .. لا شك اننى ساشعر بخجل .. حقا لقد شعرت بخجل ، ولكن من نوع آخر . دخلت الردهة الواسعة فاذا مقاعدها تلمع ، كانما لها أسنان بيض تبرز من شدة الضحك .. لم يكن فى القاعة كلها الا رجلان فقط .. هل ننصرف ونحمل الصحف جريرة الكذب بالاعلان عن المحاضرة ، أو اتكلم وفى هذه الحالة هل أستعمل صيغة الجمع ـ أو صيغة المثنى فى مخاطبتهما ؟ ولماذا أعلو المنصة ؟ أليس من الأنسب ان

اجلس بينهما واتحدث بما اريد ؟ والأعجب والاغرب كل هذا انني ــ برضه ــ القيت المحاضرة .

فى بعض الاحيان ننهب اعمارنا ونلهب ظهرها بالسوط حتى تجرى مسرعة ، لا لشىء الا رغبة منا فى نسيان جرح فتكون خسارتنا للعمر اشد مصيبة من الجرح ذاته .

وهكذا فعلت حتى خيل الى انني نسيت هذه الوقفة المزرية فى نادى الحقوق .. فاذا بى لشدة عجبى أجد رجلا وقورا ــ لم اره من قبل ــ يدق باب بيتى ذات يوم ، فلما تقدمت اليه صافحنى بحرارة وحمد الله أن اهتدى الى اخيرا فهو يسمع عنى ويعلم بخبر محاضرتى ، انه يأسف أن فاتته هذه المحاضرة القيمة . هل لدى نسخة منها ؟ يا اخى ! كان الجرح قد اندمل لماذا توقظه ؟

ومع ذلك احسست براحة كبيرة وشكرت لهذا الرجل الكريم رده لكرامتى .. واسرعت واتيت له بالمحاضرة ذاتها ــ فلياخذ النص الوحيد عندى ــ لا نسخة منه فحسب ! ياللا مع السلامة ! يفور من عينى .. ثم استطرد فى الحديث يقول ــ انظر الى مبلغ كرمه !

ــ حرام أن تنقطع عن الاهتمام باصلاحيات الاحداث .. اننى مستعد ــ لوجه الله ، ولخدمة هؤلاء المساكين ــ أن أضع نفسى تحت تصرفك ..

اخبرنى انه يشغل وظيفة فى اصلاحية الاحداث بالجبل الاصفر ، لو أردت صحبنى اليها ومكن لى زيارتها سرا ، اذ لا يجوز للغريب دخولها الا باذن من مصلحة السجون ، وهى لن تأذن لى بعد أن انتقدت نظام اصلاحية الجيزة .

كيف أستطيع ان افى هذا الرجل النبيل حقه من الشكر ؟

انه أعاد الى أشواقا قديمة ورد ثقتى بنفسى .. انه فاعل خير ، لوجه الله ..

وتقابلنا فى المحطة ، وركبنا القطار معا ، ونزلنا فوجدنا عربة الترو للى التى يدفعها نزلاء الاصلاحية مسافة لا تقل عن خمسة كيلو مترات .. لتوصيل وتوديع السادة موظفى الاصلاحية ، ومفتشى مصلحة السجون ، والزائرين .. بتصريح أو خلسة أمثالى ..

لم اكد اجلس حتى لاحقنى صوت لا تحتمله نفسى ، وكدت أقفز من الترو للى ، هاربا .. الصبية يلهثون من ورائى وعلى جانبى كأنهم كلاب عطشى ،مدلدلة الالسن .

كان الـرجل دليلى ، أرانى ما اراد هـو ان أراه ، ثم انصرفت على موعد معه فى قهوة .. وفى هذه الجلسة صب فى مسمعى كلاما خلت انه الحق ، وأنه من الشجاعة أن اجهر به ، كان الكلام نقدا مرا للاصلاحية ونظامها واهمال المسئولين فيها ..

وقلت فى نفسى ينبغى أن أضع هذا الكلام فى اطار علمى ، عليه تحبيشة من أقوال العلماء وجداول الاحصائيات .. حتى لا يكون الرجل صاحب الفضل الأوحد .. فجمعت عدد النزلاء الذين أتموا مدتهم فى الاصلاحية بعد أن تعلموا بها احدى المهن وتتبعت مقدار التزامهم لهذه المهن حينما خرجوا للحياة وسعوا لاكتساب الرزق فلم أجد الا نسبة ضئيلة منهم ينطبق عليها هذا الوصف ، ويصبح من حقهم القول بان الاصلاحية كانت ذات نفع لهم . فقد وجدت أن الحداد أصبح بائع صحف ، والنجار بائع أمواس حلاقـة وهكذا .. وطبعت هذه الاحصائيات والمقارنات علىالبالوظة وعلى نفقتى من خمسين نسخة .

وكتبت بحثا تفلسفت فيه بالنقد وتعاليت واتفقت هذه المرة مع نادى التجارة ، فى شارع عماد الدين ، فهو عمار يغاير نادى الحقوق المخروب ـ على أن القى به محاضرة ـ تانى ! ـ عن اصلاحية الاحداث بالجبل الاصفر . ولشدة دهشتى زاد عدد الحاضرين على ثلاثين ـ ضاع تعبى ومالى فى البالوظة عشرين نسخة هدرا ـ فى مقدمتهم مدير مصلحة السجون بجلده ولحمه ، ـ بقية الحاضرين من موظفى المصلحة ، جاءوا وراء مديرها .. وكان المدير رجلا طيب المنبت عاقلا كريم النفس ، صبر على النقد يجيئه من صبى فى سن ابنه ، ثم قام وعقب على المحاضرة بكلام يرد الامر الى نصابه .

لم اقابل دليلى الوقور قط بعد ذلك . كان فص ملح ذاب ، لم اعرف ـ الا فيما بعـــد ـ أن زيارتى السرية للاصلاحية كانت موضع تحقيق ، وان الرجل الـكريم ، فاعل الخير لوجه الله كان على خلاف مع رؤسائه ، وظن ان تعرضهم لحملة من النقد ، يدبرها من وراء ســتار ، وينطق بها مفغـل نطق الببغـاء سيزيحهم من مناصبهم ليحتلها هو ويفرض سلطانه ..

كنت كف القط يمدها القرد الى النار لتخرج له أبو فروة مشوية لذيذة .

وكان الجرح الثانى الذى سببته لى الغفلة والسذاجة اشد من الجرح الاول الذى سببه لى الغرور .. ومنـذ ذلك الحين تبت والحمد لله عن المحاضرات والقائها .

والغريب اننى عشت بعد المحاضرة الثانية اياما يعتريـى هم وحيرة مبعثهما سؤال يتردد فى نفسى ـ ان مدير مصلحة السجون لا شك قد اعجب بك .. فلو طلبك ليعرض عليك

منصبا فى هذه المصلحة تقبل ـ لأنك شـغوف بالمجـرمين فستكون معهم ! ـ امترفض لأن المنصب اقل من مطامعك!

واخذت أطيل الجدل والنقاش مع نفسي وأعذبها من قبل أن يصلنى العرض . وطبعا لم يصـــل ، لان مدير المصلحة ليس غرا حتى يعرض المنصب على من نقده ، بل على من يضحك الناس عليه بهذه السهولة ، وحســنا فعل ..

***

خبط عشواء

كل الذى فعلت أن كتبت طلب الاستخدام بالنيـابة الاهلية وارسلته بالبريد الى النائب العام ـ كأنه خطاب معايدة وسؤال عن الاحوال . وانتظرت ، فلا أعرف احدا فى وزارة الحقانية ، أو اعرف أحدا يعرف احدا فيها . انا وقسمتى .

فاذا بى أعلم أن مدرسة الحقوق ستوفد اربعة من أوائل دفعتى الى جامعـات أوربا لاعدادهم لشـغل مناصب الاساتذة فى المدرسة (وكانت حركة تمصير الوظائف قد بدأت تشتد) نسيت النيابة الأهلية وتعلقت نفسى بهذه البعثة تعليقاشديدا ـ كنت كما ترى أخبط خبطا عشوائيا ـ ان كلمتى « بلاد برا » لهما عندى سحر غريب منـذ صباى . لى عم كان يسافر الى سويسرا فاذا عاد انعم علينا بمجموعة من كرت بوستال تفرد وتطبق ويزيد طولها على المترين تصور جبال سويسرا وبحيراتهاينداق عليهالون أزرق قاتم لا أدرى لماذا تهتز له نفسى اهتزازا مؤثرا ..

يارب ! أفي الدنيا كل هذا الجمال ؟ « بلاد برا » عندي جنة الارض . أهلها من عجينة غير عجينتنا . أحس الا مجال لي للتثقيف وتعلم اللغة الا بالسفر اليها .. (دع عنك سحر الباليه والاوبرا والكونسير ..) لجامعاتها هيبة ووقار لا تعرفهما مدرسة الحقوق ، يكفي أن أساتذتها يدخلون الفصول يخ...ن في « الروب » ونسمع انهم — مع ذلك — أهل كرم وتواضع ، فيدعون تلاميذهم لتناول الشاي معهم ، الزوجة هي التي تدور بالأقداح عليهم .. سأرى رأي العين الاساتذة الذين ارتوينا من مؤلفاتهم ، وبدأت أسأل : في أي جامعة يلقي الاستاذ « كابيتان » دروسه ؟ ثم انني لم اتجاوز العشرين الا بأشهر قليلة ، وخرجت من المدرسة وتجاربي في الحياة معدومة ، فكان الخط الواضح أمامي أن أستمر في الدراسة وان أكرس نفسي للعلم .

ولكن الدور لم يأت علي . ونزلت من مرتبة المرشح الاصلي الى مرتبة المرشح الاحتياطي في بعثتي ، فاذا بجميع المرشحين — والحمد لله — قرأوا العلامات ، حتى المنمنمة منها ، ودق قلبهم دقا سليما ، وراق بولهم .. فسافروا وبقيت ، سعيت لرصيف الميناء يوم سفرهم ، أتتبع الباخرة وهي تشق البحر الى الامل المنشود ، الى المستقبل الموعود ، وفوق ذلك الى المجهول الساحر ، أحسست أنني أودع نفسي ، وان ضوءا في صدري قد انطفأ ، وغلبتني رغما عني حسرة لم يبق بينها وبين الدموع الا القليل .

***

بسفه

وقعت عيناى ـ وأنا أراجع ما سبق ـ على ذكر تمصير الوظائف فى المعهد الذى تخرجت فيه فى مدرسة الحقوق. فتحركت فى نفسى ذكريات شتى مؤلمة .. ابناء الجيل الحاضر فى نعمة ، لا يدركون مبلغ الذل الذى كانت تعانيه مصر . كان البلد لغير أهله . تجارة الصادر والوارد والمصارف والشركات .. فى يد الاجانب ، يملكون قدرا كبيرا من الأراضى الزراعية . احياء برمتها مستعمرات لهم ، هم ملاك مبانيها ومتاجرها ، اللافتات مكتوبة بالافرنجية ، الشحاذون فى هذه الاحياء من الاجانب ، سائق التاكسى اجنبى ، الكمسارى فى الترام مصرى ، والمفتش أجنبى ، الكمسارى فى المترو أجنبى ، لأن المترو أرقى من الترام .

كانت مصر تستورد كل شىء من الخارج ـ حتى المومسات ، (كان اللورد كرومر يفخر بأنه لم يسمح لمومس انجليزية بالقدوم ـ أو بالبقاء فى مصر) .

لن اتحدث عن مستشار الداخلية حين يجوب الاقاليم يستقبل كالملوك ، ويمسك المدير له زمام جواده ، ولا عن مستشار وزارة المالية (يخضع مجلس الوزراء لأمره) ، وانما أتحدث عن الكونستابل فوق الموتوسيكل ، انه امبراطور لا حد لسلطانه ، وهو وحده الذى كان يجعلنى أحس أن مصر بوابة بلا بواب ..

وضحك على ذقن مصر حين اعلن تصريح ٢٨ فبراير انها دولة مستقلة ، وصدر قانون بتعويض الموظفين الاجانب عن تركهم خدمة الحكومة (وكان الاستقلال مشروطا بصدور هذا القانون) لم يعط كل منهم مكافأة حسب مدة خدمته السابقة ، بل قدرت هذه المكافأة على حسب ما كان يستحق لو بقى فى خدمة الحكومة الى أن يبلغ سن الستين ، مع تقدير العلاوات والترقيات ، ودفعت لجميعهم ، سواء منهم من كان يعمل فى الحكومة منذ سنين او منذ اشهر — كل هذه المبالغ مرة واحدة .. ولم يكتف بذلك ، بل أضيفت اليها مكافآت سخية ، وبعض الذين خرجوا عادوا للخدمة من جديد بدعوى أنهم تجنسوا بالجنسية المصرية ، دفعت مصر الملايين من الجنيهات عبثا . ان ابشع سفه يستحق الحجر لا يعد شيئا مذكورا الى جانب سفه حكومة ذلك العهد فى بعثرتها لأموال مصر ، فى وقت هى فى اشد الحاجة المليم واحد لبناء صرحها الاقتصادى . ولم تتعظ ، اذ استبقت لوائح التوظف الموضوعة لصالح الاجانب ، كان يسمح للموظف الأجنبى بأجازة لمدة ثلاثة أشهر ونصف اذا قضاها خارج القطر .

وظل هذا النص قائما يطبق على الموظفين المصريين، وعشت زمنا طويلا اعجب كيف يتاح للموظف الفنى القادر على السفر الخارج مثل هذه الاجازة السخيفة ، ويحاسب الفقراء باليوم والساعة .

***

الأصفار خلصت

على ذكر الملايين المعثرة : كان احد رجالات مصر يتولى رياسة تحرير صحيفة الحزب الوطنى بعد أن تدهور حالها ،

الادارة عبارة عن دكان صغير ، فيه عامل عجـــوز يصف الحروف ويدير مطبعة يد ، ويترحم على أيام « اللواء » ، انه يعمل فى المطبعة لا من أجل الأجر ، بل محبة فى مصطفى كامل الذى صافحه ذات يوم وابتسم له ، وسحره .. فى ركن من الدكان سـلم خشبى تصـعد بك طقطقتـه الى « صندرة » بها مكتب وكرسى ولا تعرف لونهما وســط الظلام ، وجال فى خاطر رئيس التحرير أن يكتب فى يوم زاد فيه سخطه على الاحتلال الانجليزى ، مقالا عن خسائر مصر من جراء قناة السويس ، الورق الذى يكتب عليـه مقاله جزازات صغيرة لا تتسع الواحدة منها الا لجملتين او ثلاث وكتب على الورقة الاولى : ان مصر جندت لشق القناة ٦٠٠,٠٠٠ عامل ، اشتغلوا ١٥٠٠ يوم فاذا قدرنا ان اجر الواحد منهم هو ٢٠٠ مليم فى اليوم الواحـد . (فرغت الورقة فمد بها يده الى عامل المطبعة وسأله أن يبـدأ فى جمـع الحـروف واســتمر يكتب) لبلغ ذلك ١٨٠,٠٠٠,٠٠٠ مليـون من المليمـات ، أى ١٨٠,٠٠٠ جنيه .

وانظر الى حماقة اسماعيل ، يقبل التحـكيم بينه وبين دليسبس الفرنسى ، فلا يجد فى أرجاء الارض كلهـا الا فرنسيا آخر يحتكم أليه ، (هو الامبراطور نابليون الثالث بدعوى أنه صديق) ، ودفعت مصر بسبب هذه الحماقة ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك .

فرغت الورقة الثانية فناولها للعامل .. واستمر يكتب : « واذا حسبنا مساحة الاراضى الواقعة على ضفتى القناة والتى اغتصبتها الشركة ظلما وعدوانا لبلغت على الاقـل ٦٠,٠٠٠ فدان ، واذا قدرنا أن ثمن الفدان الواحـد هو

۰۰۱ جنيه لبلغت الخسارة ۰۰۰ر۰۰۰ر٦ جنيه » .
(فرغت الورقة فناولها للعامل) .. واستمر يكتب :
« اما حساب ترعة المياه الحلوة .. »

لم يستطع أن يتم كلامه . ارتفع صوت العامل من أسفل يقول له صارخا :

ــ يا سعادة البيه ! اعمل معروف خفف الخسـايـر شوية ، احسن الاصفار خلصت من المطبعة ! »

***

فى النيابة والمحاماة

وصلنى من النيابة العامة كتاب لا يتضمن تعيينى فى وظيفة معاون نيـابة ، بل يخبرنى أننى سأوضـع تحت التمرين مدة ما ، ينظر بعدها فى أمرى وعلى أن أختـار النيابة التى أحب أن اتمرن فيها ..

بدات الحكومة ــ ولم يقع الفاس الا فى راس دفعتى ــ تفلسف سياسة التوظيف ، يقول النائب العام ــ وهو على حق ــ انه غير مقيد بنتائج امتحان الليسـانس ، فهى ليست دليلا على أن كل ناجح ــ ولو كان متقدما ــ يصلح للعمل فى النيابة فهو محتاج أن يختبر هؤلاء النـاجحين ليرى مدى صلاحيتهم له ..

وفى مصر كـل كـلام على الورق لابد من تاويله تأويلا قبيحا . لم تتردد السنة السوء عن القول بأن هذه السياسة الجديدة تهدف الى حرمان الأوائل من الوظائف وتقـديم

* « الجمهورية » ١٧٠ /١٩٥٩/٤ ، ص ٥

المتأخرين أصحاب الوساطات .. ان جلسة واحـدة مع النائب العام تكفي للحكم . فهل سيمتحن المتقـــدمين فى القانون من جديد ؟ وما قيمة امتحان الليسانس ؟ المقصود يا سيدى ــ القائل هو عليم ببواطن الأمور ــ هو مد الحبل، وتعيين المحاسيب واحدا بعد آخر دون ضـــجة ، وبذل الوعود الكاذبة للباقين . « وموت ياحمار عبال ما يجيلك العليق ! .. »

لم أصدق هذا الكلام لانني لا أحب المكر ولا أثق بالماكرين .. وان كنت أحسست انني سأضيع وسط الزحام .

اخترت نيابة الخليفة (ومقرها فى المحكمة الشرعيــة) لانها قريبة من دارى ، وبدأت عمـلا أصـــدق وصف له «صبى وكيل النيابة» كقولك «صبى حلاق»،وصبى ترزى» كل مهمتى أن اجلس الى جانبه ، وأراقبه ، واذا أعطانى محضر تحقيق قرأته وأبديت رأيى فيه شـفهيا .. أما التحقيق فيجريه رجال البوليس فلم يتح لى أن أقابل احبائى المجرمين وجها لوجه ، الا حين يدخل علينا عسكرى يجرجر وراءه جمعا من الناس فى يد بعضهم الكلبشـــات ويضرب « سلام » ويقول « تلبس يا أفندم » ! ننفـض أيدينا منهم سريعا ، بتحويلهم الى قسم البوليس !

سرعان ما تبينت حقيقتين ، الأولى : أن التمرين بدون تحمل للمســـئولية مضيعة للوقت .. لو وكل الى عمل تعود نتائجه على أن خيرا أو شرا لأقبلت عليه بهمة ، أما الوضع الذى كنت فيه فلا يزيد على وضـــع المتفـرج الذى لا يبالى ، لا احاسب على حضور ولا على انصراف .

والحقيقة الثانية : أن الدراسة النظرية شيء آخر ، مختلف جدا . اغلب الاوراق التى بين يدى مخالفـــات

لا ذكر لها فى قانون العقوبات الذى حفظته .. مطعم مطلوب اغلاقه لمخالفته للشروط الصحية . قهوة مطلوب تقديمها للمحاكمة لانها وضعت كراسي « فوق الرصيف » .. أراجع قانون العقوبات فلا يسعفني بشيء . قال لى وكيل النيابة :

ـ لا تبتئس . كذلك كان حالى فى أول عهدى ، كاتب النيابة يتعالى على ويسخر منى حين يرى لخمتى . حتى سألت عن « مجموعة اللوائح والرخص » فجيء لى بجزءين ضخمين ، علاهما التراب . نفخته عنهما ، وقضيت ليلتى ساهرا فى مراجعتهما حتى تمكنت من قطع دابر السخرية .

امامى محضر تحقيق أقف امامه حائرا . كيف اصف جريمة رجل كل ما فعله أنه بصق فى وجه آخر .. هل هو سب ؟ هل هو ضرب ؟ .. ان قانون العقوبات لا يتضمن ما يعاقب على البصق فى وجوه خلق الله .

لم ندخل المحكمة ، ولم ننتقل لتحقيق الجنايات ، ولم يقل لنا أحد من هو الحكم على أدائنا فترة التمـــرين بنجاح ، ووكلاء النيابة يتبادلون علينا واحدا بعد آخر .

***

أصل الى المحكمة هابطا اتدحرج من شارع «نور الظلام» ـ ما أعجب هذا الاسم لأنه شارع ضيق شديد الانحدار ـ على الجانبين مكاتب وكلاء المحامين الشرعيين ، اغلبهم فى جلاليب وجاكتات ، وعلى الأذن قلم .. فيهم من لا تفارق شفتيه ابتسامة ساخرة ، وفيهم البلداء لو قامت القيامة ما اهتزت لهم شعرة . يجلس داخل هذه الدكاكين وعلى

ابوابها نسوة ، دهشت ـ فقد كنت اتعرف جو المحكمة الشرعية لأول مرة ـ حين رايت أغلبهن متبرجات بالكحل والاحمر والأبيض .. ان يوم الذهاب للمحكمة عندهن يوم عظيم ، ينبغى التأثير على القاضى ، فان حساب النفقة لا يمكن أن يغفل الشياكة والجمال ، ولأنهن سيقابلن ازواجهن وجها لوجه وتبقى العين فى العين مدفوعات بشهوة التشفى أو الأمل فى الصلح .. يوم عظيم ــ مرة اخرى ـ لأن الشفاه والافواه والحلوق والايدى لن تكف عن رواية الخناقة القديمة ، فانها اذا نسيت فماذا يبقى لهن من كلام أو مدعاة لاستجلاب الرثاء .. نسوء البخت أدخل وراءهن المحكمة فأجد حدة الدكان قد باخت .. المأساة الحامية حين تروى تنقلب مهزلة مضحكة .. فاذا خرجن من قاعة الجلسة عادت الحدة وتبينت فظاعة المأساة من جديد .. تزداد النقمة اذا كان الحكم قد صدر بتأجيل الدعوى لجلسة أخرى .. هذه هى اللحظة الحرجة التى يبدأ فيها تبادل السباب والتشابك بالايدى ، وضرب الروسية والعض والنهش .. وأحيانا القتل .

وراء كل قضية قصة .. كم كنت اتمنى فى ذلك الوقت أن أشتغل كاتبا لمحام شرعى كما قال « فوكنر » انه كان يتمنى أن يشتغل بوابا لماخور ..

فى يد هذه النسوة صبية صغار لا أحد ينتبه لهم .

***

خاب ظنى وتحقق قول العليم ببواطن الأمور .. أخرت وسبقنى من هو خلفى . وكنت افضل أن أصل فى الطريق الى سد من أن انسى فى طريق بلا نهاية ،واصدرت انا نفسى الحكم ــ لا أتركه لغيرى ــ بأنه من الخير لى أن اتخذ وجهة أخرى فقلت لاجربن حظى فى المحاماة ، اذ أنفت ،

رغم احتياجي ، أن اشتغل فى وظيفة كتابية ، وكبر على نفسى ان احرم مما حسبته حقى .

ان أسرتى قليلة العدد منطوية على نفسها ، كل رجالها موظفون ليست لهم معاملات مع الناس ولا قضايا مدنية أو جنائية او حتى شرعية ، والقاهرة بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشىء الى حلقة من المعارف والاصدقاء يسندونه فى مبدأ أمره .. وقلت لنفسى ينبغى الهجرة الى بلد آخر، أصغر من القاهرة ابدأ فيه خطواتى الاولى ، هكذا تفلسفت مفضلا الصفر على النزر القليل ، واتجه ذهنى الى مدينة الإسكندرية ، فقد كنا فى القاهرة نعلم ان فى مديرية أسيوط مدرسة متقدمة من المحامين المصريين أولاد دوس ، وعلوبة، وسيونى ، وفهمى ، ورمزى .. أسماء معروفة لدينا ، اما فى الاسكندرية فلا تلمع اسماء محامييها الاهليين،ولعل السبب أن محكمة الاستئناف المختلط ــ وكان مقرها الاسكندرية ــ احتكرت السوق بمحامييها الاجانب ، تاركة المصريين فى الظل . ومما سهل على الهجرة للاسكندرية أن كان لى بها خال موظف بالجمارك . وقلت لأنزلن عنده ضيفاً ولو ثقيلا .

ولكنى اشترطت الا اشتغل عند محام بالمجان ، وطلبت ان اكافأ ولو بمبلغ قليل من المال ، لسد مصروف جيبى ونفقة انتقالاتى وصيانة كرامتى فلا يقال عنى اننى لا ازال صائعا .

وجدت فى الاسكندرية محاميا وعدنى بمكافأة شهرية قدرها ستة جنيهات ، وبدات العمل عنده فى منتصف الشهر ، هو من اليهود ، وكانت هذه الكلمة لا ترن فى اذنى ذلك الوقت رنين اجراس عربة المطافىء او الاسعاف

.. كنا فى غفلة تامة ــ بفضل سذاجة زعمائنا السابقين ــ عن الخطر الداهم رغم النذر السافرة والطلائع البينة ، أكان هذا ايذانا من القدر بأن خطوتى الاولى تجمعنى بهذا الجنس العجيب من الناس الذى سيقابلنى شبحه فى مستهل كهولتى فينكبنى ويؤذينى أشد الأذى ، ويقلب كل المبادىء الجميلة التى اعتنقها بحب وغرام الى أضداد لها !

لقيت فى هذا المكتب لأول مرة أناقة وحبا للفنون لم أعهدهما من قبل .. فى بيتنا كتب ولكن ليس به صورة واحدة أو تحفة فنية .. مكتب فخم ، وكرسى بزنبرك تميل به الى الوراء فيشدك الى الامام . مكتبة قانونيـــة غنية . مكتبة أدبية أغنى منها . مؤلفات «أناطول فرنس» فى أجمل طبعة . على المكتب صورة لفتاة صغيرة ، هى بلا شك ابنته ، تشيع فيه جوا غامضا من الحنان ، وصور فوتوغرافية لوصية نابليون كتبها بخط يده فى المنفى بـ « اونج وود » بجزيرة « سنتاهيلينا » يطلب فيها دفنـــه بجوار « السين » فى أحضان الشعب الفرنسى الذى طالما أحبه ، ويوصى بممتلكاته الشخصية لخادم له .. اعداد متناثرة من « المقتطف » و « الهلال » و « البيـــــان » و « المحاماة » و « روايات الجيب » و روايات غرام .. غير إنى لم أكن حينئذ متنبها لدعوى اليهود حبهم للفنــون والثقافة وضربهم فيها بسهم وافر .

وجاء أول الشهر ووثقت أن المحامى سيدفع لى ثلاثة جنيهات ، فأنا مفلس ومن أسرة كلها موظفون ، كلمة اول الشهر عندهم مقدسة ، هى المنارة الوحيدة فى حياتهم ، والأوتاد التى تثبت بها خيمتهم على الارض ، ولكن المحامى اعتذر أننا كنا فى عطلة الصيف ولم ترد للمكتب قضـــايا

جديدة كثيرة ، ووجـدت الوعد اليقين قـد اصبح كلاما عائما . تركته ـ وفى قلبى غصة .

وانتقلت الى مكتب محام مصرى وعدني بمكافاة شهرية قدرها ثمانية جنيهات ولا اسميها علاوة لأنى لم اقبض قبلها شيئا .. مكتب ليس به دلالة واحدة على أن الحياة بها شيء اسمه الفن ، أيا كانت صورته ، ولا حتى أبو زيد الهلالى . لا ذوق ولا ترتيب ، ولا كراسى هزازة .. ولعلى كنت فى ذلك المكتب اكثر اطمئنانا لنفسى منى فى المكتب الآخر الذى كشف لى مبلغ جهلى وتخلفى وحرمانى .

كان من بين الخطط الاستراتيجية التي وضعتها بحنكة غير المجرب أن أراسل الصحيفة الوحيدة التى تصدر فى مدينة الاسكندرية وهى صحيفة «وادى النيل» ـ فنشرت لى سلسلة مقالات عن المحاماة لأشهر المحـامين فى مصر وأوربا ، فى ذيل كل مقال اسمى وتحته كلمة « محام » .. ولكن بدون عنوان ! .. فاذا بهذه الصنارة لا تصطاد سمكة واحدة .

وكنت قد زرت صحيفة « وادى النيـل » ابان تأجج عواطف أهل الاسكندرية للغازى مصطفى كمال فى حـربه من أجل تحرير بلاده .. اعداد الصـحيفة توزع كألواح الثلج فى عربات يد يتخاطفها الناس وهى طازجـة بحبر المطبعة . وتقرأ البرقيات المطولة التي تنشرها تحت عنوان ضخم « لمراسلنا الخاص بمدينة انقرة » بأصوات مرتفعـة متهدجة ، ولما ذهبت لادارة الصحيفة دخلت على رجـل ضئيل الحجم لم يخلع معطفه ولا طربوشه ، نظارته تمتطى حدبة فى منتصف انفه ... امامه صحف تركية عديدة ، وفى يده مقص يقطع به مقالات تهيأ لترجمتها . فلما سألت

عنه قيل لى « هذا هو مراسلنا الخاص بانقرة ! » .

وسعدت فى ادارتها بالتعرف الى الشاعر الرقيق الصبور عبد اللطيف النشار ، له قصيدة جميلة يصف فيها احدى المقابر ، وكان يركب القطار ذات يوم ، ووقف فى محطة تجاور مقبرة ، لم يصرخ الكمسارى « الميت ينزل » ولكن الشاعر ترك القطار ومشواره وأشغاله ومنتظريه عند الوصول ونزل الى المقبرة ينفرد فيها بنفسه ، ويكتب قصيدته .. كان يتولى تحرير الصفحة الأدبية فى « وادى النيل » ويتولى صديق آخر لى تحرير الصفحة الاقتصادية .. طلبهما صاحب الجريدة ذات يوم وقال لهما انها فى حاجة الى تجديد .. ورفض اقتراحهما بأن يستخدم أقلاما جديدة .. فهو لا يريد أن يدفع مليما واحدا ، وأخيرا اهتدى الى حل موفق ، طلب من الأديب الشاعر أن يحرر الصفحة الاقتصادية ، وطلب من زميله المتخصص فى الاقتصاد والتجارة أن يكتب الصفحة الادبية .. فلم يسعهما الا القبول .. والعجيب أن صحيفة «وادى النيل» فى عهدها الجديد زادت رواجا عن ذى قبل ..

***

الاسكندرية

انني احب ثغر الاسكندرية ، أحس بسعادة كبيرة تنزل بردا وسلاما على قلبى حين أتجول فى مينائها بين عطر زكى من عطور الشرق ينبعث من مخازن الخروب ، ورائحة نفاذة يتسلل غولها فى خياشيمك ساعيا الى تخديرك واسرك فى

قبضة لن تتراخى ، تتسرب من مخازن التبغ ـ اننى عين وزارة المالية ! ـ اشاهد السفن تفسد مؤخرتها الحبلى رشاقة عرنينها ، مربوطة كأنها الخيل أمام المداود ، تحس انها تغلى وهى باردة ميتة الانفاس ، يخيل لك انه لو قطع الحبل لوثبت من فورها ولوت عنانها واختبأت وراء الأفق. لنشات ـ رغم ضآلتها ـ متعجرفة تمخر فى خيلاء البطة ومشاكسة كلاب الصيد الجائعة ، لها ولولة ترج القلب.. ما ألذ الشعور بالخوف المفاجىء وأنت فى أمن مطمئن . قوارب صغيرة يدفعها رجالها وهم وقوف ، وجوههم ـ لا ظهورهم ـ الى الطريق ، تتأرجح فوق ماء أزرق يفصله عن ماء رمادى خط مرسوم لا تدرى سببه . عربات النقل الطويلة يسوقها أيضا اصحابها وهم وقوف (يذكروننى برمسيس فى عربته) ، فتوتهم تحت الرعشة السارية فى أبدانهم من قلقلة العجلات فوق البلاط ..

اعود فأمر أمام الدكاكين التى تبيع الحبال والقلوع والبكر ، لا اعرف غيرها يصلح مصنعا للأحلام .. وعلى الشاطىء هياكل لسفن اخرى من الخشب ، عجفاء بادية الضلوع كأنها ديك رومى فى نهاية مأدبة مصرية ، اراقب بلذة « قلفطة » شقوقها . يقطع عليك نسيم البحر فجأة رائحة غليظة عطنة زخمة ، يضيق بها صدرك وتنجذب اليها فى وقت واحد ، يقولون انها « يود » البحر ، والبلدية ومجاريها أعلم ..

أبناؤها أهل نخوة وشجاعة وكبرياء لا يعرفون مركب النقص : تراهم بالسروال الأبيض المنتفخ والحزام العريض جالسين رافعى الرءوس فى المقاهى الافرنجية التى تزعم أنها وقف على الاجانب والطبقة الراقية ـ وهذا شىء لا

يفعله أولاد البلد فى مصر ، اذا تركوا أحياءهم ضاعوا واحسوا بالغربة ــ اذا قارنت عدد ضحايا المظاهرات لوجدت الاسكندرية تتفوق على جميع مدن مصر ، شنق من اهلها فى الحركة الوطنية ثمانون رجلا مرة واحدة ، منهم أب وابنه ..

ولكن ما سر هذا اللون الاصفر العجيب الذى يكسو كالطفل وجه الفتاة الاسكندرانية ؟ .. من أجله أحببت بنات بحرى حبا شديدا ، وما سر أن الاسكندرية وهى مهد كبار ملحنينا ــ ترضى أن تعيش بدون صحيفة أو مجلة أو عدد يليق بها من المكتبات ؟ هل هى حق أم باطل تلك الأسطورة التى تؤكد ان بها طلسما يذود عنها الحدآت والغربان ؟ وأخيرا ما سر هذه الشخرة التى تنفرد بها عن بقية ثغور مصر ؟ كان سليمان نجيب عائدا من أوربا وعلى راسه قبعته ، فما كادت السفينة ترخى حبالها حتى تسلق اليه كالقرد صبى شيال ووقف أمامه وتناول حقيبته وقال له :

ــ وان باوند يا خواجة ..

فالتفت اليه وشخر له شخرة عالية وصرخ :

ــ بتقول كام يا ضلالى ؟!

جرى الصبى الى حافة الباخرة ، واطل على المعلم ، وقد انتصب طوله فوق الرصيف ، وهتف اليه بصوت مجلجل :

ــ « يا معلم ده بيشخر !! آخد منه كام ؟ »

سعيت الى دكان الحبال والقلوع والبكر لأقابل العامل الذى قيل لى انه لف الأرض سبع مرات وعاد وفى حقيبته صور عديدة .

.. سألته عنها فأرانى صورته وهو واقف امام جدار ولا شيء آخر ـ وقال : انا فى هونج كونج ، وصورة اخرى له أمام جدار آخر وقال : انا فى بومباى ، وصورة ثالثة أمام جدار وقال لى : انا فى سان فرانسيسكو .

ونظرت الى عينيه فوجدتهما سليمتين قويتين فحمدت الله أننى اعمش !

***

دمنهور

لم اجد فى قلبى مقدرة ولا شجاعة على ان اشتغل او افتح مكتبا باسمى ، فان تأثيثه يحتاج الى نفقة لا املكها ، والايراد غير مضمون ، والصفر الذى فضلته فى الاسكندرية على نزر القاهرة لم يزد مع الايام على صفر .

ومتى ارتد الانسان على وقفته فى الصف الأول وارتضى الصف الثانى بديلا فلا يلومن الا نفسه اذا تزحلقت قدمه بعد ذلك الى الوراء .

انتقلت من الاسكندرية لأشتغل محاميا بدمنهور بمرتب شهرى قدره ١٢ جنيها ، فكأنى عجزت فى ميدان العمل الحر بالمحاماة أن أخلع مريلة موظفى الميرى ، ونزلت ايضا فى دمنهور ضيفا عند أحد أنسبائى البعيدين ..

واذا كنت ذرعت مديرية البحيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا الا أن مخالطتى لأهلها لم تكن مخالطة مباشرة بل مخالطة عن طريق ملفات القضايا ، وأغلبها قضايا صغيرة (التى أتولاها نيابة عن المحامى صاحب المكتب الذى يقصده

الناس ويجرى هو وراءهم ـ ما عرفت الجرى وراء أحد طول عمرى . عشت فى الريف ولكن على هامشه) .

ركبت لأول مرة قطار الدلتا ، ولم يكن صورة مصغرة القطار ، بل صورة مكبرة للعب الأطفال شاهدت انبثاث الأروام بين الفلاحين ، فهم تجار القطن يركبون معنا هذه القطارات فلا نجد لذلك عجبا .

لا ازال اذكر الى اليوم كيف كنا نصل الى محـكمة ابى حمص والمحطة تبعد عن البلد كثيرا فاذا كان اليـوم ممطرا خضنا فى بحور من الوحل ، ونزل السائق يغوص فيه الى وسطه ليدفع الحصان العجوز بيديه وطرقعـة لسانه وسوطه . وابو حمص من افقر البلاد فى المساكن . ولما سالت عن السبب علمت أن أرضها حكر يستغله مالك يهودى لا يأبه بالبناء ويحاربه ..

رشيد حسبتها قريبة من الاسكندرية ، كنا لا نبلغهـا الا بعد ثلاث ساعات ونصف ساعة فى قطار بطىء . اتأمل من النافذة صفوفا لا تنتهى من النخيل والتين الشوكى ، على اليمين صفحة هادئة لا تتحرك هى بحيرة ادكو ، وعلى الشمال رمال ورمال . ولـكن لابد أن ترى فـلاحا وراء محراثه .. نساؤها يلبسن ثياب أهل القـاهرة الملاية والقصبة التى لا تعرفها الاسكندرية ، ورجالها كذلك كأهل القاهرة الا نفرا قليلا يقتدون بزى أهل الاسكندرية البنطلون الواسع والحزام العريض . أسماؤهم غريبة تنتهى بواو ممدودة مثل « جادو » ، ولعلهم من مهاجرى الغرب ، أو أسماء مثل الدرس والنزر . لقيت رجلا اسمه «الفلس». شهرتهم عندنا نحن أهل القاهرة انهم أرباب نكتة يتكلمون بالقاف ، لم تسعفنى زيارتى العابرة أن اتحقق من ذلك .

لا أدرى لم هى فقيرة رغم أنها مشهورة بالفسيخ والسردين والسمان والليمون والسيرج والبلح الزغلول .. فى المحطات تعرض علينا سمك مشوى لنشتريه .

محكمة الدلنجات تنعقد فى حجرة صغيرة ليس بهـــا الا ما يكفى لجلوس ستة أشخاص ، واصحاب القضـــايا والشهود جالسون على الارض اكواما وصفوفا . كاتب الجلسة مصدوع يربط راسه بمنديل حريمى مفلفل .. اذا طلب القاضى مستندا تركنا ليبحث عنه ، ثم يعود .

كل مراكز مديرية البحيرة متخلفة الى درجة تبعث على الرثاء .. لا يوجد فى واحد منها مطعما تستطيع ان تأكل فيه لقمة نظيفة . دمنهور نفسها محرومة من المجـــارى ولأهلها عادة غريبة ، أن « يدلقوا » من النوافذ مياه بيوتهم قذرة وغير قذرة .. رايتها تتحدث بعجب عن مدير فضله انه شق طريقا واقام متنزها .. مع انها مدينة غنية تعج بمحالج القطن وأهلها ارباب تجارة وحزم لا يفلح بينهم غريب .

وكنت اجوس خلال الريف وأنا كالمخدر لا افهم سبب علته ولا احس فى قلبى الا يأسا مريرا واستسلاما صاغرا .

***

سماسرة

عرفت فى المحاماة جنسا عجيبا من الناس ، انفت منه وانفت من اجله من مهنة المحاماة ، فلبعض المحامين سماسرة للقضايا . ليس سبب انفتى راجعا الى المهنـة ذاتها ،

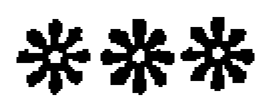
فالأرزاق على الخلاق ، ولا باس أن يحتاج العمل الى وسيط ، ولكن السبب انهم لا يعملون على المكشوف بل فى الخفاء وبالمخادعة .

كنت فى حضرة المحامى فدخل علينا رجل يتأدب ويخشع وكأنه يلبس مسوح القديسين ، لا جاكتة فوق جلابية ، تعلن ابتسامته ان عشمه فى جدوى الخير لوجه الله لا يموت ، فعليه سمة الشهداء أو الفدائيين .

سلم على المحامى سلام الغرباء باحترام وتهيب شأن من لا يعرف أحدهما الآخر من قبل . يجر وراءه جر النعجة رجلا مصفر الوجه مدهوشا .. وقال الرجل الأول للمحامى : « صديقى هذا عرفته من القهوة له قضية وقد استشارنى فلم أجد غيرك أهلا لها .. لأنى وان كنت لا اعرفك ، اسمع عن كفايتك ونزاهتك وستكسبها لنا » .
ولم يقل له باذن الله .. كلام جميل كله تعاطف ومودة لوجه الله .. سحر الرجل فدفع مقدم الأتعاب وتسلم الايصال وخرجا . لم تنقض خمس دقائق حتى عاد السمسار وحده مندفعا كالرصاصة ، فى عينيه نظرة النسر ، فسلم عليه المحامى سلام الحبايب العشاق ، واندفعا فى حديث سريع لم يمنعنى من أن أنتبه ليد السمسار تمتد كالمخلب ــ وسط الحديث وكأن لا علاقة لهذه اليد بهذا الحديث ــ الى المحامى فناوله خلسة ــ ولا أدرى ممن وانما هو الشعور بالخجل ــ أجر سمسرته .. ثم بلع كل منهما ريقه ايذانا بختام المأساة أو المهزلة والى اللقاء مرة اخرى .

اذا كان السماسرة جنسا عجيبا من الناس ، لا يصطادون الا جنسا أعجب منهم يستحق ما يجرى عليه . يصاب الرجل بتحكم « كيف » الدخان أو تحكم لعب الورق فى

القهوة ، أما هم فيصابون بتحكم « كيف » القضايا والمحاكم . فى حياتهم مسألة هينة ما أسهل حلها بالمصالحة .. بل لاحظت أن صاحبها لا يحسن روايتها بل يفرقها حتى تضيع معالمها وسط تفاصيل لا تنتهى عن مؤامرات الأقرباء ودسائس الأنسباء وموالسة الحكام ، ولكنها فى جسده كالجرب اكبر اللذة أن يعكف على حكها صاحيا نائما .. هم أكثر أصحاب القضايا لجاجة وجريا وراء المحامين ، وتتبعا لحركاتهم واخبارهم وأسرعهم أتهاما لهم بالتواطؤ مع الخصوم ... كنت آنف من السماسرة ولا أجد لهم عذرا وانا شاب عفيف متحمس .. الا اننى وانا أكتب الآن عنهم ، اجدهم ـ بعد أن وصفت ضحاياهم السمجاء ـ من أخف الناس ظلا وأكثرهم ذكاء .. فحلال عليهم مهنتهم الشريفة .



النصب

وهكذا فى جميع قضايا النصب اثور حينما أجد الناس لا ينتبهون ـ وهذا شيء مخيف اذ يكاد ينطق بأن الامانة فى هذه الدنيا والعنقاء سواء ـ الى أن الضحية المزعوم بأنها بريئة تستحق العطف انما هى أشد من النصاب لؤما وخسة ودناءة وطمعا وجشعا . فأيهما أثقل ذنبا : نصاب لعله رب أسرة مأزوم بلاه الله بحدة الذكاء فأضله الشيطان عن الطريق المستقيم ، أم رجل يقال انه فاضل كريم يرضى ـ وهو مستور الحال وقد يكون من كبار الأغنياء ـ أن يشترى من رجل فقير ، لعله حافى القدمين رث

الثياب ، خاتما من الماس لا يقل ثمنه عن مائة جنيه بخمسة قروش لا غير ؟ لو كان فى قلبه ذرة من أمانة لقاده الى صائغ ينقده الثمن الحلال . سرق النصاب خمسة قروش اما هو فسرق مائة جنيه . والغريب أن هذا الرجل الفاضل هو الذى يجرى فيفضح السر ويطلب بمعاقبة من ضحك عليه ! ولا ادرى أيهما ضحك على الآخر ، اذا قسا عليه الناس لم يزيدوا عن وصفه بالبلاهة وطيبة القلب وهما اغرب مترادفين فى قاموس الاخلاق !.

ما أمتع باب النصب فى قانون العقوبات . انه المرة الوحيدة التى تحس فيها أن هذا الشيخ الصارم الوقور الذى ضم بين حافتيه سجلا سلبيا للفضيلة بتعداده بلذة كبرى الرذائل (المسمى قانون العقوبات) يتشوق الى اللعب بالأقنعة وسيوف صلاح الدين وثياب الفراعنة والمماليك وجند الرومان وبقية هلاهيل الفرقة القومية، فهو يشترط لجريمة النصب وحدها اخراجا مسرحيا !.

لابد لى أن أروى هنا أعجب اخراج فى النصب صادفته لأن بطله يلبس رداء الفلاحين السذج من ملابس مسرحية لتوفيق الحكيم * .

قال صديقى الفاضل :

ـ كنت أسير فى عتمة المساء فى شوارع جاردن سيتى ، فاذا على الرصيف المقابل فلاح على ملابسه طين الحقل ، فى يده حبل ليف لعله خلعه عن وسطه حين دخل المدينة ، فى قدميه بلفة صفراء مسودة ، تتعثر مشيته حين يدب بها على أرض ملساء مرصوفة ـ وهى تجرى جريا فى

* « الجمهورية » ، ١٩٥٩/٤/٢٥ ، ص٤

دروب القرية واخـاديد الغيظ ــ فهى تأبى أن تمشى به فيجرجرها زحفا على الارض ، بجانبه امرأة هبط ثدياها كالخرجين على بطنها ، تفوح منها رائحـة اللبن الرايب والجبنة القريش ، على راسها مقطف به علو برسيم وحمامة قرعاء تصوصو منتوفة الريش زرقاء اللحم متآكلة المنقار ، يتخبط الرجل فى المراة وتتخبط المراة فى الرجل كانهمـا تائهان فى أرض مجهولة مخوفة ، رغم أنوار البلدية .

احس صديقى أن الرجل قد انتبه له وانه يهم بالاشارة اليه والتقدم نحوه فيكفكف خجله وتشده المرأة من كمه ، يؤكد صديقى أنه رأى شفتيه ترتعشان من شدة ارتباكه وحيائه وزجره لأول نوازعه الحمقاء حين تهمس له انها عين الحكمة .

ومضى صديقى فى طريقه فاذا بصوت رقيق فيه مسكنة الشيخوخة وحشرجة الحلقوم الذى تخشب بعد نضارة يقول له :

ــ ياسيدنا الافندى ! ياسيدنا الافندى !

ــ افندم ..؟

ــ من فضلك باين عليك طيب وابن حلال عاوزك فى معروف .

.. آمن صديقى بهذه الشهادة وارتاح قلبه فسارع يقول له :

ــ أفندم .. خير ! تحت امرك ..

ــ بقه شوف .. احنا فلاحين غلابه بنبيع سـاعات بيض وقراخ لواحد طيب زى حضرتك فاتح أجزخانة مش بعيد من هنا . ايه قولك .. النهاردة قال لى « لازم يافلان

اهديك بهدية حلوة من عندى حلال لك وناولني قزازة وقال لى انها كويسة وتشد الحيل وتمنع الرطوبة وتنقى الدم وتفتح الشهية حاجة اسمها كينا .. حاجة زي دي .. مراتى وغوشتنى ولعب الفار فى عبى .. قالت لى : اوعى يابو فلان تكون مخلوطة بخمرة .. احنا موش وش كده .

واخرج الرجل من المقطف زجاجة نظيفة مغلفة فى ورق شفاف يخرفش ، مختومة الراس بالشمع الاحمر وعليها رسم رجل نصف عار فى ازار جلد النمور — كأنه شمشوم او هرقل يمزع فكى أسد مهول احدهما عن الآخر — وتحته « كينا بسليرى — احترس من التقليد ! » .

ومال الرجل بسذاجة على صديقى وقال له :

— اللى أنا عاوزك فيه بس يا سيدنا الافندى تقول لى من فضلك وتصدقنى بأمانة الدوا ولا المشروب ده دخله صحيح خمرة ولا سبرتو ؟

ضحك صديقى واكد للرجل وهو يربت على كتفه ان الأجزجى لم يغشه وانها هدية طيبة تنفعه .

تناول الفلاح الزجاجة يتأملها بحسرة ، كأن المولى سبحانه وتعالى لم يشرح صدره للحق يأتيه من اول غريب يقابله ، وأن وصفه من قبل بالطيبة والاخلاص — ومعشر المؤمنين أهل شك وريبة حين يكون الامر حلالا أو حراما .. وقال :

— والله الاجزخانجى ده على نياته ، فتح شهية ايه واحنا ناس مش لاقيين ناكل .. والله ما هى لازمانى .. تسوى لها كام يا سيدنا الافندى .

هبط صديقى أول درجة فى سلم الامانة وقال : « ٢٠ ـ ٣٠ قرشا » .

وهو يعلم أن ثمنها خمسون قرشا بالتمام والكمال .

ـ عوضنا على الله . او كان اداني بريزة كان احسن لنا .

طرطقت أذنا صديقى فاسرع يقول وهو يحس انه بارع واسع الحيلة نهاز للفرص :

ـ تاخد فيها ١٥ قرشا ؟

ترك مجالا للفصال .. يا للمكر ..

زم الرجل شفتيه ونظر الى المراة فاشاحت كأنهاتقول « انت صاحب الأمر والنهى اذا كنا أمام الناس » .

مد الرجل يده بالزجاجة الى المقطف مقدار ثانية ثم عاد واخرجها وهو يقول :

ـ طيب خليها بعشرين قرش ، ما انت قلت ان ثمنها ٢٠ ـ ٣٠ قرشا .

دفع صديقى الريال كأنه يتكرم عليه باحسان قدره خمسة قروش واسرع فى خطوه ، وكان الصديق هو أول من طلب الهرب ، ليبتعد عن الرجل وهو لا يزال يتعثر فى مشيته وبلغته تكاد تنفلت من قدمه .

وفى الدار فك صديقى الورق الشفاف ، لم يأبه أن وجد على ظهره بعض البقع اللزجة وحين حاول فك الشمع الأحمر انفلت فى يديه بسهولة لم يكن يتوقعها .. لم يصدق همسا بدأ يوسوس له الا حين صب أول كاس فوجده ماء خالصا من ترعة عكرة .

والغريب أن صديقى نزل من الدار مهرولا ليطارد الرجل

النصاب فكان فص ملح وداب .. لم يذهب ـ والحمد لله ـ للبوليس ولو ذهب لقيل له : هذه ليست أول مرة وان البطلين لم يعرفا الريف قط نظرا لأنهما من سكان احدى العطوف فى مجاهل القاهرة الحانية على الجريمة والشحاذين والقرداتية وعصابات خطف الأولاد ..

***

فى ساحة المحكمة

لم تكن الصعوبة التى واجهتنى فى أول عهدى بالمحاماة هى « ماذا أقول ؟ » بقدر ماهى « كيف أقول ؟ » رغم انى دخلت المحاكم ـ كمتفرج ـ من قبل فاننى لم أقدر صعوبة موقف المحامى الا حين وقفته . كنت أود أن يجىء مكانى ـ كما نرى فى محاكمات السينما الفرنسية ـ بجانب المتهم فيميل الى موشوشا وأميل اليه هامسا ، وأن تتهيأ لى الأسماع حين يطلب منى القاضى أن أتفضل وابدأ المرافعة ، وان يتاح لى أن أثب من مكانى لأمسك بتلابيب الشاهد ـ وسبابتى تكاد تخرق عينيه ، وأحاول فضح كذبه بسيل من الاسئلة البارعة .

أين كل هذا من محاكمنا الجزئية ومحاكم مراكز البحيرة ، وبالأخص محكمة الدلنجات ؟ المحامون محشورون حشرا كالسردين فى مقعدهم يترافعون وهم وقوف به . كنت أجاهد بذراعى حتى أجد لى مكانا بينهم اذا قام جارى عن يمين أو يسار قمت أنا أيضا ـ لانى قزم ضئيل ـ بضغط أجسامهم ـ والمتهم وان كان مقبوضا عليه فهو فى

قفص الاتهام بعيدا عنى . وان كان مطلق السراح فهو يقف سدا بينى وبين القاضى ، يجد من حسن الأدب الا يدير وجهه الى ، واذا نظرت الى الناس من ظهورهم وجدتهم كلهم ابرياء .. كل شيء يجرى فى عجلة ، رول الجلسة به ٢٥٠ قضية على الاقل .

بعض القضاة يأتون بقطار .. ويعودون بقطار آخر .. بينهما وقت محدود ، ينبغى انجاز هذه الاكوام خلاله .. شهل شهل .. لا تتاح الفرصة لأن اوجه للشاهد سؤالا ، واذا وجهته طلب أكثرهم — أنفه وكبرياء — الا أن يكون توجيه السؤال من القاضى .. وهذا التكرار يكسر حدة الهجوم ويضيع أثرها ، فالأولى التنازل عنه ..

رأيت أغلب القضاة يكتبون الحكم وانا فى أول المرافعة، لأن القضية واضحة كالشمس ، وكل كلام لغو .. بعض مقاعد المحامين عالية لا يظهر منها الا رأسى اذا وقفت . فلم ارض أن تبدو للقاضى كهذه الرءوس المقطوعة الموضوعة فى طبق فوق مائدة فى العاب الحواة والسحرة وهى مع ذلك تنطق وتضحك وتسأل الجمهور أن يتوجهوا للمولى سبحانه ليرحمها ويصبرها على بلواها ، وأغلب بنات البلد يجارن بهذا الدعاء بعيون مغروقة بالدموع ، ويسلكن صاحب الراس فى سلك الأولياء اصحاب الكرامات ، ويتهامسن لو خطونا عليها هل تفك عقدة العقم ، هيهات أن يصدق القاضى اننى أيضا من الأولياء أصحاب الكرامات .. فجعلت من خطتى أن انفلت من المقعد ، ولو دست على اقدام جميع الجالسين .. واقف فى حرم المحكمة بين منصة القاضى وهذه المقاعد ولكننى كنت احس اننى تهت فى هذا الحرم واختلطت بالشهود والمتهمين مطلقى السراح .

ثم عدلت عن خطتي سريعا بعد أن ترافعت يوما أمام قاض وقفت منحرفا الى يمينه ، فلما جاء دورى فى الكلام دق القاضي المنصة بكعب قلمه الرصاص ، ونظـــر الى يساره وقال « اتفضل » نظرت حيث نظر فوجدت محاميا آخر قد غرق وجهه فى ملف .. ظننته يقصده فصبرت .. عاد كعب القلم يدق مرة اخرى ثلاث مرات بدلا من مرتين « اتفضل » . المحامى الآخر لا يزال غارقا فى الملف فصبرت فاذا بالقاضي يميل بكل جسده الى ويصرخ :

ــ ما قلنا ستين مرة اتكلم ياحضرة المحامى .. !

لم افطن الا فيما بعد انه مصاب بالحول ..

وممـــــا زاد بلوتى أن بعض القضاة يصرون على ألا يترافع امامهم المحامون الا مرتدين الروب الأســـود .. وكانت اكبر متعة لزملائى القادرين أن يفصلوا لهم يوم نجاحهم هذا الروب ، أما بقيتهم من الفقراء أمثالى فكنا نؤجره من فراشي المحكمة لقاء نصف ريال .

اعوذ بالله من رائحة عرق المحامين انها تفوق زميلتها رائحة النفتالين .. لم أجد روبا واحدا يليق بى ، بل كل روب لبسته اخذت أعوم فيه ، كأننى قسيس ارثوذكسى يخوض حفرة فى يوم مطر .. الملم اطرافه وارفعها الى وسطى حتى لا اقع به اذا مشيت .

اذا كنت خجولا متهيبا وكانت قضيتك هى رقم ١٢٥ بقيت مسمرا من الصباح للساعة الثانية بعــــد الظهر ، فنحن لا نعرف ترتيب القضايا الا يوم الذهاب للمحكمة ، أما اذا كنت مشهورا أو على الاقل ملحاحا مكشــــوف الوجه لا يهمك الكسوف استطعت أن تحمل القاضى على ان يقدم قضيتك عن غيرها بدعوى انك ذاهب للمرافعة ــ

كذبا فى اغلب الأحوال — فى قضية هامة جدا فى محكمة اخرى ..

حضرت مرة قاضيا طيب القلب يستجيب لهذا الرجاء بسهولة .. وبعض القضاة وقد لاحظت بدهشة ان اغلبهم كان فى مبدأ امره محاميا — يرفضون ادخال اى تعديل على رول الجلسة اكراما للمحامين . على يمين القاضى فوق المنصة تل مرتفع مائل كبرج بيزا من الملفات بين البدين والنحيف ..

— من فضلك نمرة ٦٥ ..

— مد القاضى يده وسط التل وأخرج الملف ..

— من فضلك نمرة ٧٧

— من فضلك نمرة ١٤٤

ولما فرغ الحاج المحامين عاد الى ترتيب الرول ، ولكن برج بيزا كان قد اختلت بعض ادواره — دون أن ينتبه القاضى — واصبح سكان البدروم فى السطح وسكان السطح فى البدروم

— القضية اللى بعديها نمرة ١٩

وتناول القاضى اول ملف (ربنا يهون) . وزعق الحاجب بصوته الرنان كأنه ينادى على بلح أمهات لا تين ولا عنب زيك ..

— عثمان ابوسريع ! .. عثمان ابوسريع ..

قفزت عين القاضى بين الاوراق خطفالايبالى حتى وقفت عند وصف التهمة وذكر المادة الواجب تطبيقها .. تهمة احراز حشيش ..

— ايه قولك فى التهمة ؟

عثمان ابوسريع خائف ، مضطرب كالفار فى مصيدة ، يبدأ يتلعثم من قبل أن يتكلم :

ـ ياحضرة القاضي ربنا يخليك ، انا كنت طالع الصبح بدري أصلي الفجر حاضر وقدام الجامع لقيت وزة قلت دي لازم تايهة يبقى ثواب لو مسكتها عبال مايبـــان صاحبها ..

قاطعه القاضي بغضب وحده قائلا :

ـ مش ح تبطل تخريف الحشاشين ده ؟ هو لولا تهيأ لك انك شفت وزة كان عرف البوليس يمسكك ؟ حبس ٣ شهور .. غيره .. القضيه اللى بعدها .

بعد ساعتين أو أكثر ، حين قال القاضي وقـد هد التعب جهده وصوته : القضية اللى بعـــدها .. ونادى الحاجب بصوت أكثر رنينا ، فقد خلت الردهة من الزحام الشديد ..

ـ داود محمد مبارك ..

ودخل رجل هادىء النفس ثابت الجنان على شفتيه ابتسامة ساخرة ..

وجرت عين القاضي فى الملف كعادتها وسأله دون أن يرفع وجهه :

ـ أيه قولتَ فى التهمة .. سرقت الوزة ؟

كان القاضي قد نسى القضية الأولى

فقال له داود وهو فخور بأن يصحح للقاضي خطأه ، ولو على حسابه :

ـ ياسعادة البيه ، انا المتهم فى الحشيش وقضية سرقة الوزة هى اللى حكمت فيها قبل كده .. معـــاذ الله اكون حرامي ، واكون دني أسرق وزة .. ليه مش لاقى آكل ، انا صحيح مضبوط بالحشيش وقســـمتى

كده .. لكن بشرفى لما ضطونى الدور ده ماكانش معايا حشيش ، الجاويش هو اللى حطهولى فى جيبى ..

قال القاضى مقاطعا :

ــ بس .. بس .. هى حدوته

وقام من فوره ليقدم تقريرا يلتمس فيه الغاء الحكم الذى اصدره خطا .. بسبب الحاح المحامين وارتفاع برج بيزا ..

***

كسبت اول جناية وخسرت اول جنحة

لم يكن محرما على المحامين تحت التمرين أمثالى فى اول عهدي بالمحاماة المرافعة أمام محكمة الجنايات اذا كانوا يتكلمون نيابة عن محام مقيد امامها ، وقد وجدتنى ذات يوم مع الاستاذ الأول ــ صاحب « أناطول فرانس » . فى محكمة الجنايات بالاسكندرية ، منعقدة برئاسة المرحوم طلعت باشا . وكنت أحب هذا الرجل وأتتبع باعجاب شديد أسلوبه الناصع الذى ينم عندى عن ذهن صاف ونفس سمحة (وقد شغفت فيما بعد بالمقارنة بين هذا الاسلوب وأسلوب عبد العزيز فهمى ، تميز هذا الأخير بالمنطق العلمى الجاف والبراعة فى اثارة الاعتراضات ــ أحيانا مفتعلة ــ لاظهار براعة اشد فى الرد عليها وتفنيدها) . ونودى على قضية ، المتهم فيها أعلن عن فقره وعجزه عن توكيل محام له فندبت المحكمة له محاميا للدفاع عنه بالمجان ، وكان المحامون يضيقون بهذا التكليف كل الضيق ، ولا يخصون هذه القضايا بكبير

عناية .. فلاعجب أن غاب هذا المحامى ، وزاغ، ولعل طلعت باشا كان قد قرأ القضية وعرف أن التهمة واضحة البطلان لا تحتاج الى « لت » أو « عجن » ، فود أن يفرغ منها دون تأجيل ، وطلب الى الاستاذ أن يتطوع بتصفح الملف والدفاع عن المتهم .. وظن الاستاذ انها ورطة ، فهدته حيلته أن يورط فيها تلميذه فدفع الى بالملف وقال لى : « هذه فرصة فريدة تسنح لك بالمرافعة أمام محكمة الجنايات ، هنيئا لك يابختك » .

كنت أدافع عن رجل لا أعرفه ولم أقابله ولا أدرى هل هو خفيف الدم أم ثقيله ..

نظرت الى قفص الاتهام ، أتأمل شابا طويل القامة مفتول الذراعين ، ضيق الصدر أسمر الجبهة ، نظرته مكشوفة غير متهيبة ورأيته بدوره — حين عرف أننى ساتولى الدفاع عنه — يتأملنى بنظرة مبتسمة ليس فيها خوف أو غضب ، فرددت أبتسامته بابتسامة أرشق منها كأننا من أعز الاصدقاء ، قرأت الملف على عجل فاذا بى أتبين ان هذا الشاب القوى عرض للخطر ذات يوم حياة سكان حى بأكمله ، كأنه أحقر من الميكروباس ، كالطاعون أو الكوليرا .. كان يشتغل صبى فرن ووقعت الشحناء بينه وبين المعلمة ، فلما انتهى ذات يوم عجن العجين وتهيأ العمال لقطعه أرغفة وخبزه رش خلسة على العجين كمية من مسحوق التوتيا الخليلى ، وانصرف لا يهمه أن يهلك الاف من الناس الغلابة حين يأكلون هـذه الارغفـة المسمومة .

ونوديت المعلمة ، فدخلت امرأة نصف لها وجه فتاة، وجسد برميل وصوت القنوع المحتج بأنه لم يأثم اذا طلب

من الحياة ما تعطيه لأمثاله ، لا يطمع فى زيادة فمن العدل الا يكون نقصان .

علمنامن شهادتها أنها ورثت الفرن عن زوجها المرحوم وروت لنا القصة فى كلمة ونصف ، فهى سـيدة عملية عاقلة ، ثم التفتت الى قفص الاتهام فرأيت نظرتها ترق رقة الأم لطفلها وقالت :

ـ انا مسامحاه .. المسامح كريم .. وعاوزاه يرجع لشغله ..

نظر الى طلعت باشا بابتسامة حلوة ملؤها التشجيع والسرور ، يعد نفسه للتسلى بمرافعتى ، يتساءل فى مرح ماذا عساى أن اقول .

فكت هذه الابتسامة عقـدة لسانى ووثبت روحى اليه . اننى أومن بأن الفكرة مخلوق حى ينتقل بوسيلة لا نعرفها من راس الى راس ، ولو فرقت بينهما أبعد المسافات ، اننى واثق أن فكرته عن القضـية دخلت راسى .

قلت كلاما لم يزد عن دقيقة واحدة ، وجلسـت ، وانتهت أول مرافعة لى أمام محكمة الجنايات . « ياسيدى الرئيس ياحضرات المستشارين »

هذه الجملة وحدها هى نصف المرافعة .

لون المادة لا يخفى عن العيون .. ليست هناك نيـة قتل .. بل مجرد اتلاف أشياء منقولة وهى مخالفة ، لا جناية . أطالب بالبراءة .

احتفظ طلعت باشا بابتسامته ، وخيل الى انه أحس بشىء من خيبة الأمل لأننى لم « أهجص » . فيضـحك

على ، ونظر الى بسرور وحنو وهز راسه ، ثم أدار وجهه يمنة ويسرة — لا للتشاور بل لمجرد تقابل النظرات مع زميليه — ونطق من فوره الحكم بالبراءة .

من سماحة محكمة الجنايات وهى أكبر محكمة الا تحكم فى المخالفات ولو كانت ثابتة . فهذا لا يليق بها فاذا كنت متهما فى مخالفة ، فخير لك أن تخطىء النيابة فى حقك وتحيلك على محكمة الجنايات متهما فى جناية باطلة .

لما خرجت من المحكمة رايت عن بعد المعلمة والفتى يسيران جنبا لجنب وهو محنى الراس الى الارض وفى يده سيجارة وهى — لانها تمشى تهتز على الجنبين — تصدم كتفها فى كل خطوة كتفه صدمة خفيفة . انشرح قلبى لهذه الذبذبة اللذيذة وشعرت أن الصلح قد عقد ، وان استئناف العلاقات مضمون ولو الى حين .

ومن العجيب اننى انتظرت فى اليوم التالى أن يزورنى هذا الفتى ليشكرنى ولكنه لم يفعل .. لم أره قط ومع ذلك عشت أياما لا أبدأ الأكل من رغيف الا اذا فتحته أولا ودققت النظر فيه ، فانى لا أعرف عدد معلمات الافران الارامل فى الاسكندرية .

***

نسيت مهنة هذا العامل الفقير الغلبان ، وانما لا أزال اذكر راسه المكور ووجهه المرسوم بالبرجل وعينيه المستديرتين . لا عجب ان وهبه الله — فى شكل علامة استفهام — اذنين كبيرتين نافرتين كمقبضى ابريق شاى ، يخال لك انك تستطيع أن تمسكه من احدى هاتين

الاذنين ـ فهو قصير نحيف له يد عظـــامها قراقيش ـ وترفعه عن الأرض فيرتفع ـ كالعلقة ـ ممك ويدور جسده دون أن يهز ساقيه .. لأنه فارغ وكلامه فارغ ، ومـــع ذلك لا ينقطع عن التحدث عن نكبته .

يجد لذة كبرى فى أن يروى للناس جميعـــــا كيف اكتشف ان زوجته تخونه .. مالك والزواج يابطـــــل الابطال ؟ المصيبة ان بعض الناس يظنون أن الزواج ستر شرعى دائم ـ لافضح علنى عاجل لضعفهم الجنسى .. وما الدليل على الخيانة ؟

لم يقل انه شك فى مسلك زوجته ، او ان الفار لعب فى عبه ؛ أو انه ارتاب من قبل فى غريم معين واحـــكم مراقبتهما فضبطهما متلبسين « فرقعهما » علقة ســخنة او سلمهما للمحاكمة والفضيحة بجلاجل ، بل نكبتـــه الكبرى التى يضرب من اجلها كفا بكف انه كان يعيش فى غفلة .

احتاج ذات يوم الى « رخصته » التى يصـــونها فى غلاف من الجلد ، فعاد مسرعا الى البيت ، والبيت حجرة معتمة فى بدرون رطب ، ومع ذلك يزحمها سرير عال من الحديد الأسود تعمم قوائمه ـ والظـــاهر أن الزوجة لا تخشى البوليس ـ اربعة عساكر مبعجرة صفر مزنجرة .. بحث عن الرخصة فى سلقط ملقط لم يجدها . وأخيرا طوى مرتبة السرير ، فاذا به يجد تحتها رخصة من نوع آخر .. كرت بوستال لصورة رجل فتوة مبروم الشارب يجلس على مقعده منفوش نافخا صدره ووراءه تقف فتاة كل جمالها من رونق الصبا تضع يدها فوق كتف الاسد، وتعدل ضفيرتها من وراء الى صدرها لتلمس ثديها .

عرفها أولا من ثوبها الذى أقامت لشرائه القيامة .. انها زوجته بعينها . دقق النظر فى الرجل فعرف بعـــد تلبث جاره الجزار الفـاتح دكانه أمام باب البيت . وممـا اطال تأمله انه لم يره قط فى هذا الثوب غير الملطخ بالدم .. انه يحتجزه للمواسم والاعياد والفنطزية .

لا ادرى ما الذى حدث بعد ذلك ؟ .. ولكن الشيء الذى لا ريب فيه انه لم يشتك للبوليس ، ومضى يروى نكبته لعموم الناس .. حتى فوجيء ذات يوم باعلان من زوجته تطالبه امام المحكمة الشرعية (هل لها عين فتمثل امام قاضي الشريعة ؟) بدفع نفقة مسكن وملبس وطعـام واكدت انها حبلى ـ فوق البيعة ـ عندئذ ثار الرجـل لشرفه . لم يبق الا أن تبتز هذه الفاجرة ماله ! .. فى اغلب قضايا الاعراض تتحـول سريعا الـكرامة المثلومة الى نزاع مالى .. كأن الاستغفال فى المال اشد وقعـا على النفس .

نصحه سماسرة القضايا بأن لديهم حيلة تفســد حيلتها وفجرها . ماعليه الا أن يرفع دعوى جنحـة مباشرة لاثبات جريمة الزنا ، فان الحكم بالادانة يسقط النفقة وقد يسقط الولد أيضا .

وجرجروه الى المكتب ودخل علينا مشهرا الصـورة يرفع بها ذراعه ، فتخاطفتها الأيدى حتى الكتبةوالفراشين وأمنا نحن على قول السماسرة ورفعنا الدعوى باسمه .

تعال نحتكم للمنطق .. ان خـــروج الزوجة مع عشيقها وذهابها الى المصور نتيجة لخلوة داعرة من قبـل لاشك فى ذلك . ان هذه الصورة هى عادة تســجيل لشيء حدث . ولكن قانون العقوبات لا يعترف ـ والحمد

لله ـ بهذا المنطق .. انه يتطلب لاثبات جريمة الزنا شروطا قاسية .. أن تضبط متلبسا ، أو أن تضبط لك خطابات بخط يدك فيها ذكر صريح للعلاقة الآثمة، او ان تعترف طواعية واختيارا .

واذ كانت الدعوى خاسرة فقد بعثني الاستاذ للمرافعة فيها .. فقلت في ختامها : اذا سمحنا لقانون العقوبات ـ وهو مستمد من منطق الناس ـ أن يعبث كما يشاء ويهوى بهذا المنطق فانها مصيبة كبيرة لا نعرف عند أي حد تقف .

لا مصيبة ولا غيرها .. كان تعليق القاضي على هذه الفلسفة ان حكم من فوره بالبراءة ، وخسرت أول جنحة ترافعت فيها . وخرج الزوج يقول لي :

ـ يخلصك كده ؟

لم افهم هل يشير الى زوجته ام الى القاضى . غير انه ـ لطيبة قلبه ـ لم يوجه الى كلمة لوم واحدة ، فاسرعت أبتعد عنه وانا أقول له :

ـ لا تسكن مستقبلا أمام جزار !

***

ليس في ذهني عن الاسكندرية ، ودمنهور ذكرى قضية كبيرة . لو تركت لشأني لبقيت حيث كنت وان لم أفز بمجد او بشهرة أو بمال عريض . فان الخروج من مسالك أصعب بكثير من الدخول فيه .. ثم انني أكون أضيق صدرا بالعزال والتبديل والتغيير ، ورحم الله المتنبي صاحب البيت الخالد :

خلقت ألوفا لو رجعت الى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

لم يمض على اشتغالي بالمحاماة أكثر من ثمانية شهور حتى بدأ القلق على مستقبلي يساور أهلي ، وبدا تراب الميري يملأ خياشيمهم ، فتعرضت لضغط شديد خوفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول ـ من اجل أن ارضى بوظيفة في الحكومة . لم يجدوا لي ـ بعد الوساطات والشفاعات ـ الا وظيفة معاون ادارة . وكانت وزارة الداخلية قد بدأت منذ عهد غير بعيد تطعم وظائف المديرين بالقضاة والمستشارين ، فأدوا في عملهم الجديد اجل الخدمات ، ورفعوا مكانة المنصب ومستواه (وهو الآن يعاني من حرمانه من هذا التطعيم) .. كما رغبت حملة الليسانس ـ وقد أخذ عددهم يزداد ـ للعمل في السلك الاداري بأنها سوف تضعهم في درجة يساوي مرتبها مرتب معاون النيابة . والناس تردد مثلا غريبا يقول « غضب الله على اثنين محضر محكمة ومعاون ادارة» وأن هذه الوظيفة أقل كرامة من وظيفة النيابة ، فلم أقبل المنصب الا صاغرا مستسلما . وقد عانيت فيه مشقة كبرى ، وامتحنت امتحانا عسيرا عرفت فيه الغم والهم والحسرة والألم .

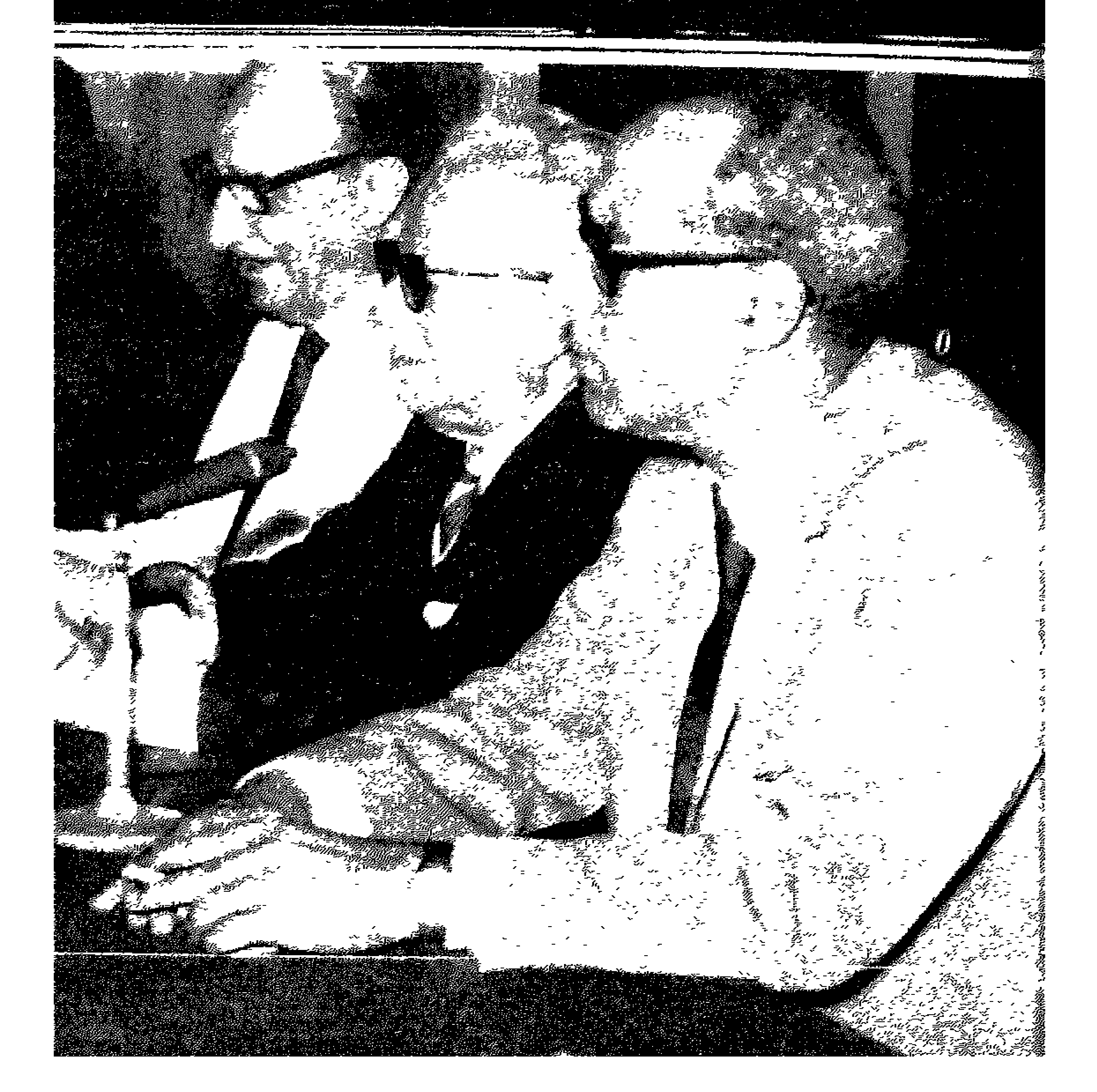
ومع ذلك كان له أكبر الفضل في أن أعرف بلادي واهلها وأخالط الفلاحين عن قرب . وأعيش في الحقول بين نباتها وحيوانها ، وآكل بصلها وسريسها ، بل انني وجدت فيه سعادتي عندما أصبح الحمار يزاملني طول النهار .. نعم وجدت سعادتي مع الحمير . تسلمت في أول يناير سنة ١٩٢٧ عملي معاونا للادارة في مركز منفلوط .. فالى اللقاء هناك . *

---

*١ «الجمهورية» : ١ / ٥ /١٩٥٩ ، ص ٥

الباب الثالث

وجدت سعادتى .. مع الحمير !



حين نزلت الصعيد لم افهم لأول وهلة قول محدثي عن رجل من الأعيان انه « حمار » ـ بميم مشـــددة . ظننت والكلام عن غائب قد تحول كالعادة من الاستفتاح بالمدح الى التثنية بالذم والسب ، فلما تلجلجت في الرد أردف يقول عن صاحبه : انه أكبر مالك للحمير في المركز وأن ربحه واسع مضمون .

ادركت ان كلمة « حمار » هي عندهم ترجمة لكلمة مليونير .. وأنها عنوان صناعة من أهم الصـــناعات ، احفادها في الوقت الحاضر شركات النقل باللوريات .

لم تكن هذه الصناعة تعنى بنقل الناس ، فالفـلاح يمشي وان طلب مطية ركب حماره أو حمار جار ، له ظهره كله أو نصفه الخلفي ولا يركب بالأجر . أما الأفندية الموظفون فمن الضرائب المفروضة على العمدة أن يوفر لهم حمارا سيره اما رخاء كبساط الريح واما عـــذاب تفك قلقلته كل المفاصل .. حسب المقام وطمع العمـدة في راكبه ، أو يشتركون هم والغرباء في ركوب عظـــام حمارين او ثلاثة تقف بالمحطة ويرتزق منها رجل فقير، يزيد دخله اذا تكفل أيضا بتوصيل الخطابات والبرقيات الى القرى ويسمى حينئذ بالطواف .

وانما تعنى هذه الصناعة بنقل محاصيل الحبوب .

فهذه الأكوام المكدسة المتناثرة فى جنبات الوادى بين الجبلين من القمح والذرة والفول والشعير .. لا وسيلة لنقلها الا بأكياس على ظهر الحمار ، حتى لنحسب ان الحمار قد مد من عموده الفقرى شريطا لسكة حديدية تجوس خلال القرى وتعبر المصارف والترع والوهاد بلا جسور ، من ينقلها غيره ؟

ان جسمه مفصل (على الضيق) فلا يضيع عند حمل الكيس فضل ، ظهره فى مستوى يد الانسان ، خفة وزنه تعينه على هبوط الأخاديد وتساق جوانبها ، له حافر دقيق ـ اذا قارنته بخف الجمل أو حافر الجاموسة (البرطش) ـ يتشمم ويبصر المطبات ويختار من بينهما مسلكا ، فكانما يمت للماعز بنسب .

يمشى على السن ويستند الى شظية حجر ، حين تجف الأرض وتغطيها شبكة من الشقوق ترسم جزائر صغيرة فى حجم الكف ينخفض سطحها ويتكسر اذا ديست .. أنظر الى الحمار حينئذ كيف يتحسس طريقه ، يمرق من المآزق ويثبت عند المزالق ، قوائمه طوع أمره كالخيزران . له جلد على الجرى ، ويحفظ الطريق ، ينتظم فى القافلة لا يربكها . لا يعرف الجموح ولا يقفز خوفا من خياله كالحصان الاسترالى الذى عرفته دورية المركز . غلبان يبلع الاهانات ، بخس الثمن نادر الأمراض ، لا تنتفخ بطنه على ندى البرسيم كما تحدث للجاموس . لا يجر صاحبه الى الترعة ، بل اذا طلب الاستحمام سار وحده ليتمرغ فى التراب .

عاشرت الحمار سنتين ، أركبه من مطلع الشمس لغروبها وكنت أول العهد به أطالب مع البردعة بالجام وركاب

اوهم نفسى اننى من الفرسان ، والحقيقة أننى أتعـلم الركوب ، اطلب اللجام لظنى اننى اتحكم به فى الحمـار فكان تحكمه فى اكثر ، والركاب لأمنع سماجة تدلدل القدمين على الجانبين ، واتقى الانزلاق عن يمين أو شمال. ولكن كيف افعل ؟

لابد لى ان احمل مظلة والا انسلقت فى الشمس ، ومنشة من ليف النخيل وآلا انفلت منى عيار شـفتى ولسانى وخدى وحاجبى ورمشى ومفصل رقبتى،ان أردت — ويداى مشغولتان باللجام والمظلة — أن أطرد ذبابا لحوحا كالشحاذين برشق وجهى ويحط عليه ليتخـذ منه ساحة للعبة (الاستفماية) . أما العصا فـوزرها تركته لصبى ليجرى ورائى .. بعد قليل تنـازلت عن الركاب كبقية الناس .

نخرج من المدينة ونسير قليلا على جسر (الابراهيمية) ثم نعرج الى سطح صليبة حوض ، وهى تل من تراب يتلوى وسط الغيطان كالثعبان ، يكون الجبل امامنـا تارة ، أو عن يميننا او يسارنا تارة أخرى ، وكان رأسى يصيبه الدوار أول الأمر . من حوالينا غيطان متشـابهة تمتد الى مرمى البصر ، كان صوتا خفيا مرهوبا أمر الدنيا بالصمت ، حينئذ كنت أخلو الى صاحبى . لم أر كالحمار حيوانا تحس انه أدرك انه اسقط فى يده ، أنه لم يقبل قدره عن عمى وغفلة أو تدليس عليه ، بل عن بصيرة وفهم بعد أن وازن بين حيلته وقدرة ظالمة ، وقاده ذكاؤه العملى الى الاقتناع بأن كل أمل قد مات ، وان لا فائدة ترجى من الثورة أو اللجاجة أو العناد ، فوضع ارادته وغرامه وبهجته ومرحه وحبه للعب والمعابثة فى

حزن مكتوم فى قلبه ، واحنى راسه واذنيه وسبل ضهره ، واستسلم بلا قيد ولا شرط .

قال لنفسه : « فلتحسبن أن الذى يعيش فى جلدك هو حمار غيرك ، ولتبق لى روحى لا يعلم بسرها الا خالقى » ... للبقرة عين غارقة فى أحلام لذيذة ، وللجمل عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنما يخشى ان تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء ، وللحصان عين تنم عن الخيلاء والنبل والذكاء ، تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة ، وللتيس عين فيها العناد كله واضمار الخبث والمؤامرات ، وللجاموسة عين منطفئة لا تنبعث منها حياة أو ارادة الا وهى أم ترضع طفلها فينعقد سباتها على الحنان . لم أر جاموسة تنطق بمعنى الا مرة واحدة لا ازال اذكرها ، كانت تسير تبرطش فى الطريق وتخلف عنها وليدها . فوقفت وأدارت رأسها الى الخلف ونادته اليها بخوار غليظ ، ساحدثك فيما بعد عن جاموسة تحتضر وتنظر الى صاحبها وفى يده سكين ، أما الحمار فان عينه ذابلة حزينة ، تكاد تترقرق فيها الدموع ... بل يخيل الى فى بعض الاحيان انهما (معصمه) كعيون الاطفال بعد بكاء ، اهذا هو سر نهيقه؟ ليس فى صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقة والتفجع والمرارة ، انها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد للناس فى نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تذوب كأنها لم تكن .

احس بمكنون طبعه حين اراه وحده من سائر الحيوان يعلن عن شبقه بلا حياء ، ويلاحق الانثى فى الطريق علنا بارادته ، لا ينتظر حتى يساق ذلولا الى موعد غرام مرتب له من قبل .

. ثم هو وحده يفعل هذه الفعلة .. اذا مر بنا جمل محمل بالبرسيم لا تثنيه قوة عن أن يطعنه بخطمه ، وقد كشر عن أسنانه الغلاظ ونهشن منه نهشة يتمثل فيهـــا الغيظ والفوز بعد لاى باستخلاص حق مهضوم من يد غاشم سافل شحيح . أنه يعرف صاحبه ولكنه يتجاهله، المفاوضات بينهما مقطوعة والود مفقود . لا يريد الا ان يفرغ من امتهانه ليخلو الى نفسه ، ناعسا مطأطىء الرأس مسكينا تحت سقيفة فى مدخل السوق ، اذا ربت على ظهره ورقبته احسست كم هو طيب وديع وكم هو محتمل للذله بصبر واستسلام .

وراء منزل خرابة لها سور خشبى غير مرتفع يطلق فيها احد جيرانى حماره عند الغروب ، وكنت الحظ كل ليلة حمارا ثانيا ياتى من بيت فى الطـرف الآخر يســير الهوينى كانه يتنزه ، ثم يقف جنب زميله وبعد معابثة خفيفة بالاسنان يمد الاثنان رأسيهما خارج الحاجز كما يفعل المطل من النوافذ ، ويلبثان هكذا برهة ينظـــران للطريق والمارة ثم يمضى كل منهما الى حاصله .

حمار الأجرة

على المحطة حماران للايجار ، غششت فى أول الأمر فاخترت أكبرهما جثة ، حسبته اقوى على الجرى من زميله القزم الأغبر ، هو أبيض اللون ، على ساقيه وظهره لطخ من الحناء ، أذناه متدليتان على صدغيه كمقاصيص بنت البلد ، ولكنه لم يكد ينفلت من مرمى بصر المعلم بعد

ان ودعه بطرقعة من لسانه على سقف حلقه « تشك » ، نبها تحذير وتنبيه لتقديم حساب عند العودة ، حتى نسى الدنيا ومشوارى وتهديد المعلم ، وأبى الا أن يسير كما يشاء هو ، كأنما يغرز قوائمه فى عجين ، عظمتا كتفه ، فهو موتور من سلندرين ـ تعلو واحدة وتهبط اخرى وأنا اتأرجح فوقه .. كل ضربة عصا وراءها خطوة واحدة سريعة ثم تعود ريمة لعادتها القديمة ، استنفدت أنا والصبى كل الفاظ واصوات الحث على المشى حتى جف ريقنا ، بلا فائدة . أسلمت أمرى لله واعتمدت على يدى أضغط بها فوق البردعة لأخفف اهتزازى .

واصبحت أتجنب هذا الحمار وارفضه، لأننى جربت بعد ذلك ـ وليس لى خيار فهما حماران لا ثالث لهما ـ الحمار القزم الأغبر الذى احتقرته أول يوم ، فوجدته ذلولا يقطع الأرض فى حركة لا أدرى لماذا تذكرنى بيد غسالة عفية تفردها وتطبقها على القماش فى الطشت فى حركة متشابهة . اياك ان تستهتر بالأقزام فى الحمير والناس ..

وذات يوم خرجت لأمر عاجل فلم أجد الا الحمار الأبيض . ياللوقعة السوداء .. أين صاحبنا الأغبر ؟ انه خرج فى مشوار ولن يعود الا بعد الظهر ، ما العمل ؟ رضيت بقسمتى وركبته وأطلق المعلم ورائى صبيا جديدا لم أكن أعرفه ، دهشت حين وجدت الحمار يقفز لكل زقة من العصا خطوتين بدلا من واحدة . لم أفطن أول الأمر للسبب ، ولكن شيئا فى قلبى انزلنى عن الحمار وتناولت العصا فاذا بى أجد ان هذا الصبى قد ثبت فيها مسمارا حادا ليغرزه فى لحم الحمار المتعب ، ثارت نفسى لهذه القسوة الحمقاء الغاشمة الا اننى عجبت وأنا أقارن

بين فعل الذل فى الحمار : لا يزيد على مقاومة سلبية وفعلة فى هذا الصبى ، انه يخاف أن يضربه المعلم اذا تأخر عن موعده المرسوم ، وكان خيرا له أن يسير الحمار هذه الخطوة البطيئة لئلا يلهث وراءه ويتصبب عرقا وله فى شاهد يستغفرله ، ولكن الذل جعله يتطوع بالشر والحاق الأذى بالغير ولو اضرارا بنفسه ، وهكذا يصبح دائما الصبى الأذل أشد قسوة من المعلم الظالم .

اخذت بعد ذلك انتبه لجروح الحمير تحت البردعة وعلى السيقان ، واعرف من عذاب الحمير هذه الذبابة اللعينة التى تعشعش فى منخره فتخرجه عن حلمه ويكاد يجن ، والحمد لله أن ليس لذنب الحمار اذا قطع منفعة، والا تعرض لما يحدث للخيول فى الاسطبلات من اغارة اللصوص عليها بالليل يقطعون ذيولها بالموسى لينتفعوا بشعرها ، ولكن الحمار يعرف بالليل فى بعض القرى أعتداء أخس على يد بعض شبان مرضى تختلط فى قلوبهم الحماقة والبهيمية والكبت وحب العبث والاستهتار والمباهاة بالمخاطرة والجدعنة .

حرت كثيرا فى أمر هؤلاء الصبيان لا يزيد عمر الواحد على السابعة أو الثامنة ، يجرى ورائى طول النهار ، لقلفة الصليبة قد تعينه على اختصار بعض الطريق ، فما نكاد فى اتجاهنا غربا نصل الى منعرج يسير بنا جنوبا شوطا طويلا ليرتد من جديد شمالا ألى مكان لم يقربنا نحو الغرب الا مسافة قصيرة حتى يتركنى الصبى بلا استئذان وأراه يتدحرج (كالبلية) على الجسر ويشق الغيطان ويغيب عنى شبحه ثم القاه جالسا على الأرض يترصدنى حيث تنتهى هذه اللفة الفارغة ليستانف الجرى ورائى ، والى اللفة القادمة فيها فرج .

اتحدث اليه طول الطريق . نهم للمعرفة يتخفى تحت وهم التطوع كرما بتسليته لينسى بلاءه . ولعله يلعننى لتنشيف ريقه بالكلام أكثر مما هو ناشف من الجرى واللهثان . اغلب كلامى غير مفهوم له ، ومعظم ردوده مقتضبة لا استخلص منهـا ما اريده الا بعـد الحـاح واستفسار . اذكر أننى هفوت مرة وقدمت للصبى قطعة من الشيكولاتة ولكنه رفضها بشدة ، حسبته أول الأمر يتأبى ، فاذا بى لشدة دهشتى وفزعى أجده يقول :

ـ حسك تكون حاطط لى فيها حاجة ..

ياخبر ابيض .. كنت أظن أننى اكتسبته كصديق فاذا به يتهمنى بحيازة المخدرات أو لعله لا يستبعد على هتك الأعراض .

وفى قلب الفلاح ريبة متأصلة من الغرباء ، وريبة اشد ـ فى ذلك العهد الأغبر قبل الثورة ـ اذا كان الغريب من طبقة الافندية الموظفين ـ سيأتى كلام عن هذا فيما بعد . أعود بالذاكرة الى القاهرة واسترجع صورة هذا القروى عند محطة الترام ، يتقدم الى بحذر وحياء وأدب يسألنى : هل يمر من هنا الترام الذاهب الى « الامام » ؟ فاجبته بكلام لا الويه بل اضمنه كل ما فى قلبى من حنو :

ـ نعم ، يمر من هنا ، وقف مكانك بجانبى سأرشدك اليه حين يأتى . يتخذ جسمه هيئة من اطمأن وسكن وانفرجت أساريره وبلع ريقه . ولكنه كاذب ومخادع ، بعد قليل يشيح عنى بوجهه ثم ينسحب ، جسمه متمسكن مضعضع كأنما يحمل أثقال الأرض كلها ، ويبتعد خطوتين ، ويختار رجلا آخر ، أسمعه يسأل بصوت خفيض حتى لا يبلغنى :

ـ هل الترام الذاهب الى « الامام » يمر من هنا ؟

أرجو أن يصدقني القارىء اذا قلت له انه لا يكتفى بشاهدين بل يذهب لثالث . كنت فى ذلك العهد اسأل نفسي : ما معنى هذه الظاهرة وما تفسيرها ؟ انها شيء مخيف .

ويأتى الترام رقم ١٣ فلا يستطيع الرجل ركوبه لارتباكه بين الصاعدين والنازلين ولارتباكه الأشد بين الريب والشكوك .

هــذا الصبى الذى يلاحقنى زحيرة ، لو ســمحت نفسى الشحيحة لاستأجرت له حمارا حتى تنجو أذنى من عذابها ، ولكن هيهات .. لا لأننى أخشى اتهامى بالشذوذ والحمق ، بل لاحساسى بأن فعلتى ستكون بمثابة جنيه واضح التزييف يعرض على اناس يتعاملون بالملاليم وانه كلام فارغ وبذخ .. لو زرعت فى الأرض الجدباء عود وردة لاجتثته من فورها يد الاملاق .. انه قذى للعين وخلل يزعزع الطمائينة لعرف مالوف . وقد غلبنى الخجل ذات يوم فأردفت الصبى ورائي ـ قسوت على الحمار لأرحمه ـ فما كدت أدخل القهوة بعد عودتى عند المســاء حتى وجدت الخبر قد ذاع فى المركز كله يتبادله الناس كأنه نكتة ، علا الضحك والقهقهة ، واستقبلنى المعــارف والغرباء بابتسامة ساخرة . فكانت توبة نصــوحا ، والغريب أننى لم ألبث طويلا حتى ألفت أذنى ســماع الزحير ، ولم أعد أبالى به . وصحب هذا التحول فى طبعي جرى لسانى لأول مرة فى حياتى بأقذع الفــاظ الفحش والسباب كما سترى فيما بعد .

الحمير درجات

والحمار جعله الانسان على درجات ، أدناها حمار السبخ ، لا يطلب منه أن يجرى ، بل له ـ ان قدر ـ ان يمشي كما يشاء ، فيمشي يربط عظامه بعضها الى بعض خيط واه ، مشية أجرب يحك بيد خفية قروحا بعيدة على جسده لا يبلغها الا بعد مشقة وتلو ، يجند لهذه السخرة حمير أشلها الضعف أو الكبر أو السقم ؛ ودعت الدنيا لانها لا تعيش الا على هامشها .. منهوكة القوى عاجزة حتى عن الأنين ، لا ينطق منها حمار بمعنى واحد يدل على انه حي .. في بعض الاحيان يضع الصبي الفلاح وهو يسير بجانب الحمار ذراعه على كفله ، أظن ان هذه اللمسة ـ رغم ثقلها ـ هي صلته الوحيدة بعالم الشعور ، لا يجد في غيرها الفا أو شفاء من الوحدة والضياع .

والدرجة الثانية هي حمير الأجرة بالمحطة ، لا تعرف الراحة ، تعتصر قواها الى آخر قطرة كما يستنزف دم الذبيحة ، يقاس طعامها بالدرهم بمقدار ما تبذله من جهد لا بمقدار جوعها ، هي أكثر الحمير اصابة بالجروح وبخاصة على سلسلة الظهر تحت البردعة ، فلا تشفع لها ، كل علاجها أن تكتم ـ حتى لا تتبين لأعين الغرباء ـ بدهان من الحناء أو الطفل ، هيهات أن تخفي احمرار لهاة الجرح . في حياتها معالم واضحة الصورة ، أولها (المعلم) وهي تعرفه وترهبه وتكرهه وتذل بين يديه

وتفهم كلامه ، وان زعمت أنها تجعل أذنا من طين وأذنا من عجين ، وثانى العالم (صبى المعلم) يسترد معه الحمار بعض ارادته فان اذاه لا يتضمن الارهاب بل القسوة وحدها ، فلكل هجوم من الصبى دفاع معد من الحمار ، وقد رأيت الحمار ينتصر كثيرا على الصبى ويرغمه على الرضا بجهده المبذول لا يطالبه بمزيد هو قادر عليه .

وثالث العالم هو الطريق ، فانه ما يكاد يوضع فى أوله حتى يعلم الى اين ينتهى ، وتحس من مشيته وحدها ما اذا كان المشوار طويلا أو قصيرا .

لذلك كان حمار المحطة أكثر الحمير مكرا ، هو ابن سوق محنك بالتجارب ، له طبع ينفرد به عن غيره ، ويحدث كثيرا أن يطلق المعلم على الحمار اسما — لا أدرى لماذا كان اسم (سماره) أحب الأسماء اليهم — وانى أجزم عن خبرة — وان حسبتنى مخرفا — ان الحمار يعرف أنه صاحب الاسم ، وأنه يجد فيه — كما يجد فى طبعه ونوع مكره — مقومات استقلاله عن غيره .

ثم يأتى بعد ذلك حمار الفلاح .. ركوبته الخاصة ، وقد وجدته — رغم أنه يكون احيانا ضخم الجثة — طيب القلب وديعا فيه كثير من عباطة السذج لأنه يعيش — وان فى شظف — بين أحضان أسرة كواحد من أفرادها ، واذا خرج عن دائرته بدا عليه شىء من الحيرة واحتاج الى شىء من الوقت ليعرف ماذا يراد به والى أين يقاد . انه لا يحتاج من صاحبه الى كثير من الزجر والحث ، بل يبذل له — طواعية — غاية جهده ، وهو قدر حددته العادة ومألوف طبع صاحبه وصلح بينهما منذ قديم . وهذا سر اضطرابه أول الأمر اذا ركبه غريب .

على رأس القائمة حمير تعد من الطبقة الارستقراطية، لعلها أوشكت الآن على الانقراض فى الريف ، ولكننى لحقت فى ذلك العهد أواخر سلالتها ، يهيم بعض الأعيان اصحاب الأطيان من أجل راحته وأشباعا لزهوه وتدليلا على مكانته بأن يكون له حمار فاره قوى ، منتصب الرقبة مرفوع الراس ، راقص الخطوة ، أكحل العينين ، له بردعة من جلد ثمين أو من قطيفة لها زينة كثيرة ، ولجام وركايب ، ويضن به الا على كبار الحكام ، أكله موفور وتعبه قليل ، اذا حمل صاحبه الى المدينة أو انتظره على المحطة رمقته الأبصار ، وان سار به الى الغيط صدرت من فوقه الأوامر من تحت المظلة مؤيدة بعلو المقام .

ينبغى ان أعترف الك بأن هذا الأرستقراطى لم يثر انتباهى اليه كثيرا .. أعلم أنه سعيد بلحمه وشحمه .. والسعادة وان كانت مطلبنا الأسمى الا أنها ـ على خلاف الشقاء ـ قضية واضحة ليس لها ظاهر وباطن ، ان نكشت فيها لم تخرج بسر أو عجيبة ، ومن دواعى الحيرة انها لا تباع الا بثمن واحد .. هو التفاهة ..

مدرسة الحمير

ولكن لا تحسبن ان هذا الحمار الأرستقراطى يولد هكذا ، فانه حينئذ لا يختلف عن بقية أطفال الحمير .. شعرها لا يزال زغبا ناعما ، لها شوشة منفوشة فوق جبهتها ، كأنها حملان كبيرة ، ضخامة الراس اذا قيست

الى البدن علامة هذه الطفولة وكأنها تعدنا بعقل جبار ، وستصحح النسبة عند البلوغ ، حياتها قفز ولهو ولعب .. المفاصل مركبة على صواميل لا تزال لينة فالخطوة فوضى ، ستفسد فيما بعد ما فرط من الحرية وتتخشب ويصبح الظهر لراكبه من العاب العذاب فى لونابارك .. حينئذ ينبغى انقاذ ابن الأكابر من هذا الخطر الداهم ، آن الأوان لارساله للمدرسة لتعلم المشى ، لا المشى الذى يريده هو ، بل المشى الذى يريده له الانسان .

نعم .. وجدت للحمير مدرسة عجيبة يديرها رجل فى احدى القرى اسمه الشيخ شعبان ويجعل منها أكبر مورد لرزقه ..

وهى مدرسة مختلطة ، من تلامذتها الخيول ، التى يطلب أصحابها ان تمشى مشية الرهوان ، وأغنياء الفلاحين مغرمون بهذه المشية غراما شديدا ويرونها ليس مثلها علامة على الأناقة والصبونة ، وهى مشية تحتاج الى تعليم طويل، وتدريب أطول لا يحسنه الا المتخصصون امثال الشيخ شعبان .

ومن تلامذتها الحمير الأرستقراطية يطلب منها أن تكف عن الفوضى واختلاف حركة كل مفصل عن الآخر ، وأن تعرف ان المشىء كالرقص له أصوله وقواعده ، حتى يصبح الظهر كالبحر الهادىء لا الهائج ، وهذه مشية تحتاج أيضا الى معلم صبور ..

وهى مدرسة خارجية داخلية .. فى القسم الخارجى تلاميذ الجيران ، يأتى الرجل بالتلميذ كل صباح ثم يتسلمه عند الغروب ، حتى لا يدخل فى أجر الشيخ شعبان حساب وجبة العشاء .. وتلاميذ القسم الداخلى

ياتون من بعيد مع كل تلميذ زاده وزواده .. كيسان او ثلاثة من الفول والتبن ، وينصرف صاحبه ليبقى التلميذ بالمدرسة الى أن ينال الشهادة .

وقد حضرت اول قدوم لبعض تلاميذ القسم الداخلى الى المدرسة ، وانتبهت الى الحمار حين ينتقل من يد يعرفها لا يوجس منها شرا الى يد جديدة تنم هى وصوت صاحبها عن جد لا يعرف الهزل ، انتهى عهد السرمحة يا حبيبى .. أرجو أن يصدقنى القارىء اذا قلت له اننى رأيت التلميذ يستخذى ويلزم أدبا فيه الكثير من الحزن حين يخلو الى الشيخ شعبان بعد أن يودعه صاحبه ويغيب عنه * .

والشيخ شعبان رجل متئد الحركة ، وقور ، خفيض الصوت ، لكلامه غنة لذيذة ، متعطر متكحل متأنق ، يلبس العمامة والجبة والقفطان ــ فهو ناظر مدرسة ــ ما أحوجه لبنطلون .. ولكن هيهات ! فهذا لبس الكفرة فهو حرام ــ وهو فوق ذلك مهزأة . له كفان مبسوطتان غير مطخطختين ، وأصابعه سرحة طويلة ، يزين بنصره الأيمن خاتم من فضة له فص كبير من العقيق فى لون الدم ، موصوف له فى طالعه ، له عثنون كأنما انتزعه من صورة الجحا .

كنت ارى شبحه من بعيد على الأفق فوق الجسور ، مقوس الظهر فوق دابته فأحسبه ــ بفضل عثنونه ــ من طلائع غارة جديدة لجحافل التتر ، فى يده سوط لا يستعمله الا نادرا ، هو للاشارة والتنبيه لا للضرب ، فان أدواته الأولى هى ركبتاه ، يطبق بهما على ظهر دابته ككسارة اللوز والجوز ، ولكزات خفيفة من كعبه ، والفاظ قليلة

---

* « الجمهورية » ، ١٩٥٩/٥/٨ ص ٣

متقطعة ، فيها رقة النصح والارشاد ورهبة التهديد معا. والتلميذ من تحته صاغر فاهم ، يخطىء ويصيب فيصبر عليه الشيخ شعبان مرة وأخرى .

ويعود الى الشيخ شعبان ونجلس أمام البيت نشرب القرفة ، واذا وصلت الى خياشيمى رائحتها الذكية المنبعثة من معابد الشرق البعيد ، لا أدرى لماذا كان يخيل الى ان الرجل يذكرنى بقائد حلقة الذكر . وأسأل نفسى بعد مر السنين الطوال وأنا اكتب هذه السطور : هل السر فى عمامته وجبته وقفطانه أم فى عثنونه أم لعله تشابه الوظيفتين فى تحويل حركة من الفوضى الى الانتظام ؟ لقد ذلل الشيخ شعبان مشية الصفوة من خيول المركز وحميره ، والان شكيمتها ، وعلمها الأدب ، وابرأها من العناد والزبلحة .

قابلته ذات يوم فى المركز فرايته مهموما مقطب الوجه ، واخبرنى انه ذاهب للمحكمة الشرعية فلما سألته : « خير ان شاء الله ؟ » أجابنى :

ــ انى رافع قضية اسقاط نفقة زوجتى فقد نفذت عليها حكم الطاعة ثلاث مرات وفى كل مرة تهرب ناشزة الى بيت أهلها .

حمير القاهرة

وكما لحقت اواخر سلالة الحمير الأرستقراطية فى الصعيد لحقت أيضا ــ وانا صبى صغير ــ أواخر عهد الحمير فى القاهرة بين شعبية وارستقراطية .

حكيمة القسم فى حينا - حى الخليفة - سيدة عجفاء لم أر وجهها فهى مقنعة - كعصابة « كلو كلوكس كلان » - تلبس (لا أدرى لماذا) حبرة بيضاء كأنما فصلتها من ملاية سرير ، تخترق الدروب والحوارى ممتطية حمارا ، وبجانبها رجل يسندها بوضع ذراعه وراءها ..

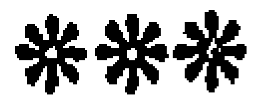
لكثير من الناس الموسرين تحت بيوتهم اصطبل فيه حمار حصاوى ، لا تزال تزن فى أذنى نداءات باعة البرسيم « ربع غزالك » والمفهوم من هذا هو وصف البائع المهذب لحمير هؤلاء السادة ، فمن الذى لا يشترى منه .

فى شوارع القاهرة وميادينها لافتات مثبتة على اعمدة مكتوب عليها بخط أبيض جميل على رقعة زرقاء « موقف لثلاثة حمير » ، أو اربعة أو ستة حسب اشتداد حركة النقل فى هذا المكان . أذكر من بينها بوضوح لافتة على سور حديقة الأزبكية أمام مدخل فندق الكونتننتال . وسبب ذكرى لها للآن أنها كانت مكتوبة هكذا « موقف لثلاثة حمير » الياء قبل الميم - لعل مرجع هذه الغلطة الفريدة أن مدير البلدية كان خواجة ..

وكنت من زبائن موقف الحمير فى العتبة الخضراء . بجانب سقيفته الخشبية الشرقية ، يجلس تحتها صف من ماسحى الاحذية أمام صناديق كبيرة مزينة بالنحاس الأصفر ، أصحابها من الطليان والأروام - لا عجب فقد كان بناء المحكمة المختلطة يقوم وسط الميدان - وكنت اذا خرجت من سينما أوليمبيا « أيام ماشيست العظيم » أركب من هذا الموقف حمارا ليوصلنى الى آخر شارع محمد على عند ميدان الرفاعى ، افعل هذا لا للتعب بل للهو وحين يبقى معى قرش واحد .

اما الحمير القاهرية الأرستقراطية فأراها حين اذهب الى مسجد السيدة نفيسة أو السيدة سكينة ليلة الحضرة ، يتوافد علينا واحد بعد آخر ـ كأنهم المماليك فى استعراض ـ رجال من أولاد البلد يخبون فى الشاهانى وشيلان الكشمير ، على حمير فارهة قوية تمشى مشية الراهون ، تزيد على حمير الريف الارستقراطية بان شعرها مقصوص فى رسوم زخرفية ، وعلاوة على البردعة الفخمة ، يتحلى الحمار برشمة فضية براقة تهتز فوق صدره ، لبعضها أحجبة تقيه شر العين ، لجامها مشدود ، شكيمته تكاد تمزق شدقى الحمار ، وينسكب منهما رغوة بيضاء متماسكة كغزل البنات ، يخيل الى أنهم كانوا يقيسون أصالة الحمار بمقدار طول هذه الرغوة ووفرتها ، ومع ذلك فان نفسى تعافها ، واعجب كيف رضى ابن البلد ـ وهو صاحب ذوق رقيق ـ بهذا المنظر السمج ، ثم يتخذ كل منهم مكانه فى القهوة وحماره امامه .. ويدخن الجوزة وينفخ الدخان من فمه وطاقتى أنفهالى خشم الحمار ، فأراه ينشقه بلذة كبرى ، كالعتاة من أصحاب الكيف ، كنت وأنا صبى أحسد الحمار على هذه المتعة المحرمة على ، ولعل هذا هو السر فى أننى حين كبرت أصبحت من غلاة المدخنين . وكانت تقوم فى بعض الأحيان معارك لفظية قد تصل الى حد التضارب اذا استهان واحد من أولاد البلد بفضائل حمار منافسه .

عشنا ورأيناهم يركبون الموتوسيكل والحرمة فى السيدكار ..



لصوص الحمير

يصادفنى فى القصص الغربية ـ وبخاصة فى الأدب الروسى ـ ذكر لاناس من عجائب الخلق يطلق عليهم « لصوص الخيول » ويوضعون فى أحط دركات البشرية، ثم لا أجد لهم وصفا يشفى غليلى ، لعل السبب أن حياتهم تمضى فى الهرب والتخفى .

وعرفت فى الصعيد أيضا حين نزلته عصابات لا لخطف الخيل ـ فهى قليلة وفى حراسة شديدة ـ بل لخطف الحمير ، لا من البيوت ، فهذه مجازفة لا تساوى غنيمة بخسة الثمن ، بل فى الأسواق يوم انعقادها حين يستأمن الفلاح لحماره مربطا غير مأمون ، أو حين ينشغل بالبيع والشراء وسط الزحمة وتخونه يده فتظل من وراء ظهره توهمه أنها قابضة على الحبل بعد أن يكون قد انفلت منها ، وتؤلف هذه العصابات من عدد من الأفراد يوزع عليهم العمل ، والذى يسرق الحمار ـ يحوط عليه بعض زملائه ـ يسلمه من فوره لثان فيجرى به الى ثالث يخرج به من البلد مسرعاً ليطوحه الى مكان قصى يختبىء فيه زمنا ثم يساق منه بعد ذلك الى مديرية أخرى ليباع فيها .. فانظر ما يحتاجه هذا العمل من تنظيم دقيق .. والله وحده يعلم كيف يقسم الثمن بين الجميع .

ان جريمة خطف الحمير هى وسط بين النشل والسرقة ، وقد عهد الى ذات يوم أن أحقق فى قضية

تنازع رجلين على حمار ، كان الأول يسير فى سوق القرية فاذا به يهجم على رجل آخر ليس من أبنـــاء المديرية ويمسك بخناقه ويتهمه بأن حماره مسروق منه هو ... يقسم أغلظ الايمان . والثانى يقسم بايمـــان أغلظ ان التهمة كاذبة وأنه يصح فى الحمير كما يصح فى النـــاس أن يخلق من الشبه أربعين .

قمت من المركز ومعى المتخاصمان والحمار حتى بلغنا قرية الأول ووقفنا على مشارفها من بعيد ، ثم أطلقنـــا الحمار فجرى واختار من الدروب اليمين ثم اليســـار ثم مرق بين منازل القرية لا يتريث حتى دخل جريا بيت الرجل يكاد يحطم الباب بنطحة من رأسه ، وكان قـد مضى على السرقة أكثر من سنة . هل بعـــد هذا دليل ؟

شاهد الاثبات الوحيد هو الحمار نفســـه ، ولكن هيهات أن نسوقه ليقف امام القاضى ، فلا مفر من أن اذهب أنا للمحكمة واقول لها : انا شاهد حاضر عن الحمار ياافندم !

نكت الحمارة

حتى النكات التى كنت أسمعها وانا صبى لم تكن تخلو من ذكر للحمارة والحمير .. فالنكات من أصـــدق علامات الزمن ، وهى تدل على ان الحمارة كانوا قوما معروفين بخفة الدم وحب المداعبة . ابقاها فى ذاكرتى نادرة تروى عن الشيخ على الليثى الشاعر الفكه نديم الخديو توفيق ، وكان الاثرياء يتخاطفونه ويحبسه كل

واحد منهم فى داره أياما ليستمتع به فلا يغادره الا تلقفه ثرى آخر وهكذا . كان يقطع صحراء حلوان على ظهر حمار متنقلا من مضيف الى مضيف ، فاخذ يناجى سائق الحمار ويقول له :

ـ أتعرف الى اى شيء تهفو نفسى الآن ، لقد شبعت من اللحوم والديوك حتى اصبحت لا اطيقها .. من لى باكلة عدس وبصل أخضر تحرش معدتى ..

لكز الرجل الحمار وقال :

ـ ياشيخ على ! المسالة سهلة ، اذهب الى بيتكم ولو مرة واحدة فهذا اكلكم يوما بعد يوم ..

السرك وحماره

لم يبق فى جعبتى من أصدقائى الحمير الا حمار واحد . هو اشدها ذكاء وأخفها دما واكثرها الفا بالانسان .. « حمار السيرك » ، وهو سلالة متطورة من حمار الحاوى ، كان يدخل حارتنا وينعقد الناس من حوله فاذا قال له صاحبه :

ـ اختر لك عروسة .. وقف الحمار ، بعد أن يدور دورة كاملة ، امام فتاة جميلة وابى رغم الضرب أن يتحول عنها ، والغريب أن الفتاة تخجل وتسر لهذه الشهادة ! وان ساله « أين حماتك ؟ » وقف امام عجوز لحظة ثم مضى هاربا لا ينصت لامر صاحبه بالتريث عندها ولو قليلا . لقد أختفى حمار الحاوى من دروب القاهرة.

وقد كنت منذ صغرى من هواة السيرك أسعى اليه عند سيدنا الحسين أيام الاحتفال بمولده ، لا يتم السيرك الا باستعراض للخيول المدربة . ويكون به أحيانا اسد شيخ هزيل يكاد يقع من طوله ، لفرط الاعياء ينطق كل جسمه بأن أمله الوحيد فيما بقى له من حياة أن يظفر يوما بماشطة وبلانة ، اين منه اسد مترو جولدين ماير، لا ينقصه الا ان تعلق فى رقبته الجلاجل وتعقد على جبهته فيونكة من حرير .

وكان سيرك سيدنا الحسين يضم ايضا ـ اثباتا لمصريته وشعبيته ـ حمارا يخرج الى الساحة منطلقا كالرصاصة ، وينزل اليه عدد من الرجال يتراقصون أمامه ويخايلونه ، فيجرى وراءهم ويلاحقهم وهم يفرون أمامه يحاول ان ينطح واحدا منهم براسه أو يصرع آخر بشلوت من ساقيه معا . لا يدله احد ـ كما فى الخيل والكلاب المدربة ـ ماذا ينبغى أن يفعل . انه يحفظ دوره ويعلم انه يلعب ، ويتأجج نشاطه كلما علا الضحك والتصفيق من حوله . وتنتهى « النمرة » بتغلب الحمار على منازليه جميعا ، فهم يتواثبون واحدا بعد آخر من فوق السور ويلوذون بالمتفرجين ، فاذا خلت الساحة له كف عن جموحه ودار امامنا يستعرض بطولته وخيلاءه ثم انطلق خارجا كالرصاصة كما دخل .

من حسن الحظ ان السيرك كان يحط رحاله فى منفلوط وهو فى طريقه نازلا الى مولد السيد عبد الرحيم القنائى . اذا دخل البلد انتشر خبره فى المركز كله وجاءه الفلاحون من أقاصى القرى ، يتكدسون بعضهم لصق بعض ، غابت أجسادهم فى تشابه ملبسهم وبقيت أعناقهم مشرئبة وعيونهم مثبتة على ساحة السيرك . الكفان

موضوعان ـ فنحن فى الشتاء ـ خلف خـــلاف تحـت الأبطين « ظهورهم محنية ألى الأمام ، أما انا فأجلس فى « بنوار » كتب عليه أصبع تلميذ مبتدىء بدهان أحمر « بوليص » أعلانا أن شاغله ـ مع الاحترام وحفظ المقام ـ قد دخل سفلقة وبقوة السلاح !

من سحر السيرك يجلس الناس فى حلقة كأنهم اسرة واحدة مجتمعة فى مندرة أو فى دوار العمـــدة ، وجوه بعضهم فى وجوه بعض ، ما أسرع الفلاحين للضــــحك والمرح وما أسرعهم ايضا الى الدهشة والتعجب حين يرون فتاة صغيرة عفريتة تنقلب أمامهم على أربع ظهراً لبطن وتتداخل وتدور كالارحى ويبرز وجهها كأنما تطل به من بين قوائم طاقة فى بدروم جسدها ، فانت أصـــبحت لا تدرى أين الساقان وأين الذراعان . اعجابهم بها لا يخلو من اشفاق وترحم ، ولكن اللحظة الحرجة ـ مع استئذان يوسف ادريس ! ـ تأتى حين تتقدم أختها الكبرى فتعلو قمة هرم ملخلخ من قوائم خشبية مرفوعة بعضها فوق بعض لا يحكم رصها الا قطع صغيرة من الورق تدس بينها ، ثم وهى فى هذا المكان المهول تقـــوم بحركات لو زلت فيها زلة واحدة لهوت صريعة الى الأرض . يقول لهم صاحب السيرك حينئذ « ياجماعة اللعبة خطيرة ، الزموا الصمت وادعوا الله فى سركم ! » فلا تسمع فى السيرك كله نأمة واحدة . فاذا بلغت الفتاة غاية الخطــر ارتفع صوت الرجل يقول « وحدوه » فتنطلق فى أرجاء الخيمة تجلجل كالرعد شهقة عالية « لا اله الا الله » ! » تكاد جباههم تتفصد عرقا من شدة معاناة الوجل ..

ثم هذا مغن يقلد الشيخ سلامه حجازى كما تقلده اسطوانة له ممسوحة ، وهذه مسرحية من فصل واحد

فيها ملك ووزير ميمنة ووزير ميسرة تردنا آلى بغـــداد
أيام الرشيد ويحيى البرمكى ، ولكننا لا نرى زبيـــدة
ولا أبانواس .. أنزال الستار ورفعها ينوب عنه فرش
ولم لبساط قديم حائل . لو كنت من أذكى الناس لما
عرفت ماذا كان لونه ، يثير فى الحالتين سحابة من الغبار،
ولكن لا بأس انه شيء هين اذا قيس الى الروائح من روث
الخيول وعفونة الأسد الهصور ، ثم يأتى دور الرقص ..

ان الفلاح لا يعرف شيئا عن بهجة الأنثى ، حتى
الغوازى ـ وهن قلائل ـ يرقصن فى لباس يغطى أجسادهن
الى الكعبين .. لاغرو ان كانت هذه الراقصة أحب شيء
لديهم ، أذا دارت عليهم بالطبق ، وجـدت من بين هؤلاء
الفلاحين من يدفع لها القرش كأنما هى التى تحســـن
عليه بتناوله منه ، لم تكن السينما قد انتشرت بعـــد
فنقلت ألكباريه الى بيوت القش والطين .

مع هذا السيرك الذى وصل منفلوط رجل من اهل
الصين ـ متى خرج من بلاده واين ينتهى مطافه وكيف
حط رحاله بهذا السيرك ؟ ! الله أعلم ـ يرقد على ظهره
ويهشك برميلا كبيرا بقدمين تشبهان قدمى الاطفال ..

ولكن اعجب شيء هذه الموسيقى ألتى تنبعث من ابواق
مشروخة مخرخشة ، ومع ذلك تنفذ الى قلوبنا وتهزنا كأنها
من أشجى الألحان وأعذبها ، لم يكن الميكرفون ـ والعياذ
بالله ـ قد دهمنا بعد ..

فى السيرك حمار يقوم بلعبة اخرى غير التى رأيتهـــا
فى القاهرة فهو يخرج للساحة ومعه رجل واحد ويدور
بينهما صراع ، يحاول كل منهما أن يوقع صاحبه على
الأرض .. وتنتهى اللعبة ـ كما فى القاهرة ـ بانتصـــار

الحمار . ولم أر فى أوربا سيركا واحدا يضم برنامجه لعبة الحمار .. فهى من الأمجاد الخاصة بالسيرك المصرى وحده .

ولكن بهجة السيرك أصبحت عندى يخالطها فى قلبى شىء من الضيق والحرج .. لم انتبه لما يجرى وراء الستار الا يوم دخلت على قرداتى يعرض ألعابه فى خيمة فى معرض شعبى عام مقام فى ارض الجمعية الزراعية ، وجدت قردا صغير السن مختبئا فى ركن تسيل الدماء غزيرة من شدقيه لم أر فى حياتى مثله ينطق بالذعر والألم والعذاب .

سألت صاحبه عن السبب فلم يتلكأ فى الاجابة ، بل سارع الى رواية الخبر بلا خجل كأنه يزهو بقوته وحيلته وبطشه ، هذا قرد ماكر لئيم لا ينصاع لأوامره .. أجاعه وضربه بالعصا فلم ينصلح ، وبلغ من سوء ادبه أن عضه ذلك اليوم فى يده ، فأقسم أن يلقنه درسا لا ينساه وأن يجرده من سلاحه . فأمسك بالقرد الصغير وتناول حجرا أخذ يهوى به على خطمه حتى هشم له جميع أسنانه .. هو واثق أنه سيصبح بعد ذلك فى يده ذلولا لا يعصى له أمرا . وسمعت ــ ولم أشهد بعينى وان كنت لا أستبعد الخبر ــ أن الدرس الأخير للقرد أن يدخل عليه صاحبه يمسك فى يد جروا وفى يد سكينا ، ثم يصدر للجرو أمرا فلا يعطيه ، فيتناوله ويقطع رأسه بالسكين أمام القرد ويقول له « هذا جزاؤك ان عصيت ! »

أغلب حيوان السيرك يعانى عذابا تختلف درجاته وكلها تؤدى ألعابها فى قبضة الارهاب ، لو دققت النظر تبينت آثاره عليها . ارهاب يبلغ حد ابطال الغريزة ،

كما نشاهد الحصان يرضى أن يعلو الأسد ظهره ويجرى، أو يرقد على الأرض ويخطو الفيل من فوقه .

ولا ينفرد الحيوان وحده بهذا العذاب ، فقد روت لى بهلوانة من أسرة معروفة فى عالم السيرك عندنا انهـا لم تتعلم العابها وهى طفلة صغيرة الا بعد أن ضربها المعلم ضربا مؤذيا ملاحقا لا تزال « توحوح » منه الى اليوم .. والغريب أن المعلم هو أبوها !

***

يسرح ذهنى فأذكر كيف أقف وأنا صبى بجانب حوض المياه فى ميدان القلعة أرقب الخيل والحمير وهى تشرب ..

أقدمت مسرعة كأنها تعرف المكان تحنى راسـها وتعب من الماء ثم ترفعه وتسكن برهة وقطـرات الماء تتساقط من خشمها فلا ادرى لماذا يرق لهـا قلبى ، وتنبعث من عينيها نظرة غائمة كأنما أصـابها الارتواء المفاجىء ، بعد العطش الشـديد ، بدوار خفيف .. يرتعش جلدها على البطن أو الساق وتهز ذيلها وتحنى راسها مرة أقل زمنا ومرة سريعة كسلام الوداع ، ثم تمضى متثاقلة للعناء من جديد . أمشى بجانب عربات الدبش تسحرنى عجلاتها الضخمة تتمايل وتقعقع وتأكل الطريق أكل الأهتم ، دحديرة القلعة أمتحان لعربات مثقلة بأحمال لا تعرف الرحمة ، فيقف الحصان كأنه تمثال مصبوب لم تنبض فيه حياة أصيب فجاة بالعمى والصمم والخرس، فهو لا يبالى بشىء من الضجة التى تقوم حـوله كأنه ارتفع فجأة فهو تمثال جامد فوق قاعدة عالية ، يدفع صاحبه العربة من خلف بكتفه وقد قصرت ساق عن ساق مغروزة فى الأرض ، أو يستدير للطريق ويعلق كل وزنه

وقوة قبضته تشد عارضة العجلة الى الأمام فيتزحلق حتى يكاد يرقد على الأرض ليحركها من مازقها ، وقد ينهال بالسوط او العصا على دابته فكأنه يضرب ميتا لولا اطباقه وفتحه لجفنيه . ينشب الحصان سنى حافريه الأمامين فى الأرض ، ويتقوس ظهره وتتحرك رقبته حركة تذكرنى بعمل المضخة .. امرنا لله .. ولكن الفرحة الكبرى لنا حين يقع حصان العربة الحنطور على الارض ، انه أطبق عينيه . لو ترك مكانه لنام الى آخر النهار ، تختلط القوائم والعريش واللجام فى كوم واحد كأنه حطام . يتجمع الناس وتكثر الآراء والنصائح ثم اذا وقف الحصان على قوائمه احسسنا انه يبعث من قبره ..

يبرز لذاكرتى من هذه اللوحة التى رسمت لك معالمها شبح امراة اجنبية تلبس لبس الملكة فيكتوريا ـ مظلة وقبعة مستديرة واسعة ينحدر منها شرشف من الموسلين ، وحذاء رجالى بكعب واطى ـ تهل من بعيد فيصاب سائقو العربات بذعر .. تكشف الجروح وتتدبر الأحمال ، وتحيل القساة المذنبين والحيوان المسكين الى القسم .. هذه هى مندوبة جمعية الرفق بالحيوان .

لقد اختفى الآن حوض مياه شرب الحيوان من ميادين القاهرة ، واذا كان عدد الحيوان قد قل كثيرا الا اننى لا أعرف هل الحاجة اليها قد انقطعت أم لا .. ولكنى لا ازال اطمع أن تطلع علينا بين الحين والآخر فى شوارع القاهرة سيدة مصرية تحوطها الهيبة لها عين فاحصة وكلمة عادلة لا تقبل الجدل اذا سألنا عنها قيل لنا ، هذه مندوبة جمعية الرفق بالحيوان .

أما العذاب النفسانى الذى وصفته لك بمناسبة الكلام عن السيرك ، فلن نصل الى كشفه او علاجه ، يكفى ان تحس به القلوب ، وان تشمل ضحاياه فى دعواتها حين تسال خالقها جناحا من رحمته للمعذبين فى الأرض .

الطبيب البيطرى

على ذكر جروح الحمير وعلاجها لم أجد فى منفلوط وزمامها الشاسع الا طبيبا بيطريا واحدا ، هو طبيب المركز الذى لولا مرتبه لمات جوعا .. لم ار خلال سنتين ولو مرة واحدة فلاحا غنيا او فقيرا يقصده لعلاج حيوان له ، لا جاموسة ولا جمل ولا حصان ولا حمار ، فلاتتصور ان يقصده لوقاية دجاجة من الخناق ، أو لحقنة ضد الكوليرا ..

فالفلاح متمسك بوصفات بلدية لا يؤمن الا بها ، ويراها رغم اخفاقها بين يديه مرارا كثيرة تغنيه . تصده عن الطبيب البيطرى ريبة مزدوجة : ريبة من ضرر علاجه ، وريبة اخرى أشد ، كما سترى فيما بعد ، من الموظف الافندى الغريب الذى يطبق عليه قوانين لايفهمها، أنه قد يصادر لحم الجاموسة اذا نفقت عنده ، ومع ذلك اذا ماتت الجاموسة ذرفت عليها الدموع ولطمت الخدود وتعالت الصيحات واقيمت لها مناحة كبيرة .. وتقبل صاحبها العزاء من الأهل والجيران ، ولولا الحياء للبس عليها السواد ..

لا انسى يوما مررت على فلاح قد جلس أمام داره

جلسة تنبىء بالألم والضياع ، يجلسها أحيانا أمام حلاق الصحة حين يبتلى بصداع لا ينفع فيه الأفيون ، فيسال الحلاق ان يشرط صدغيه بالموسى ليفصد الدم الفاسد . . ترقد أمامه على الأرض جاموسته فى النزع الأخير . . بين عينيها ويد الرجل سكين كبير ، كلاهما ينظر اليه ، هذه كانما ترجوه أن يحزم أمره وينقذها من عذابها . استسلمت ، أدركت انها تموت ورضيت بالذبح من يد صاحبها . وهذا لا يفقد أملا مادام نفسها لا يزال يتردد فى حلقومها . . ان يده لن تتناول السكين الا قبيل لحظة طلوع الروح بثوان قليلة لتكون الطعنة له ولها واحدة .

ثم ينبغى العثور على القصاب الذى يقبل شراء لحمها ، وقد يكون غائبا فى قرية أخرى ، ولا مفر من قبول الثمن البخس الذى يجود به .

يعلق لحمها فى السوق ويتناثر فى القدور ، وقد ينتهى الأمر الى المركز اذا أصيب بعض الأطفال بتسمم . وقد لاحظت أن المصابات فى هذه الحوادث اكثر من المصابين ، لأن الفلاحة تأكل نصف اللحم من القدر من قبل أن تتم الطبخة بدعوى أنها تريد أن تعرف هل نضج اللحم أم لم ينضج بعد .

ويبقى للطبيب البيطرى الاشراف على سلخانة البلدية ، والمرور على الأسواق ، وتصيد الكلاب الضالة . يتسلم من الوزارة قدرا محددا من الاستراكنين فيجعل معاونه ـ وهو من عساكر المركز ـ يعجنه أمامه فى بقايا من لحم على هيئة أصابع الكفتة ، ويخرج بها المعاون ليجوس خلال القرى ، وعليه أن يعود من رحلته ومعه عدد مماثل من أطراف ذيول مقطوعة للكلاب التى أعدمها ،

اثباتا لأدائه لمهمته .. اذمن واجبه اذا ألقى السم للكلب أن ينتظر أمامه حتى يموت ويقطع علامة من ذيله .

يأتى الينا هذا العسكرى فى المساء ونحن جلوس فى القهوة ، فى يده كوز من الصفيح صدىء قذرفى قعره اطراف ذيول غارقة فى الدم . فيلقى عليها الطبيب نظرة سريعة متأففة ويقول : « كويس » .. يضرب العسكرى سلاما وينصرف .

لا أدرى ماذا دار بخلد الطبيب البيطرى ، لعله لحظ على العسكرى دلائل شبع ورى .. فاذا به يتقلب ذات مساء على تأففه ويطيل النظر الى قاع الكوز. ليس هذا الشعر شعر كلاب .. أحد بصره فاذا به يتبين بأنها ذيول ماعز ..

سرق المعاون السم ليبيعه للفلاحين الذين ينتقمون من خصومهم بفعلة دنيئة بعدها خسة .. يثقبون كالح الذرة ويملأونه بالسم ويلقونه أمام جاموس عدوهم ..

الباب الرابع

الصعيد



لا استطيع ان اتبين شعورى حين علمت اننى مهاجر لاقيم منفردا بالصعيد . هل هو تهيب من المجهول أو خوف من الانقطاع والوحدة ؟ لم يسبق لى قـط ان سافرت للصعيد أو خالطت أهله . صورته المنطبعة فى ذهنى رسمتها لى اقاويل تقارب تهاويل الاشـاعات عن جرائم القتل والأخذ بالثأر ، القاتل يصرف عمره فى تتبع ضحيته ككلب الصيد وهى تفر أمامه من بلد الى بلد ، والقتيـل يراق دمه ـ وقد بلغ فيه القاتل ـ تكفيرا عن اعتداء وقع قبل مولده ، ان رمزت للصعيد بشىء فبهذه الشومة ـ خشبها فى صلابة الحديد ـ تهوى بها أذرع قوية مفتولة على الرءوس والعظام فتحطمها وتعجنها ، فى المتاحف من عهد طيبة جماجم لموميات عليها آثار وقع الشومة .

نساؤه حبيسات فى دورهن ، فيهن من تفخر بانهـا لم ترتد الملس الا مرة واحدة ، يوم أن خرجت زفتهـا من بيت أبيها الى بيت زوجها ، وكأنما ودت لو كفنت به لتلبسه مرة أخرى وهو قشيب . معظم بلاده ـ رغم غناها ـ محرومة من الماء والنور ، أما الحـرمان من المجارى فكل بلاد الريف كانت حينئذ فى الهوا سوا .. دع عنك انباء زحف العقارب ، ان سلم منها فراشـك كمنت لك فى حلق القلة او كوز الزير ، وأحيانا فراشك حذائك أو فى بطن لوفة الحمام ..

حياة خشنة صارمة ، مجردة من الزينة ، لا تعرف ولا تجيز دلع القاهرى فى طعامه وملبسه ، نكاته ونزهاته.

الليل فى الصعيد سجان له يد سوداء تغلق الأبواب عند غروب الشمس على الانسان والحيوان .

ومع ذلك أشعر بسعادة الانطلاق الى عالم غامض احس بسحره وعطره ، كنت اشتاق اليه من قديم وأدرك ان مصريتى ومحبتي لبلدى لاتتمان الا اذا اغتسلت فى حوضه ..

منذ صغرى الحظ فى زملائى أبناء الصعيد فى المدرسة رجولة ونخوة وشهامة وجلدا ، ثم — وهو الأهم عندى — قدرة — أشبه بالغريزة — على تناول الحياة حلوها ومرها كما تلقاهم ويلقونها ، لا يفسد تمتعهم بها ابتلاء بالتهيب ، والشكوك والملل وفراغة العين ، والبحث فى ملك اليد عما وراءه . ما سمعت منهم شكاية ، ولا احسست بهذا النازع الخبيث المتستر فى النفوس الضعيفة لاستدرار العطف والجذب عليها ، هو نوع من الملق والنفاق يصوب سهمه للداخل لا للخارج .

وكنت اتتبع من فوق الكبارى هذه المراكب العريضة — تكاد تغطس فى الماء — قادمة مع التيار ، محملة بالتبن او البلاليص ، جماعة من أهلها متحلقون عند الدفة حول قدر مسود ، تحس أن صمتهم اكثر من كلامهم ، ورجل آخر يقفز فى خفة القرد يتسلق الصارى ليلم القلع المرقع ويميل به حتى تمر المركب من تحت الكوبرى . بينه وبين ماسك الدفة صراخ لا اتبين الفاظه ، حاد غضوب ، كأنه

تلاحم النبابيت ، تتقد له الأعين كالشرر ، وتبرق الأسنان كوميض السلاح .

ما هو بلدهم ؟ من أين هم قادمون ؟ ما طعم هذه الحياة الطافية فوق الماء ؟ كم تمنيت أن أصحبهم فى رحلة لأعرف أسماء الرياح وعلاماتها وحيل التيار المخاتل ، واطل على الدوامات ، ويرسم لى النخيل الرشيق فى كل لفتة لوحة فى النهر متباينة ، واسلم فى كل ليلة على « موردة » جديدة .

يهتز قلبى حين يقال لى ان الجنازات فى بعض بلاد الصعيد تعبر النيل من الغرب الى الشرق ، أحس أننى اعيش فى عهد الفراعنة ، وأظل أصور لنفسى تأرجح الميت فى القارب فوق المياه ينهى به حياته كما بدأها بتأرجحه فى المهد . وكانت لى جدة تقول ضاحكة انها تتمنى أن تشيع هكذا جنازتها حتى تشم الهواء قبل ان تغيب فى قبرها .

ولماذا اقصر كلامى عن أهل الصعيد على أبناء المدارس ؟ حتى الباعة الجوالون من فقرائه المعدمين يمشون فى عزة كأنهم جند فى استعراض عسكرى لجيش ظافر ، تضرب أقدامهم الأرض تكاد تخرقها ، أجسامهم ممشوقة ، ورءوسهم مرفوعة ، بطونهم مشدودة وظهورهم مبسوطة ، اذا بانت لك عظام الصدر أحسست أنها غطاء دينامو لا يلهث ولا يصفق طلبا للنجدة ، كأن كل واحد منهم أمير فى قومه .. اكثر ما يجذب العين فيهم رقبة طويلة مغروزة فى الجسد كصخرة فى جبل ، هى وحدها التى تضفى عليهم هذا النبل وهذه المهابة ..

لا أنسى بائع الرمان الذى كان يدخل حارتنا ، فى كل جانب من عبه ـ فوق حبل مشدود على وسطه ـ أقتان على الأقل من الرمان ، على كفيه رمان ، وفوق رأسه قفة كبيرة مملوءة لفم عينها رمانا • لو قبل الشارى ـ فى غفلته ـ أن يساعده على انزالها كادت تخلع ذراعه وتطرحه أرضا ولو كان فحلا • يمشى هذا الرجل الشيخ ، وقد خط الشيب شعره ، من مطلع الشمس الى العشاء ، لا ترى فيه من أثر الجهد الا رفع حاجبيه وخفضهما كأنه يوازن بهما القفة فوق رأسه •• « منفلوطى يارمان ! » •• كل قوته انحبست فى رقبته •• ولا تسألنى من أى طعام تستمد قوتها •

على جانبى الشريط وجسور الترع والمصارف ، وفوق السقالات ، بين أرصفة الموانىء وبواخر محملة بالفحم ، جنس يحيل العمل من فوره الى وقدة الحمى ، يشبه النمل فى دأبه وتبعثر أفراده وانتظام مجموعته معا ، اذا كان لا مفر من « الحزق » فعيب أن يصدر من حلوقهم الا متسترا فى ترجيع جماعى لمقطع فى أغنية ينشدها واحد منهم • لقد طوفت فى بقاع الأرض فلم أجد للصعيدى ندا فى تحمله للجهد •

فى ليالى الشتاء حين أمر على مداخل عمارات ملفوفة فى شبكة من السقالات كأنها قنفذ ضخم قد نصب أشواكه ، تسمر قدمى أغنية منبعثة على ضوء نار وشرر وسط الظلام ، تسيل رقة وحنانا • أصبحت « الحزقة » بحة محروقة من شدة الوجد •

كل هذا يتمثل لى فى قطار الصعيد « ترسو » : فى

زحمته ورائحة الحلبة وبخار التراب المحترق فوق الأجساد والمقاطف والزكايب يقذف بهما فوق الرؤوس ، والركاب يصعدون وينزلون من النافذة ، ولكن لا ضير ، فلا يخلو سفر من ضارب طبلة يسلينا متطوعا طول الطريق بأغانى الحنان الى الوطن والحبيب •

قدام بيت اللى بحبه   شجرة وضلة ومعنى وهوا

هيهات لخمر أن تسكرنى كما تسكرنى كلمة « معنى » فى هذا البيت • لقد ذكرت أحب الأغانى الصعيدية الى فى مقدمة مجموعة قصص « دماء وطين » فلا أستطيع تكرارها هنا ••

لقد دمغ الصعايدة باسمهم القطار الذى يغادر الاسكندرية (بلد سيدى المرسى أبى العباس ، الولى الذى يرد ذكره فى أغانى الصعيد) فى منتصف الليل •• هو قطارهم المفضل اذ يسلمهم فى الصباح بالقاهرة الى أول قطار للصعيد ، بل انتقل هذا الاسم الى القطار المماثل الذى يقوم من القاهرة الى الاسكندرية فى الموعد ذاته • وهذا هو تفسير الأغنية الصعيدية الشهيرة :

ياباجور الساعة اتناشر   يامقبل على الصعيد

انه القطار القائم من الاسكندرية لا من القاهرة وكانت هجرة الصعايدة الى الثغور أكثر منها الى القاهرة •

وقد بدأت فى ذلك العهد أعرف لأول مرة قطار الصعيد وارى عجائبه ، كلما أوغل بنا فى جنوب الوادى أصبحت

مواعيده غير مألوفة للقاهرى ، مثلى ، لم يسبق لى من قبل أن أصل الى بلد أو أسافر منها في الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا ٠

وعرفت أيضا نظام الخط المفرد جنوب المنيا ٠٠ فى ذلك العهد لا يمر القطار الا اذا سلم السائق لناظر المحطة طوقا من الخشب وأخذ بدله طوقا آخر ، يدا بيد ان وقف القطار بالمحطة ، أو يعمد السائق ـ والقطار ينهب الأرض ـ الى القاء طوقه على الرصيف ، ثم يمد يده لتصل الى مستوى طوق يتدلى من عمود مثبت فى نهاية الرصيف فيخطفه خطفا ٠ وأعجب كيف لا يخطئه مرة واحدة ٠ فاذا تسلم الناظر الطوق وضعه فى آلة بمكتبه وحينئذ يستطيع أن يفتح اشارة المرور للقطار القادم من الناحية المقابلة ٠ وكنت أتتبع كل هذا فى شغف كبير لأننى منذ صغرى أهيم بالقطارات ويسحرنى منظر المحطة ـ أكبر سوق للوداع ـ وتقاطع الأشرطة ، ولمعانها ، وامتدادها الى نهاية البصر ٠٠ حتى فى المحطات الصغيرة أجد راحة كبيرة لنفسى حين أجلس تحت شجرة وأطلق العنان لذهنى فى سرحان لذيذ ٠ وقد وجدت فيما بعد أن من أحب التسلية الى بعض الناس فى الصعيد أن يخرجوا للمحطة لا لشىء الا للفرجة على القطارات وركابها ٠

الأخذ بالثأر

على ذكر عادة الأخذ بالثأر وتأصلها في الصعيد : خرجت ذات يوم في عهد قريب أصحب فرقة من المسرح الشعبى لنقيم حفلة في مدينة أسيوط · ورضى المدير ـ لود بيننا ـ أن يحضرنا ، ورأيت اكراما لمديرية أسيوط أن أؤاخى بين مسرح قاهري يتسمى ـ لا أدرى لماذا ـ بالمسرح الشعبى ، وبين ألوان من الفنون الشعبية المحلية · فجاءت لنا ثلاث فرق من عازفى الأرغول وأنشدوا أناشيدهم ·

ثم أعلنوا لنا وسط الحفل ـ مدفوعين بالمنافسة ـ أن هذه الأناشيد المحفوظة ليست كل بضاعتهم ، وأنهم قادرون على أن يرتجلوا من فورهم مواويل فى موضوع نقترحه عليهم · من قبل أن أفتح فمى أقول لهم « غنوا لنا عن عشقكم لبلادكم ونيلها وزرعها » مال على المدير يقول : هذه فرصة · اننا نحارب ـ بناء على تعليمات وزارة الداخلية ـ عادة الأخذ بالثأر ، وقد كثرت المواعظ والخطب فلماذا لا نطلب اليهم أن يحاربوا هذه العادة بالمواويل أيضا ·

فوقفت وقلت لهم : « قولوا لنا شيئا عن عادة الأخذ بالثأر » · كأننى دعوت جياعا الى مأدبة ، فما كدت أجلس حتى اندفع منشد الفرقة الأولى فى موال يقول فيه ان الرجل الذى لا يأخذ ثأره بيده سيعيش طول عمره ذليلا مهانا ·

فاوقفته وقلت له : لا · لا · ليس هذا الذى نريد ·

جذبه منشد الفرقة الثانية باحتقار بعد أن ثبتت خيابته وحل محله منتفش الصدر ، قد انتفخ شدقه كالبالون وبدأ ينشد موالا يقـول فيه ان الرجل الذى لا يأخـذ ثأره بيده يستحق البصق فى وجهه ·

يادى الداهية السودا ·· حسبوا جميعا ـ لمجرد ذكرنا لعادة الأخذ بالثار ـ أننا لا نتصور مثلهم أن يخرج مجـال القول عن مدحها ، وحسب الثانى أننا لم نرض عن الأول لفتور حماسته فى التنديد بمن لا يأخذ ثأره بيده ·

مال على المدير مرة أخرى يهمس فى أذنى :

ـ قفل على كده ! ·

فاشرت بانزال الستار المهلهل وباخت الحفلة ·

الذهاب للصعيد

يناير سنة ١٩٢٧

بقيت واقفا أمام مدير أسـيوط ، قال لى بلهجـة رجال الضبط والربط : (ما أعجب هذه الرفقـة المفروضـة على هاتين الكلمتين ! قد فهمنا « الضبط » فما معنى «الربط» ؟ ستقابلنى هذه الكلمة فيما بعد لا فى ميدان العمل ، بل فى مجال الشعوذة والسحر عند الفلاحين) ·

ـ شوف ، لا ليسانس ولا دياولو ! ·· كل المعـاونين عندنا زى بعض حتى ولو كانوا من تحت السلاح ·

لم أنطق بكلمة ، ولم أشكره ـ وكان ينبغي ان افعل ـ حين اختار لى مركز منفلوط لأعمل به • فانى ، وان كنت أستفتح عملى كالقطة العمياء لا أعرف ترتيب مراكز أسيوط في المتاعب والمزايا ، ولم يبصرني بها من قبل انسان ، وجدتني ـ رغم انكاري لغلظة الحديث ـ أستبشر بهذا البلد ، هو في مقدمة مدن قلائل يجلجل اسمها في دروب القاهرة اشادة بالأصالة والتفوق عند ذكر طيب المنبت وجودة الثمر ، هل تذكر وصفي للبائع الشيخ الذى كان يدخل حارتنا وينادي « منفلوطي يارمان » ؟

سأذهب الى موطن هذا الرمان ، جعلته أغاني الصعيد توأما لنهود العذارى ، وسأجعل أول متعتي أن آكل رمان منفلوط ، وأن أجلس له كما كنت أفعل وأنا صبي ، أتأمل نظم عقيقه بعد أن أنزع عنه سترا لا يدانيه ورق السيلوفان في رقته وحسن حياطته ، ثم أنحته بأسناني ولو سال بعض شرابه على ذقني ، لن يزجرني أحد ، سأحرص على ألا تقفز مني حبة واحدة ، فقد كان يقال أن في كل رمانة حبة واحدة معينة من أكلها دخل الجنة !

كم كانت خيبة أملي حين لم أجد في منفلوط رمانا • لقد اجتثت يد الاهمال أشجاره كلها ، وزرعت منه حدائق جديدة في أبنوب وساحل سليم والبداري ، لا أعرف هل هي من سلالة رمان منفلوط أم لا • أعلم أن شجرة الأم في سلالة البرتقال أبو سرة •• في أمريكا تعد من ذخائر الأمة وكنوزها فهي باقية معززة مكرمة ، ضرب عليها سياج ، كأنها مصونة في معبد أقيم لها ، يحج اليها ويطاف حولها ، كم تمنيت أن لو بقيت في منفلوط شجرة رمان نخصها بمثل هذا التكريم •

واستبشرت بمنفلوط مرة أخرى لأن واحدا من أبنائها كان من أعز النــاس لدى الجيــل الذى أنا منه ، مصــطفى لطفي المنفلوطي • أسال من صخرة الفصحى عينا سلسبيلا كم نهلنا منها وارتوينا ،ان سحره لا يقاوم وفضله علينــا عظيم ، ولو أنه رحمه الله أكبر مســئول عن دموع مآقينا وزفرات صدورنا وخفقات قلوبنا ونحن نقرأ له «العبرات» و « مجدولين » ـ أو « تحت ظلال الزيزفون » • لم نبال أن نسأل « ما معنى الزيزفون » ؟ مهما يكن معناها كفي أن لها رنينا جميلا له طعم حلو فى الفم ويغمرنا بلذة رقيقة توحى بالأحلام ، ألا ترى أنها تصلح اسما لآلة موسيقية ؟ خلصت للصبا أوهامه ولم يفسدها لحسن الحظ ادراكنا فيما بعد أن الزيزفون هو التليو ، كل ما نعرفه عنه أن أوراقه تبــاع فى الصيدليات ـ وهى أبعد شيء عن الأحلام ـ لعلاج الأرق والحمى ، ولا يوحى مذاقه العطن بنسائم الحب التى كانت تفوح لنا من اسمه •

وقد بحثت عن أسرته فى منفلوط فوجدت له أخا معمما مثله ، معروفا بالفضل والعــلم والتعفف ، ولكنى وجــدته صموتا منقطعــا عن النــاس ، ورغم ما بذلت من التقــرب والتــودد لم أظفــر منه بشيء ينفعنى فى معرفة المنفلوطى ، بل كان الحاج هذا الغريب بالسؤال مســتغربا ان لم يكن مستهجنا • وكنت أحب أن تتجدد فى منفلوط ذكرى ابنها الكاتب الكبير فيحتفل بيــوم مولده أو وفاته ، أو تقــام مكتبة عامة صغيرة تسمى باسمه ، وتخصص حجرة منهــا لجمع مخلفاته وأوراقه وصوره ومؤلفاته •

أمضيت أول ليلة فى منفلوط باستراحة المركز • حجرة ليس بهــا الا سرير ســفرى وكرسى للجلــوس أو تعليــق

الثياب ، أتبادل معه العرى واللبس • حجرة جرداء باردة بلا روح ، لو شغلتها أسرة معيلة لما أحست أنها مسكونة ، سقفها عال ، كأنك فى قعر بئر ، السفلى من جدرانها مطلى بدهان أزرق كئيب محبب كحمو النيل ، والعلوى من جص كالح سقط من الجرب بعضه دون البعض ، يرسم أشكالا لا تثبت للعين على هيئة واحدة : بقايا وجوه خبيثة تستدير لك فى حركات مفاجئة مرة يمنة ومرة يسرة ، ثم تضيع وسط أشلاء الخراب لتبرز تتجسس عليك من جديد •

يصل الى أذنى طول الليل أصوات جر سلاسل ، وخبط بالأكف على البنادق ، ووقع حوافر خيل الداورية خارجة داخلة على عواء الكلاب ، وعناء مفاتيح لا شك غليظة تدور فى أقفال ، وصرير أبواب لا ريب ثقيلة تفتح وتقفل ، وضوء يسيل وهو مختنق • وسطل تهوى على جانبه يده فترن كالجرس ، ورش للماء كطرقعة سوط رفيع ، وحديث كله صراخ لا أتبين ألفاظه ، كأنه فض لا ينتهى لنزاع يتجدد ••

يخال الى أن هذه الضجة تصلنى من عالم قصى مجهول ، لا أدرى هل أنا فى حلم أم فى يقظة ، ثم أخذ الليل يذوب ويضمحل شيئا فشيئا ، وفجأة عم ضوء وهاج عنيف ، انتشلتنى يده ــ كالغريق ــ من لجة الظلام • الساعة لم تبلغ الخامسة ، أمامى ثلاث ساعات على الأقل لا أعرف كيف أقضيها فكان عذابها على فى النور أشد وقعا من وساوس الليل البهيم كله •

وحين نزلت ومررت أمام « البلك أمين » قيد اسمى وساعة وصولى للمكتب فى دفتر الأحوال •• حينئذ أدركت أننى نمت تلك الليلة انسانا واستيقظت معاونا للادارة •

معاون الادارة

وجدت على مكتبى أوراقا مكومة شذر مذر فى تل مرتفع، فمعاون الادارة كان فى عهدى تلقى عليه كافة الوزارات أعباءها ، فهو يؤدى أولا كل خدمات وزارة الداخلية ، من تحقيق للجرائم ، والخروج فى الدوريات ، وانتخابات العمد والمشايخ والتحقيق معهم وتحصيل الجزاءات منهم ، والتفتيش على السلاح غير المرخص به وضبطه ، والقيام بتحريات عن طلبات جديدة للموالد والاشراف عليها ، وحماية شركة الأسواق الانجليزية بزج الفلاحين قسرا داخل أسوارها واحصاء السكان ، والبحث عن الغائبين والهاربين ، واصدار رخص فتح الدكاكين ، وابطال المدافن القديمة ، وانشاء مدافن جديدة ، والسماح لثرى أن يدفن فى مسجده ، وحضور مزاد المعدية وتحصيل رسومها ، وجمع الحجاج وتسهيل سفرهم ، ومراقبتهم عند عودتهم . وأخيرا توزيع بطاقات حفلات الجمعيات الخيرية قسرا على العمد والمشايخ ، وسوقهم للسفر الى القاهرة أو الاسكندرية لحضور تشريفة كبرى فى عيد جلوس أو عيد ميلاد .. ولوزارة المالية تحصيل الضرائب كلها ، والحجز على المتخلفين وبيع متعلقاتهم ــ فهو المشرف على الصيارفة ــ ومسح الأراضى لتعديل الضريبة ، ومسح المواطى والجزر والعلو وأكل البحر ــ فهو المشرف على المساحين ــ وصيانة أملاك الحكومة وتحصيل ايجارها ، وتقدير قيمة المبانى،

وتحصيل رسومها .. ولوزارة الحربية اعداد قوائم المجندين وحضور الفرز ـ وهو يوم عصيب ـ وضبط المتسحبين .. ولوزارة الزراعة مقاومة الدودة والجراد وآفات النبات والحيوان ، وتنفيذ قانون ثلث الزمام ، والاشراف على اعداد الاحصائيات التى تطلب من العمد والمشايخ عن المحاصيل والأشجار ، وهي احصائيات « خليها على الله » ! . ولوزارة الأشغال حراسة جسور النيل ، والمرور عليها ، واصلاح كسورها .. هو يد الحكومة فى تنفيذ بقايا السخرة فى قسر الفلاحين على الخروج لحراسة الجسور وتقديم البوص والحطب .. ولوزارة العدل الحضور عن الحكومة فى القضايا المرفوعة منها ضد الأفراد ، وتنفيذ أحكام الطاعة ، والمشاركة فى أعمال المجالس الحسبية ، وتلقى طلبات القناصل الفخريين .. ولوزارة المواصلات تحصيل رسوم انتفاع الأهالى بجنبيات شريط السكك الحديدية ، ولها نصيب فى ازدياد عمله من ضبط المسافرين بلا تذاكر ، ومعاينة حريق المحاصيل من شرر القطارات ، وتحقيق حوادث القاء حجارة على الشريط ـ وهي حوادث كثيرة .

انني اذا لم أتعلم من هذا العمل كل شيء عن بلادى وأهلها فاني اذن حمار .. مع الاعتذار لأصدقائى الحمير ! .

منفلوط

وجدت منفلوط بلدا خفيف الدم معتدل المناخ غير محروم من الماء والنور ، لا يندفس فى حضن الجبل ، بل

يتوسط رقعة تفصل بين النيل وجسر « الابراهيمية » ، يحاذيه شريط السكة الحديدية • اذا نزلت من القطار قابلك الريف من فوره ، عن يمينك حوض متسع يمتد زرعه الى نهاية البصر ، وعلى يسارك دور حديثة ، وقهوتها، وبناء المحكمة ، والمركز ، وقصر الطرزى ، وبركة غير صغيرة ، هى أول لقاء لى بمشكلة البرك فى الريف ، ثم ينعرج الطريق الى اليمين نحو الجنوب الى أسيوط عند موقع نقطة الموسسات •

ان منفلوط تمتد نحو المحطة لا نحو النيل • وكنت لا أبلغ الموردة الا بعد مشقة وعبر حقول ليس فيها طريق للمرور •

ووجدت أبناءها ـ هي وقراها ـ أهل طيبة وأمانة وحياء لعلها سر انقباضهم عن الغرباء أمثالى من الموظفين •• لم يشذ منهم الا قرية واحدة عرفتها فيما بعد حينما تكفلت هى وحدها بأكبر نصيب فى جرائم القتل • اننى أعز منفلوط لأنها أكرمتنى وعاملتنى باحسان وأغمضت عينيها عن حماقاتى وعيوبى •

ينبغى لى أن أبحث بسرعة عن مسكن لا لأجد فيه المأوى فحسب ، بل لأتخذ فيه مطبخا يقيم أودى ، فلم أجد فى منفلوط مطعما واحدا أستطيع أن آكل به • وعثرت على مسكن صغير مستقل ـ ايجاره مائة وثمانون قرشا ـ نصفه بالطوب الأحمر ونصفه الآخر لحسن الحظ بالطوب النيىء ، فقد ارتاحت نفسى لهذا الاطار الصادق للصورة الجديدة لحياتى • وكان أول شىء فعلته أن اشتريت لبدة وزعبوطا ، أزعم فى غرورى أننى أجد فيهما الالهام اذا جلست أكتب فى الصعيد ، وهذا مثال من تقاليع ناشئة

الكتـاب وأوهامهم ·· لا يعلمـون أن النفس ترفض كل تحايل · نعمت بالاستقلال وشقيت بالوحدة لأول مرة فى حياتى ·· أنا رب الدار وأهلها ، لا يسألنى أحد متى والى أين أخـرج ومن أين أعود ، ومع ذلك فمن الغـريب أننى مكثت زمنـا طـويلا اذا رجعت متـأخرا بالليـل لمت نفسى وشـعرت بانقبـاض المذنب يخشى القبض عليـه متلبسـا بفضيحة ، وفتحت الباب محاذرا أن أحدث ضجة ، وعلوت السلم متسحبا كاللص على أطراف قدمى ، كأننى أتوقع أن ينفتـح فى بيتى المهجـور باب وينـدلق فى الظـلام نور ويضبطنى صوت شبح أمى تقول « هل عدت ؟ » كانت هذه هى عادتها معنا ، لا تنام الا اذا اطمأنت أننا عدنا جميعا لم يدهسنا ترام ·

ليس لى فى زحمـة العمـل وقت أستطيع أن أتريث فيه وأسأل نفسى : « ما الذى حدث ؟ ما الذى جرى لك ؟ » ·· اننى لا أرقبهـا ، ومع ذلك أحس بأن مألـوف طبعى يذوب شيئا فشيئا ، تحل محله عادات جديدة مفترسة تتناولنى بأنيابها ومخـالبها ·· وجدتنى لأول مرة فى حيـاتى يعلو صوتى ـ مع الأسف ـ بأقبح ألفاظ السب الوقح الفـاحش المقذع الداعر ، لعلى كنت أجد فى مقدرتى على التفوه بها لذة كبيرة تعوض حرمانى وأنا صبى من مجاراة رفقـاء الحارة فى هذه المتعة العجيبة ··

فهذا السب انتقل الى بالعدوى من زملائى ، فهو وسيلتهم الأخيرة فى استخلاص الحقيقة من أفواه المتهمين والشهود والمراوغين ، فالقضية البسيطة التى ينبغى أن نفرغ منها فى غمضة عين تنقلب بمجرد بدء التحقيق الى « حسبة برما » · الشهود لا يفهمون السؤال ، اجابتهم خارجة عن الموضوع ،

لا يقولون لك الحق الا بعد جهد شديد ومراوغة ، لا يأبه الواحد أن يعدل من فوره عن قول سجلته فى محضرك منذ ثانية فيقلب التحقيق رأسا على عقب ، لا يلتمس لنفسه عذرا ، أفواههم بئر عميقة تجر منها دلوا ثقيلا • ثم ينشب العراك بين المتهم والمجنى عليه وبين المتهم والشهود وبين الشهود بعضهم وبعض ••

يحدث كل هذا فى ركن حجرة صغيرة ، وفى بقية الأركان قضايا وضجة مماثلة ، ينهدم بعض زملائى فتنبعث من حلوقهم ألفاظ السب الداعر كأنها صرخة استغاثة واحتجاج ، أو كأنهم يرونها وسيلة للارهاب ، أو أقل عقاب يستحقه هؤلاء الناس لقاء ما يذيقونه لهم من عذاب ، بل يذهب بعض زملائى فى قنوطه الى حد القيام من مكتبه وصفع المناكف بالأقلام على صدغيه ، وفيهم من ينادى عسكرى المركز ليحمل عنه مشقة هذه الغلظة الفظة • والمصيبة أننى اقتديت بهم أيضا •

انى أعترف بجرائمى لأنها سقطت بمضى المدة ••

دبوس

اننى لم أنس هذه القضية •

كانت القرية فى ذلك اليوم ـ ككل يوم ـ منصرفة الى شأنها ، يباع فيها الزمن بالنهار لا بالساعة ، اذا لم يعل الولد ظهر جاموسته ـ قاعدا أو راقدا ـ أو يذهب للغيط بقي فى ساحة القرية يجري ممتطيا عودا من حطب الأذرة •

فاذا بهم يهل عليهم رجل لا أدرى من أين ٠٠ رجل فى عمامة خضراء وفي يده دف ، وفي يده الأخرى شيء اسمه الدبوس ، وهو مسمار غليظ طويل ، له رأس كبيرة من الخشب ، انه جاء يعرض على أهل القرية كراماته ، فيدق لهم على الدف مترنما بأناشيد في حب الرسول حتى تدمع عيناه الكحيلتان ، فاذا تجمع الناس حوله ـ والأولاد أكثرهم ـ صرعه الوجد ، وزاغ بصره وهمهم ودمدم ، وتناول هذا الدبوس فغرزه فى أحد شدقيه فخرج طرفه من الشدق الآخر ٠٠ ما شاء الله !! قدرة قادر ! ثم ركز سنه على عظمة ترقوته وأخذ يرقص والدبوس لا يقع ٠٠ سبحان الله له فى خلقه شئون !

ووقفت امرأة وراء صبيها ، هى أشد منه انبهارا ٠٠ فاذا بيد الرجل تهبط على رأس الصبى وتمسحه ويقول لها : مبروك ان فى ابنك شيئا لله ٠٠ رأيت عليه علامات الصلاح والوصول ، وسأثبت لك هذا ، وجذب الصبى وسط الحلقة وجعله يركز الدبوس فوق عظمة ترقوته ، لم يكد الصبي يدور دورتين حتى وقع على الأرض مغشيا عليه ، فانكفأت فوقه العمامة الخضراء تحمد الله وتشكره فقد تجلت على الصبى كراماته ، وانطلقت الأم تزغرد بأعلى صوت ، وجرت اليها بقية النسوة يزغردن أيضا ، وان لم يعلمن السبب بعد ، كان الدبوس بضغط رأسه الثقيل قد خرق سنه المدبب ـ فى غفلة ـ جلد الرقبة ، ونفذ من اللحم حتى طعن القلب ، وبدأ الدم يسيل الى جوف الصبى ، ولا أحد يدرى ٠ تتابعت شهقاته وحشرجته ، والشيخ يرقص والأم تزغرد حتى أسلم الصبى الروح وسط معالم الأفراح ٠

وبعث العمدة بالجميع الى المركز ، وعهد الى بالتحقيق ، وأخذت أدير بصرى بين الأم قد خدشت خدها بأظافرها ، وانتكش شعرها ، وبح صوتها ، وبين الدجال النصاب تحت عمامته الخضراء التى تغرر بالفلاحين ٠٠ فقدت حلمي ورباطة جاشي ، لا تؤلمني وفاة الصبي بقدر ألمي للزغاريد تنبعث من فم أمه ٠٠ لم أعرف كيف أضبط غضبي وقمت فصفعت هذا الرجل المسكين قلمين ، لا تستطيع أن تقول ــ ان رأيت يدى ــ أنهما قلمان ساخنان ٠٠ ومع ذلك ندمت وعشت أياما أتصور أن يدى ستصاب بالشلل لمجرد أن الرجل كان يرتدى عمامة خضراء ٠

آه ٠٠٠ ياعيني

هذه حادثة أخرى باقية فى ذهنى ٠٠

كنا فى شهر أغسطس ، لم نفارق مكتبنا منذ الصباح المبكر ، تغذينا فولا مدمسا ، وجاء المغرب وولى ، وجاءت العشاء وولت ٠٠ ونحن منهمكون فى العمل ٠ نأمل أن ياتى لنا الليل بنسيم عليل يجفف عرقنا ويفك توتر أعصابنا ويرطب حلوقنا ، كأن الأرض قد بلعت فى شهيقها هواء النهار الساخن فازداد فى جوفها التهابا ، وعند الليل بدأت فى زفيرها تنفخ به في وجوهنا ، هواء لافح يختلط فيه عطن الماء الآسن وزخمة الجحور ووقدة الطين وذوب القش والغبار والهاموش ، وخرجنا الى الطريق نتعلم المشى من جديد ٠٠ نعالج تخشب سلسلة الظهر والرقبة

وهمدان اليد ولسعة الجفون ، معاون البوليس ــ وهو رجل مهذب من أسرة طيبة ــ قد فك ــ رغم أنف القانون ــ أزرار سترته العسكرية ، يمشى كفـارس يتـرجل لفوره من على ظهر جواد بعد مشوار طويل ·· لم يخط خطوتين حتى هجم علينا رجل يضع كفه فوق عينه :

ــ يا سعادة المعاون ! الواد شحاته ضربنى قلع لى عينى ، فى عرضك ·· فى طولك ·· الحقنى ··

ياللمصيبة ، هذه جناية ! سنعود للمركز وسنقضى فيه بقية الليل ·· ولكن صبرا ، لا داعى لليـأس ، هذا الفتى نعـرفه ، أنه أكبر كـذاب فى المدينـة ، لا أعـرف من أين يرتزق فانى لا أراه الا متسكعا بجانب المركز ، يدخل علينا كل يومين أو ثلاثة وبيده بلاغ يشكو فيه ضحية له جديدة من خلق الله ·· بلاغات باطلة ، أو عن مسـائل تافهـة ·· لا شك أنه يكذب هذه المرة أيضا ··

رأيت المعاون فى شدة غيظه يهوى بقبضة يده على رأس هذا الرجل المناكف ، ثم يركله بقدمه ··

يا حضرة المعاون ! عينى ·· أنا فى عرضك ·

ينهال الضرب من جديد ونحن نضحك ونتوقع أن يرفع الرجل بين لحظة وأخرى كفـه عن عين سـليمة انطفأت فى نظرتها ــ فى قبضة الألم والخجل ــ لمعة التخـابث وحب المعـابثة · لن ينقـذنا الا طبيب المركز ليثبت لنا فى ورقة رسمية كذب مدعاه ، فنـادى المعـاون عسـكريا وكلفه أن يبحث عن الطبيب من تحت الأرض ويسـتكتبه ورقة بمـا نريد وجلسنا فى القهوة ، وتشاغلنا ونسـينا ما حدث ،

واذا بنا ننتبه الى العسكرى يدخل علينـا ويضرب سـلاما ويمد لنا يده بورقة :

« بالكشف على (•••) تبين أن عينه اليمنى قد انقلعت من محجرها •• »

هذه صورة كريهة ـ وسأذكر مثلها فيما بعد ـ هى من ماض محـزن كانت مصر تعيش فيـه مذهولة عن نفسـها وفضائلها لذل الاحتلال وافتقارها لحاكم يؤمن بها ويثبت أقدامها ويصغى لوجيعتهـا ، مضى هذا العهد ومظاهره الى غير رجعة ، حينما ظفر الشـعب بوحدته وتضامن طبقـاته وآمن بعزته وكرامته وتولى أمره أبناؤه •

دجالون

ذكرنى لابس العمامة الخضراء بالدجالين المنتشرين فى الريف ، يستغلون سذاجة الفلاحين ، هم على أنواع ، منهم المقيم ، أكثر زبائنـه من النسـاء ، يـكتب لهـن الأحجبة ويشـفيهن من العقم الخ الخ •• مـكرهم هين ، وخطـرهم قليل ، وسطوهم على المال معتدل ، لأنه متصل ، يزعمـون الصلاح والولاية ، تتبرك بهم النسوة ولا يرهبنهم •

ونوع آخر من المقيمين يزعم أن بينه وبين الشيطان عهدا وميثاقا ، فهو مرهوب ، اذا مر وسـط الناس تباعدوا عنه حذر أن يقع ظله عليهم ، ضحاياه من الرجال ، فهو القادر ـ ان شاء ـ على أن « يربط » الواحد منهم فيصبح وهو فى أتم صـحة عاجزا عن التمتع بالحب ، ثم اذا شـاء فك فى

غمضة عين وثاقه ، وهذا أعجب مثال رأيته لتغلب الوهم على نفوس الفلاحين ، والغريب أن الضحايا لا يكتمون بلوتهم ، ولا يأبهون أن يشيع خبرها ، بل لا أبالغ اذا قلت انني آنست في وجوههم دلائل السرور والسعادة كأنهم تلاميذ ظفروا بأجازة غير منتظرة ٠

وكان أشهرهم رجل يقيم فى قرية بطرف الوادى ، يقع منزله على سفح الجبل ، وهو مأوى الجن ٠ اذا طلع النهار ذابت الجن كالثلج تحت وقدة الشمس ، وتلاشت أشخاصها وتحولت الى فتات يطاردها الريح كالكلب المسعور من الكهوف والجحور ، ويبعثرها ويضرب بها الصخور ، صفيره من ولولتها وعوائها ٠٠ ولكن صبرا سيأتى الليل ، سينزل المؤذن بعد أن دعا الى صلاة العشاء ، وما هى الا دقائق حتى يتم الركوع والسجود وتنقطع تلاوة القرآن ، ويأوى الناس الى المضاجع ويغلقون عليهم أبوابا يظنون في غفلتهم وبلاهتهم أنها تحميهم ٠٠ لا يعلمون أن الجن تنفذ من عقب الباب ٠٠ حينئذ تتجمع الجن من جديد ٠٠ ويتضح لكل منها شخصه وتبسط مرة أخرى سلطانها على الأرض ، تعقد الندوات ، وتستضيف أشياعها من بنى آدم ٠ هذه هي اللحظة التى ينفلت فيها هذا الرجل من مسكنه ، فيغشي الجبل ويغيب رسمه ، لا تخطىء قدمه موقعها وان كان الليل فى لون الحبر ، كأنما تقوده يد خفية ، تؤاخيه الذئاب ، وتسلم عليه العقارب ٠٠ هذا ما يزعم الناس ، والرجل راقد فى فراشه ، يحاذر أن يغادر داره لكثرة أعدائه ٠٠

وقد سعيت الى لقائه ، فوجدته قزما نحيلا يلبس فى عز الصيف زعبوطا خشنا يكشف عظام صدره ، مجعد الوجه ،

عيناه دائرتان ، لم أر مثله جمعا بين الحذر والتوثب ، والدفاع والهجوم ، تنطق ملامحه بهم من اطلع على سر مخيف غير مأذون له أن يفضي به الى أحد ، كأنه فرغ لتوه من مسح العرق من على وجهه بعد مشادة عصيبة طويلة استنفدت قدرته على التحدث • لا أدرى لماذا بنى طول جلستى معه وكف له مبسوطة ، وأخرى مطبقه . كأنما جعل فى الثانية تدبره ، وفى الأولى كلامه • أطبق فمه وراوغنى وأنكر شهرته ولم أفلح فى أن أستلين هذا الذئب المتحفز •

هذه الرهبة التى يبعثها فى قلوب الفلاحين هى التى قادته ــ فيما أعتقد ــ الى الاشتغال أيضا بالاقراض بالربا الفاحش •• حين يأتى موسم جنى القطن تكون يد الفلاح فارغة من المال فلا يجد مفرا من الالتجاء للمرابين • وكان ثمن القنطار فى ذلك العهد ستة جنيهات ولكن المرابى يشتريه قبل الجنى بثلاثة فقط ، أى أن رأس ماله يتضاعف فى أقل من عشرة أيام ، ولا يقبل على اقراض الفلاحين بالربا الفاحش الا من كانت له سلطة عليهم ليضمن رد ماله ، فهذا هو سر التحاق ساحر « الربط » بأسرة المرابين •

وجدنا جثته ملقاة ذات يوم على الجسر ، فى عب زعبوطه لفة ضخمة من عقود مبرقشة ببصمات الأصابع ، وفى جسده أكثر من عشرين طعنة سكين ، وطوى التحقيق سريعا وسط شماتة الناس كلهم ، لم نعرف الفاعل ، وأجمع الرأى على أنه واحد من مدينيه لا مربوطيه ، وكنت أقول لنفسى : لعل الدليل على ذلك أننى لم أسمع امرأة واحدة تزغرد حين شاع خبر مصرعه •

***

دخل على فى المركز ذات صباح رجل يكاد يسقط من الاعياء ، مصفر الوجه محمر الجفون وشكا لى أنه لم يذق

طعم الراحة منذ أسبوعين ، فمايكاد يأوى الى فراشه وتنقطع الرجل من الطريق وتدخل عينه فى النوم حتى يفزع لهبـد مكتـوم متـكرر يهز الجـدران ، ينبعث من منـزل جاره ، لا ينقطع الا عند بزوغ الفجـر • سـأل جاره عن الخبر ، فأنكر انكارا شديدا أن الصوت منبعث من منزله ، وأقسم أنه ينام وأهله مع العشاء ، ورجح أن هذا الهبد هو معابثة جن فى منزل الرجل نفسـه ، وأكد له أنه لو صـبر عليها أسبوعا ، أسـبوعا واحدا فحسب ! •• فانهـا ستستنفد رغبتها فى هذه المعابثة وتنصرف باذن الله ، ويحسن صنعا لو أطلق فى منزله البخور الجاوى • (دهش الرجل لكلام جاره اذ لم يعهده من قبل خبيرا بالجن والبخور) •

بعد العشاء بقليل اصطحبت أحد العساكر وسرنا حتى بلغنا المنزل ، ووقفت على الباب قليلا ، فاذا بآذاننا تسمع ـ كما قال الشاكى ـ هبدا مخنوقا متواليا ، دققنا الباب دقا يماثل هذا الهبد فى قوته أو يزيد ، ولكن الباب لم يفتح • وبدأت الناس تتجمع حولنا وتعلو أصواتهم وأدرك جميـع أهل الحارة أنها « كبسة » ••

وبعد قليل انفتح الباب ووقف أمامنا رجل يلف رأسـه عرضـا بمنـديل أحمـر تورمت فى الجبهة عقـدته ، خلع جلبابه وبقى فى قميص ممـزق وسروال منتفـخ مسـود ، تتدلى دكته الى الركبتين ، معفر الوجه واليدين والقدمين بل كأنما أهيل على جسده كله تل من التراب ••

وقعت نظرته علينا ثم طارت الى باب القاعة المفتوح على الفناء ، الى اليسار منا ، فباب الفلاح لا يفتح على الفنـاء ، بل على مدخل وراءه جدار •• لئلا تنـكشف الحريم لأول نظرة من القـادم ، فقـادتنا نظرته وحـدها ـ شـأن كل

الخائفين ـ الى مكمن النسر ، لم نكد نصل باب القاعة المواربة حتى وقفنا مبهوتين ، فقد أصبحت تلالا عالية من التراب الرطب ، تدور مع الجدران ، ووسطها بئر عميقة يهبط قاعها خمسة أمتار على الأقل •

تبين من التحقيق أن الرجل وُقع في يد نصاب محتال أوهمه أن كنزا عظيما مدفون في أرض منزله ، وسلبه كل ماله حتى باع مصوغ زوجته • واختفى المحتال ولم نستطع الاهتداء اليه لأنه غريب عن المركز ، وظل الرجل أسبوعين لا يذوق فيهما هو الآخر طعما للنوم ، يمضي ليله كله في فحت الأرض ، دون أن يلحقه اليأس •

غضب المأمور على لأن الشكوى الادارية الأولى عن الهبد المكتوم قد انقلبت في يدى الى جنحة نصب ستضاف الى احصائيات الجرائم في المركز • •

***

أما المحتال الآخر فأشد جرأة ، لم يختنف بعد فعلته ، بل رأيته يجلس في القهوة مطمئنا ، يشرب الشيشة بلذة كبرى • هو أفندى من أهل القاهرة ، يكسب مالا وفيرا من كشف الطالع والمستقبل ، وليس بلازم أن تأتيه بنفسك ، بل ترسل له ـ من أى مكان في الأرض ـ خطابا داخله حوالة بريد بأربعين قرشا • • ولكنه لا يقنع بهذا كله ، فلهُ ـ كالأعيان والسياح ـ رحلة في الصيف الى وجه بحرى ، ورحلة في الشتاء الى وجه قبلى • • لا أظن أن مرجع أسفاره هو قلق نفسه ، بل أرجح أن سر بقائه هو معرفته متي يقب ومتي يغطس •

قربت مقعدى منه فلم تمض دقائق كثيرة حتى وجدتنى اجلس منه جلسة التلميذ •• أفاض على بكلام ساحر عن التصوف ووحدة الوجود ، ومعنى الظاهر والباطن ، وعن انهزام كل القوانين أمام النفس الواصلة •

لجأت اليه أسرة فى المركز ليشفى بنتا لها مصابة بالصرع ، فطلب أن يتركوها فى الدار معه لأن العلاج من الجن يتطلب أن يختلى بها بعيدا عن الناس •

لم يكد ينصرف بعد الخلوة التى طالت ، مبشرا بالشفاء ، موصيا أن تترك الفتاة لحالها أياما لا ترهق بسؤال ، حتى رأت الأسرة من فتاتها تحولا بعد اعتداء له آثاره ، فطار اليه أب الفتاة لا يقوى على أن يستل غضبه من براثن الخوف والرهبة من عالم الجن المسيطر عليها ، ففاجأه الدجال بقوله :

ـ ماذا كنت أفعل ؟ لقد استطعت أن أسيطر على العفريت الذى تلبسها وأمرته بالخروج من جسدها ، فقال ان أمامه طريقين لا غير ، أحدهما من عينى الفتاة • فماذا كنت أفعل ؟ هل كنتم تريدون منى أن أفقأ عين فتاتكم ؟

كتم الأب جرحه ولم يتقدم الينا بشكوى ضد هذا المحتال خشية الفضيحة •

ظللت طوال الجلسة أتطلع الى وجهه محاولا أن أستشف سر هدوئه وثباته واطمئنانه ، وكدت أملس عليه طلبا للعدوى •

***

ولكن اغرب نصاب صادفته فى الصعيد لم يبعث فى

العجب لجرأته بقدر عجبي لسذاجة الفلاحين ، فان حادثته عندى هي مضرب الأمثال في انهزام العقل بل انهزام الغريزة أمام الدجل ٠

في منفلوط سيدة تعد من بين الفلاحين موسرة ، وهي في نظر الموظفين مثلي فقيرة ، كان لها ابن وحيد ، حين بلغ سن الشباب خرج ذات يوم من داره ثم لم يعد ، اختفى كأنما بلعته الأرض ٠ هل هو حي ؟ هل هو ميت ؟ أين هو ؟ ٠٠ لا أحد يدرى ، لبست أمه السواد عليه ، أهون لديها أن يصلها خبر موته من ألا تعرف له مزارا تقصده في المواسم والأعياد وتؤنس عزيزها في وحشة القبر ، وتوزع فوقه الخبز والتمر على الفقراء لينزل برها رحمة ونورا عليه ، ومر أكثر من عشرين سنة لم يهدأ فيها حزنها ٠

جلجلت ذات يوم زغاريد من بحرى البلد ، هذا فرح يستوقف فيه المارة الغرباء وتوزع عليهم أكواب الماء المحلى بالسكر ، تقيمه هذه السيدة ابتهاجا بعودة وحيدها بعد الغياب الطويل ٠ طرقت بابها في الصباح يد لا تألفها فلما فتحته وجدت أمامها رجلا يلف رأسه بكوفية تغطى شراشيبها جبهته وأذنيه ، فلم يكد يراها حتى ارتمى على صدرها يقول : « أمه ، أمه ، أنا رجعت أهوه » ٠ بهت وجهها وتخاذلت ، يكاد يغشى عليها ، لها نظرة تنبعث من عينين أذبلهما البكاء وغطاهما بطبقة صفيقة من السحابات ، تريد أن تتملى من وجه حبيبها وهو يدفس وجهه في صدرها ويبكي ٠

وظل الفتى أياما ، جلسته أمام الباب يستقبل المهنئين ، يأكل الشقانق والمقانق ، ولا يخلو جيبه من نقود ، ويشعل سيجارة من أخرى ٠ ولكن ماذا تقول في الطمع وخسة

الطبع ، كانت للسيدة اسورتان من ذهب وخلخالان من فضة ، لقد انقضى عهد التزين ولكنها تحتفظ بهما فى قعر صندوق خشبى فى حجرتها ليوم الزنقة • كانت تصعد السلم ذات صباح بعد أن أعدت لحبيبها فطوره ، محنية الظهر ، تكحكح فرأت ابنها يخرج من الحجرة مهرولا ، ولما رفض البقاء حين استوقفته ، شيعته قائلة : « روح اتفسح ربنا يكتب لك فى كل خطوة سلامة ! » •

ودخلت الحجرة فرابها أن الصندوق لا يحسن اطباق فمه ، كأنه أبكم يريد أن ينطق بكلمة من بين شدقيه لا من طرف لسانه ، فتحته فرأت الثياب مبعثرة والأساور والخلاخيل قد طارت •• فزعقت زعقة واحدة •

لا يعلم أحد على أى مصيبتيها تنوح ، ولحقته الزعقة وهو مجد فى خطوه فى أواخر الحارة ، فجرى ، وما يكاد يجرى حتى جرى الناس وراءه ، وانكشف أمره وجاءوا جميعا للمركز وأحيل التحقيق على •

واستفاقت السيدة أخيرا للنصاب الذى غرر بها ، لا لأنه سرق حليها ذخيرة العمر ، بل لأنه حين قبض عليه لم يلجأ اليها مستعطفا يقبل يديها ، معلنا توبته ، بل رأته ذليلا كفأر وقع فى مصيدة لا يهمه الا أن يجد لنفسه مخرجا ، أما هى فقد نسيها ، لا يوجه اليها نظرة واحدة • سألته عن اسمه فتلجلج قليلا وزعم لنفسه اسم ابنها الغائب ، فناديت العسكرى وقلت له :

ـ اعمل له فيش وتشبيه •

سحبه العسكرى من تلابيبه لا من يده امعانا فى اهانته ، ومضى به نحو الباب ، وفهمت الأم أنها مطـالبة بالانصراف أيضا ، ولكنها تجمدت أمامى تدير رأسـها تلاحق ظهر من غشها وسرقها بنظرة غائمة ، لو عاد ابنها لكان فى مثـل عمره ، وسمعتها تتمتم : « روح الله يسامحك » •

وبعد أيام وصلتنا صحيفة سوابق طويلة مهيبة •

سمات مهملة

يحمى الفلاح من هؤلاء الدجـالين ويشـفيه من أضغانه وأحقاده واضـماره الثأر رجال طـوافون يشتـهرون عنده بالصلاح والتقوى والولاية ••

مر على بالصـعيد نفر غير قليل من هؤلاء الملـوك غير المتوجين •

لا حد لسلطانهم على رعاياهم ، لهم أيضا جولات موسمية ينتقلون فيها من عشيرة لأخرى • فمـا يقدم الواحد منهم وينزل عند أحد مريديه حتى تنقلب حياة البلد من النقيض الى النقيض ، تحس فى الجـو أن الهـدنة قد أعـلنت وأن النـاس قد فرغوا من أمر دنيـاهم الى دين نسـوه زمنا ، فحلقـات الذكر لا تنقطـع ، والصـلوات تقـام جماعة فى أوقاتها •

ويلتف الفـلاحون طـول النهـار ومعظم الليـل حـول الشيخ ، لا ترتكب جريمة واحدة ، يصالح الخصم خصمه ، ويسترد الرجل مطلقته ، ويعذر الدائن مدينه ، الرجال فى

خشوع واستعبار ، تكسو وجوههم سعادة كبيرة ، والنساء أكثر منهم سعادة لأنهن منهمكات فى اعداد أفخر طعام لديهن • يشعرن أنهن أصبحن هن وأولادهن فى حرز منيع •

رأيت بعيني رجالا يتخاطفون ماء وضوء الشيخ ليشربوا منه ، ولا يرفع فمه من القلة حتى تدور على بقية الجالسين للتبرك ، وما يكاد الشيخ يعلن عزمه على الرحيل حتى يحلف رجل بالطلاق ثلاثا الا أقام أسبوعا آخر ، فاذا انقضى أقسم رجل آخر اليمين ذاتها ، وهكذا دواليك •• وكنت أسأل نفسي : لماذا لا تظل القرية هكذا فى سلام طوال السنة ، ولماذا يغلب الشر من جديد متى غادر الشيخ؟

وقد حضرت مجالس كثيرة من هؤلاء الشيوخ واستمعت الى كلامهم ، فلم يبهرنى منهم علم ولا أحسست بقوة روحية خارقة ، وظهر لى أن الولاية عندهم مهنة متوارثة لكسب الرزق • اننى لا أتهمهم بسوء ، وأبرئهم من بذل أى ضغط أو ارهاب للاثراء ، وان كان أكثرهم يميل الى البدانة لا الهزال ، الهدايا تقدم اليهم عن طواعية وطيب خاطر ، ولو رفض الشيخ هدية المريد لأصاب قلبه بطعنة لا يبرأ منها ••

ان نفع هؤلاء السادة للفلاحين فى عهدى ــ ولا أعرف الحال اليوم ــ كان عظيما ، لا يقتصر تأثيرهم على الفلاحين السذج فحسب • كان فى منفلوط كاتب مدرسة لا يرى بأسا من أن يلم بالخمارة بين الحين والحين ، وأن يكتب العرائض الغفل من الامضاء للنكاية برؤسائه وكان من مريدى أحد هؤلاء الشيوخ ، فرأيت بعينى ــ حين حل الشيخ ــ وقت نومه أقل من وقت ركوعه وسجوده حتى نبتت له زبيبة الصلاة ، وبح صوته من حلقات الذكر وتلاوة

الأوراد ، وانقطعت العرائض ونطق وجهه لنا جميعا بحب صادق ، فلما رحل الشيخ عادت ريمة لعادتها القديمة ٠

وقد شذ عنهم وبقى فى ذاكرتى الى اليوم يحوطه اجلالى واكبارى ، شخص نحيف ، يكاد يلتهب جسمه ، يشع الذكاء من عينيه ، مبرأ من الدنايا والصغائر ، قد صرع الخداع فى نفسه ، يعلم ما يفعل ولا يفعله الا حسبة لله وخدمة لبنى قومه وأخذا بيد هؤلاء الفلاحين المساكين ، اذا تركوا لأنفسهم بلا هداية ضلوا ضلالا بعيدا ٠ هو الشيخ ابراهيم القاياتى رحمه الله ، لم أره يرضى أن يتبرك به كالصنم ، وكانت له سطوة كبيرة فى الصعيد وكان له فضل كبير فى فض الحزازات وابطال الثأر ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها ، لم يكن كل كلامه عن الدين ، بل نصائح أخ مجرب ٠٠

رأيته مولعا بالتدخين ٠ فالتفت الى وقال :

ـ لعلك تسأل نفسك كيف ابتليت بهذه العادة وكان خليقا بى فى نظرك أن أبرأ منها ، هذه سفاسف الدنيا ، لا أجد فيها عيبا ٠

تتبعت فيما بعد باعجاب كبير أخبارا كثيرة عن الشيخ ابراهيم أبو خليل ، رحمه الله ـ الذى كانت له مكانة سامية فى الزقازيق ـ تتبين منها حسن سياسته فى توثيق روابط الألفة والاخاء بين أسر عديدة ٠ وددت كثيرا لو تجمع لى قدر كاف من أخباره لأستطيع أن أترحم له وأصف سياسته ، فهذه سمات مهملة فى التأريخ لمجتمعنا الحاضر ٠

***

احصائيات

ينبغى لى من أجل أن أصل بك الى الغـاية أن أقدم لك بعض المشاهد .

المشهد الأول :

على الدكة أمام منزل العمدة ، فرشها اكراما لى ببسـاط منسـل حائل اللـون . فى يدى أكثر من عشرين مسـألة يحتاج الفراغ منها أن يجند لى العمدة نفسه وأهله وخفراءه وحميره .

التليفون لا ينقطع عن تلقى اشارات عاجلة من المركز . وجاء الصراف على ركوبته ووقف أمامنـا وأنزل على الأرض زكيبتين منتفختين .

ـ خير ان شاء الله ؟

ـ آدى اللى طلعنـا به من المركز بعـد مادوخونا . وجع دماغ واصل .. استنى لما تشوف .

أخرج الصراف أمعاء الزكيبتين ، لفات ضخمة من ورق الميرى ، ولما فكها وجدت أمامى أكبر اسـتمارة رأيتهـا فى حياتى ، كأنها لحاف ، لا يقـل عرضـها عن نصـف متر ، وطولها عن المترين .

ـ مطلوب منا فى مدة أسبوع واحد أن تملأ الاستمارات .

ـ هى ايه المخروبة دى ؟

هذه استمارات الاحصاء الزراعى العام • صدر به قانون ، لا أدرى لماذا صدر ولا من الذى أصدره ، أغلب الأمر أننا دعينا الى مؤتمر دولى تعهدنا فيه بتبادل مثل هذه الاحصائيات طبقا لنموذج موحد •

ان مثل هذه المؤتمرات نكبة على الدول الصغيرة التى تنساق محافظة على كرامتها بالتعهد بأعمال تفوق قدرتها •

فالمطلوب أن يحرر كل مزارع هذه الاستمارة ليبين فيها مساحة أرضه وأنواع محاصيله ـ محصولا محصولا ـ ومقداره وأنواع ماشيته ودوابه ودواجنه ، وأشجاره بالاسم والتحديد •

فى الاستمارة أسماء لمحاصيل وأشجار لا أسمع بها ولا أعرفها • انها مترجمة من النموذج الموحد • من الذى سيملأ هذه الاستمارات ؟ أين الفلاح الذى يقرأها ويفهمها ثم يكتب بخط واضح ـ لا كتخربيش الفراخ ـ أجوبته أمام الأسئلة ؟

أدرك العمدة والصراف أنها مصيبة وقعت على رأسهما •

وقعد الصراف على الأرض وتناول أول استمارة ورفع قلمه عن أذنه ••

ـ خذ الأول أرض الباشا • بيقولوا ايه عندك ••

ـ كام شجرة لبخ ••

ـ قول عشرة عشرين •

ـ وكام شجرة بلوط •

ـ قول عشرين ثلاثين ، حد ح يعد ورانا •

ـ وكام شوفان ..

ـ شوفان ايه .. جتهم العمى .. والله ما نضرناه .. خط أمامه « لم كان » .

لم أقم من مجلسى حتى كان العمدة والصراف قد أنجزا عددا غير قليل من الاستمارات على هذا النحو . وظللت طول الطريق يخيل الى أن حوافر الحمار تكرر فى أذنى نغمة العمدة :

ـ حد ح يعد ورانا ؟

حقن الفروج

المشهد الثانى :

على باب العمدة ، فوق كرسى من القش المبروم ، صمم صانعه أن يلطخه بما بقى عنده من بوية شم النسيم للبيض بالأحمر والأخضر ، بحرى بيت العمدة مسجد القرية ، تفوح منه رائحة لم أر فى حياتى أخبث منها . أكاد أتقيأ ويغمى على والعمدة ومن حوله ولا هم هنا .. سمك قش الكرسى لا يقل عن سنتيمترين ، ومع ذلك نجح البعوض فى أن يشقه من تحت بابرته ـ كم طولها ـ فتنغرز فى لحم فخذى مخترقة مع القش البنطلون واللباس .. أمامنا عدد من دجاج نحيل يتخاطف بقايا روث البهائم .

أدركت أننى قطعت على الجالسين حديثا يتفكهون به ، بدليل الابتسامة المنتشرة على وجوههم .. ورأيتهم يتوجهون

ببصرهم الى الصراف وهو جالس على الأرض وبجانبه خرجه ودفاتره وفي يده ورقة طويلة عريضة يطبقها •• وكان أول من أعاد الحديث رجل شـيخ يلبس زعبوطا يكشف عن صدره ••

ـ وبعدين يامقدس خليل • كمل لنا قرايتك قول •

سألت الصراف : ايه الحكاية ؟

فناولني الورقة فوجدتها اعلانا كبيرا من وزارة الزراعة عن أوصاف طاعون الدجاج والاحتياطات الواجب اتخاذها لمقاومته : عزل الدجاجة المريضة ، ورش الأرض بالجير ، واستدعاء الطبيب البيطرى ، وأنها مستعدة بلا مقابل لتشريح كل دجاجة ترسل اليها •• فى مخازنها حقنة ضد هذا الطاعون ثمنها عشرون مليما •

التفت الى الرجل الشيخ قائلا :

ـ ياحضرة البيه ، عشنا وشفنا الفروج ينضرب فيها ابرة ، هى الفروج بنى آدم ؟ السنة اللى فاتت شكونى ابرة قعدت أوحوح جمعة ، اشحال الفروج يابوى ؟

ضحك الجميع بسرور وفهمت من تطلعهم اليه واستقرار الأنظار على وجهه ومن استعدادهم للضحك لأقل ملاحظاته أنه فى الغالب عجوز القرية المعروف بدعاباته •• وقلما تخلو من مثله قرية ، رد عليه الصراف :

ـ بس لو كان عندك كتكوت واحد بلاش تقول فرخة كان يبقى لك حق تتكلم •

ـ يعنى الفرخة خفت ولا ماخفتش مش ح تتاكل ح تتاكل ؟ تو ما تميل رقبتها الواحد يدبحها ويخلص •

ومين فاضى يلم الفراخ الميتة ويبعتها للحكومة ؟ دى والله على ما توصل تكون اتعفنت ٠

صرخ فيه العمدة :

ــ يا شيخ درويش ، ما تفهم ، عقلك طخين ليه ؟ مانتش عارف ؟ شغل الحكومة كده ٠

رويت لى عن هــذا الشــيخ نادرة أراها ــ رغم ألفــاظها المستهجنة ــ مثــلا فذا للذكاء والبراعة وصــدق النظر فى استخراج الفكاهة ، ولا أنكص من أجل هذا عن اثباتها هنا ، تعريفا للقراء بنوع من دعابات أهل الريف ٠

مر ذات يوم جمع من الفلاحين متحلق على الأرض حــول طبق فيه طبخــة عدس جعضــيض لا منزوع القشر ولا هو بجبته ، بل هى حبات من العــدس لم تنضــج فى سنابلها فتباع بثمن بخس ٠٠ وغليت بالماء حتى أصــبحت عجينة مثل اللبخة ٠٠ كريهة المنظر ، لا هى صفراء ولا هى حمراء ، فقال لهم ٠٠

ــ والله لو فســا عليهــا واحد من بحــرى لقــلت انــكم تاكلون خ ٠٠

ثلث الزمام

المشهد الثالث :

اجتمــاع على مســتوى عال فى المديرية ، واجتمــاع على مســتوى أوطأ فى المركز ، ثم انتقــالى ومعى قوة من الجند

السوارى الى القرية لأخلع أشـجار القطـن التى زرعت فى أكثر من ثلث الزمام ٠

كانت الحكومة لم تر وسيلة للحـد من هبـوط أسعار القطن الا أن تحدد الكمية المعروضة منه للبيع ، فأصـدرت فى ذلك العهـد لأول مرة قانونا يحـرم زرعه فى أكثر من ثلث الزمام ، ولكن لا أدرى ما الذى حدث ٠

لعـل الفـلاحين لم يبلغهم خبر القـانون الا بعـد زرع القطن ٠ أو لعلهم علموا به ولم يأبهـوا له ، ظانين أنه حبر على ورق ، على كل حال كان المطلـوب منى يومئـذ أن أرد القدر المزروع الى نصابه بالقسر والاكراه ٠٠

وجدت القرية كلهـا واقفة على رجل ٠٠ رجالا ونسـاء وأطفالا ، تجمعوا حولى : « فى عرضـك يا حضرة المعاون ، حرام عليك تخرب بيتنا ، بعد شقانا وتعبنا » ٠ أرى بعض الوجوه تكاد تنطق : وماذا يهمـك أنت من خراب بيتنـا ٠ أنت تقبض مرتبك أول كل شهر ٠

ـ هوا ده عدل ٠٠

ـ طيب استنوا عليه وخدوه قطن شعر ٠

كيف تطاوعنى نفسى أن أقلع زرع هؤلاء الفلاحين ٠ انهم لو فعلـوا ذلك فى زرع جيـرانهم لسـاقتهم فعلتهـم الى السجن ٠

فى ذهنى يوم أن حرث الفلاح الأرض ثلاثا أو رباعا ، ثم سواها ـ وهو محنى الظهر ـ من الصباح للمسـاء ، ورفع خطوطها وحفر مساقيها ٠٠ يوم أن خرج وفى حجره حفنة من بذور ميتة كالحصا ، يغرزها فى جانب الخط ، لا يدرى هل تنبت أم تتعفن وتمـوت ، يدعو الله يقيهـا شر ظلمات

الأرض ويريها النور .. يوم أن اتفق مع صاحب الماكنة على ري الفدان ست مرات لقاء ثلاثة جنيهات ، يوم جرى الماء أول مرة فغاص فى قنواته الى الركبتين ، يوم أن خرج من البذرة بصيص ، ساق هش تتعلق به ورقتان رقيقتان ، عاد فعزق الأرض وخف القطن ، يرمق النبت مشفقا ، لو نزل الصقيع لذوى فى طفولته ، أو عصفت به الريح ارتمى صريعا ..

يوم هددته دودة الورق ودودة الشرانق ، يوم زنقة اطلاق مياه النيل فى الحيساض قبل أن ينضج القطن ، بالنهار يحرسه وفى يده نبوت ، وبالليل يهجر بيته ويرقد عند رأس الحقل على بندقية ، يسعل بين الحين والآخر ليجاوبه جار مختف يطلق عيارا فى الهواء .

وقفت وسط الفلاحين أذكر كل هذا وأحار ماذا أفعل . فى ذلك اليوم قدمت لى الرشوة لأول مرة ، لا أزال أحس فى يدى ضغط يد فلاح يدس لى ورقة بعشرة جنيهات .. فلم أغضب وسامحت من أراد شراء ذمتى .. ولم يدرك ما أحس به ..

وتحايلت .. أولا : اخترت جوانب المصارف والمساقى ـ وأشجار القطن لا تنمو ولا تزهر عندها ـ وجعلتها قدرا مشاعا تنتفع به القرية كلها . وثانيا اغمضت عينى ولم أفتح فمي وأنا أرى المساح يزوغ ويرمي القصبة مرة بمقام مرتين ..

وعدت مع الغروب الى بيت العمدة وجلست أمامه ، أرى ألسنة من نيران حمراء تنبعث من أكوام الحطب المكوم . وليكن فى علمك أننا طالبنا أهل القرية أن يقدموا لنا أيضا البترول الذى نحرق به زرعهم ..

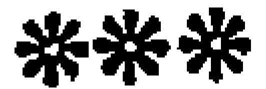
ذكرني ذلك بما قاله الجبرتي عن محمد على عند وصفه لتشغيل العمال بالسخرة ، اذ أنه كان يجبرهم أيضا على أن يدفعوا من جيوبهم أجر الطبال والزمار والمنشد الذين سيسوقونهم بألحان تفعل فعل السياط لينشطوا في انجاز مهمتهم ..

وخرجت من القرية وقد لف الليل ما تراه عيني من اشخاص ، أحالهم الى أشباح مطأطئي الرءوس يمصمصون شفاههم عجبا وحسرة ..

كانت هناك هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة ، انتهى امرها والحمد الله ، كانت عنده حينئذ ـ في عهدي بالصعيد ـ ليست خادما معينا ، بل سيدا مستبدا جاهلا ، نفعه قليل ولكن ضرره أكثر .

لم أسلم طول خدمتي بالصعيد من الشعور بالأسى لهذه الهوة . ووجدت معظم أشغال الحكومة ـ رغم حسن نيتها ـ يساء تفسيرها وتعرقل وتهدم ، وحاولت بكل قواى ـ بل جعلت ذلك خطتي وديدني ـ أن أستلين الفلاح حتى أجعله يثق بي ، فلم أفلح .

في ذهنه اعتقاد راسخ بأن الحكومة لا تفهمه ، وأن الموظفين أغراب أجراء لا يهمهم الا قبض مرتبهم ، وقلوبهم ليست معه ، وأكثر عبارة يرددها ـ كما رأيت ـ شغل الحكومة كده !



ورق لصق

وذات يوم تملكني الهياج وضربت كفا بكف وانا لا أتمالك نفسي على هذا من الضحك ·

هذه حادثة لا ازال أذكرها وأرددها في أحاديثي ·

استمع لها :

كان بريد المركز يجرى على سنة قديمة ، اذا وصلتنا عريضة من انسان وأردنا أن نستفسر من المديرية عن رأيها كتبنا بذلك رسالة وشبكناها بدبوس في العريضة وأرسلنا الاثنين الى المديرية ، فيجيئنا الرد ثلاث ورقات ودبوس واحد ، فنعيدها اليها وقد أصبحت أربعا ، وهكذا دواليك فيزداد عدد الدبابيس أيضا ، حتى تصبح الأوراق والدبابيس ، فيها من الأوراق الكبير في حجم نصف الفرخ ، والصغير في حجم تذكرة الترام ، وأوراق مسطرة وأوراق غير مسطرة ، فيها ردود مكتوبة على الهامش يمينا أو شمالا أو من فوق أو من تحت ، وردود مكتوبة على ظهر ورقة أجنبية لا علاقة لها بالموضوع ، يتبادل خطها رجال متعلمون ورجال لا يكادون يعرفون فك الخط ·· الافادة الواحدة متحف متنقل لنماذج الخط في مصر ·· وكان لابد من ارسال هذا الكوم كله في كل مرة نحتاج فيها الى استفسار وان كان لا يتطلب الرجوع الى هذه الأوراق كلها ·

وكان لا يزال بالمركز آلة تشبه آلة كي الطرابيش تطبع

فى دفتر ورقة شفاف صورة من مراسلات كتبت بالحبر الزفر ، فيخرج الأصل والصورة معا مقرطمة الأحرف ، مفرشحة السطور .. تحتاج من قارئها علما لدنيا ..

هذا هو نظام « الكوبيا » ومع ذلك كانت هذه الآلة لا تستعمل الا نادرا ★ .

فى صباح يوم وأنا أفتح البريد انبعثت لى منه رائحة حريفة ساطعة ، تشممتها فاذا بى أجد لها قربا برائحة الخردل .

يارب ما هذا ؟ وجدتها تفوح من افادة بدأت بأن قدم فلاح فى قرية طلبا لفتح دكان بقالة ، فدارت هذه الورقة البسيطة بين القرية والنقطة والمركز والمديرية وتفتيش الصحة زهاء سنة ، ذهابا وايابا حتى انقلبت الورقة الواحدة الى كوم ضخم من أوراق متربة متسخة ممزقة الجوانب مقصوصة الرقبة .

وكنت أعرف عمدة القرية وأحبه وأحترمه ، فهو من خريجي الأزهر الشريف ، ولأنه نظيف فى مسكنه وملبسه، ولأنه أيضا كريم النفس ذو حياء رقيق .. والظاهر أن كاتب صحة المديرية انتبه بعد سنة الى أن طلب فتح دكان بقالة ينبغى أن توضع عليه ورقة دمغة كانت تسمى فى عهدى (لا أدرى قبل أم بعد انشاء مجمع اللغة العربية) ورقة لصق ، ثمنها ثلاثون مليما . فكتب للمديرية يقول « نرجو التنبيه على مقدم الطلب بفتح دكان بقالة أن يرفق بطلبه ورقة لصق بثلاثين مليما » . أرسلت المديرية الأوراق الينا فارسلناها للنقطة فأرسلت للعمدة فعادت الى تنبعث منها رائحة الخردل .

★ « الجمهورية » ، ١٢/٦/١٩٦٩ ، ص ١٠

فتشت في الأوراق فوجدت العمدة قد كتب « الأوراق معادة للنقطة ومعها ورقة اللصق المطلـوبة بثلاثين مليما » أتدري ما الذي بعث به ؟

بعث لنا بورقة « لزقة » ويلكوكس من التي توضع على الظهر أو الصدر لعلاج البرد في الشتاء •• وكان ثمنهـا في عهدي ثلاثين مليما •

ضربت كفا بكف وكدت أولول كالأرمل الحـزين تسير في جنازة زوجها « يا دي الداهية السودا ! يادي المصيبة !» وقمت من فوري الى التليفون وطلبت العمدة وطلبت اليه ان يسرع بالمجيء الى لأمر عاجل هام جدا جدا •

فجاءني مضطربا ولكني تركته يجلس برهة يسترد فيها أنفاسه وطلبت له فنجـان قهـوة وظللت أتأمله ثم قلت له بصوت ضمنته كل ما يقدر قلبي من حنو واعزاز :

ـ يا شيخ فلان •• أنت من خريجي الأزهر ، أنت رجل ذكي متعلم ، فبالله عليك خبرني ما هي العـلاقة في نظرك بين طلب فتح دكان بقالة وبين احتياج الحكومة لورقة لزقة ويلكوكس ؟ •• وحتى على فرض أن رئيس الوزراء أو وزير الداخليـة أو مأمور أو معـاون الادارة أو ضـابط النقطـة مصاب بالروماتزم فهـل تعتقـد أنه يربط بين علاجه وبين طلب فتح دكان بقالة ؟

احمر وجهه خجلا ولكنه تجلد ، وقال وهو يطالع وجهي كأنه يريد أن يفضفض لأول مرة بكلام طال حبسـه له في صدره :

ـ والله ياسـيدي لفنـدي سـألنا عن ورقة اللصق فلم يهدنا أحد • لم نسمع بها من قبل • وقيل لنا ان أجزاخانة

فى البندر تبيع بثلاثين مليما لزقة مسعرة كورق البوسطة ·· فقلنا لابد أن تكون هذه الورقة المطلوبة للحكومة فارسلناها ·

ـ وهل دخل هذا فى عقلك ؟

ـ أعمل ايه ؟ شغل الحكومة كله كده ·

فراغة عين

وكان مما يزيد الهوة بين الفلاحين والحكومة فى العهد الماضى الذى أتحدث عنه أن بعض الموظفين ـ لا كلهم ـ كانت عيونهم فارغة ، هم الذين حملوا الفلاح على أن يصف عملاء الحكومة عنده تارة بأنهم « أجرية » وتارة بأنهم من « الشباحين » ، يجهر بهذا القول ولا يخفيه · استقر فى ذهنه ـ وان كانت أسانيده حوادث غير كثيرة ـ أن هؤلاء الموظفين يعتقدون أنه راقد على كنز وأن خيرات أرضه موفورة مبذولة ·

لذلك رأيت الفلاح يحاذر أن تظهر عليه دلائل النعمة ، فهذه هى خطة دفاعه التى ورثها عن جدوده حين كانت تمزق السياط ظهورهم لتحصيل الضرائب منهم ، لا حاجة لأن نرجع الى أيام المماليك بل يكفى أن تقرأ سيرة محمد عبده وعلى مبارك ـ ما أعظمهما من رجلين من أبناء الفلاحين ـ لتعرف ماذا كان يلاقيه الفلاح لابتزاز المال منه · حدثت هجرات جماعية كثيرة ، سكان قرى بأكملها يرحلون منها ، فى الوجه البحرى من فر من

الديار كلها اما شرقا الى سوريا ، أو غربا الى ليبيا وما بعدها • لا أجد مع الأسف من يؤرخ لهذه الهجرات ويتتبع أخبارها •

قد لا يخلو حذر الفلاح من ظهور دلائل النعمة عليه من خوفه ايضا من الحسد ، فانه يعيش في رعب دائم من العين الزرقاء يخاف منها على نفسه وأولاده وحيوانه وزرعه • الحديث عن الحسد يشغل جانبا كبيرا من سمرهم • رويت لى حكايات عن رجل كان يكفى اذا رأى قافلة من الجمال تهل من بعيد أن يصوب اليها نظره ، ويقول : ما أحسنها ! حتى تهوى الجمال على الأرض وتنفق •• تروى هذه الحكايات بلهجة التأكيد فلا سبيل لك أن تجادل فيها •

من أثر هذا الحذر على الفلاح أن قل اهتمامه بنظافة ملبسه ومسكنه • رأيت رجلا من الموسرين من سكان القرى يتعمم بقماش يلفه حول رأسه كالخرطوم قد اسود لونه من القذارة ، تقززت له وأنفت لوجه ينطق بالذكاء أن يمتهن هكذا • لم أتمالك نفسي ـ وكثيرا ما أقحمها بغباء ! ـ وسألته :

ـ ياعم فلان لماذا لا تغسل عمامتك ؟

أتدرى ماذا كان جوابه ، مكر على وأجابنى :

ـ ياسيدنا لفندى بنى آدم من التراب والى التراب يعود•

كان الزهد عنده صنو للقذارة ••

ينبغى لى هنا أن أفى بحق فلاح واحد بقيت صورته فى ذهني الى اليوم ، أكاد أراه امامي وأنا أكتب هذه الكلمات •

هو وحده الذى استوقف نظرى ـ فى مدى سنتين كاملتين ـ بنظافته ٠

أمر عليه فى أرضه ـ تقاس بالقراريط فحسب ـ فأجده يحرث ويعزق وجلبابه الأزرق يشف ويرف ، نطق لى هذا الجلباب لأول مرة بجماله ، وكنت أراه مرفوع الرأس معتدا بنفسه ، وكنت أسلم عليه فى كل مرة ، وأتحدث اليه حتى زالت الكلفة بيننا ، فأفضيت له بعجبى من نظافته وشذوذه عن بقية الفلاحين فأجابني :

ـ أنا رجل أؤدي الصلاة ، أتوضأ خمس مرات ٠ ان الاسلام دين النظافة يكره الخبث والنجاسة ٠

***

أعود الى الحديث عن الموظفين وفراغة أعينهم ، قد يكون تفسيرها عند بعضهم هو وهمهم فى ربط قدر الوظيفة وابهتها بمقدار ما يلقونه من الاكرام حين ينزلون على الفلاحين ، فالعمدة قد يقدم لصغار الموظفين قطعة جبن وبصل ، وان بالغ فى اكرامهم سلق لهم بيضتين ، وان لم يكن فارغ العين ـ غضب وأحس أن كرامته قد أهينت ـ فيقدم له العمدة الطبقين الخالدين فى الريف ، بامية وملوخية قرديحي عليها أشبار من السمن والمرق الأحمر ، فان قدم هذا للمأمور كانت وقعته سوداء ، ان مقامه دجاجة على الأقل ، أما المدير ـ اذا شرف ـ فله خروف ، هكذا كانت التسعيرة فى عهدى ٠

ووجدت الموظفين يتندرون بعبارة تدور على أفواههم لم افهمها أول الأمر وهي « التعيين الناشف » ٠ وأدركت

فيما بعد أنهم يقصدون أن الموظف اذا لم يأكل عند مضيفه ، فليس معنى هذا أن حقه قد سقط • فالمفروض أن يلف العمدة حينئذ شيئا من الطعام ـ حسب المقام ـ ليحمله الموظف عند عودته الى داره • هذا هو التعيين الناشف • وكان مما يحسب من المهارة نجاح الموظف فى الحصول على التعيين الناشف ليشاركه أهله فيه بدلا من أن يأكله وحده فى الدوار • ولم أسمعهم يصفون هذه الأكله ـ كما هو المنطق ـ بالتعيين السائل •

لا أزال أذكر يوم أن ذهبت مع المأمور للتحقيق في واقعة الى قرية ونزلنا على عمدتها • رأيت التحقيق خليقا أن يتم فى ساعة أو ساعتين على الأكثر • ولكن المأمور أخذ يمطه مطا شديدا ويقول للمتهم :

ـ وكمان سين ، ايه قولك فى أن •••

سؤال فارغ لا يقدم أو يؤخر ، والعمدة يلزمنا تارة ويغادر القاعة تارة أخرى ، قلقا كأنه في ورطة ، حتى حل موعد الغداء وحل المأمور أزرار سترته ، وانكشف بطنه ، ومال برأسه على الدكة ، وتشبثت قدماه بالأرض •

وجاءنا الطعام تزينه دجاجة سمينة (راجع التسعيرة من فضلك) ••

لم نكد نخرج من الباب حتى أقبلت امرأة تصرخ وتولول وكادت تمسك بتلابيب العمدة :

ـ ياعمدة حرام عليك ! مالقيتش الا واحدة ولية غلبانه زى حالاتى تاخد فرختها وهى سارحة فى السكة • حرام عليك ، تنزل لك بالسم الهارى •

أدركت أن العمدة اغتصب الدجاجة من انسان ضعيف ،

واحسست بخجل شديد ، بل خفت أن يستجاب دعاؤها ، فدعاء المظلوم مستجاب • وقفز المأمور الى البوكس وقفزت وراءه • هذه مسألة لا شأن لنا بها تسوى بين العمدة والفلاحة • ورأيت المأمور يعتبر الحادثة نادرة تروى فتضحك عن شح بعض العمد واستغلالهم للفلاحين ، واستمر يضحك طول الطريق •• والغريب أننى أيضا أشاركه فى ضحكه •

كنت لا أعرف شيئا عن هذا كله فى أوائل عهدى بالعمل ، ولكن المشكلة تبينت لى سريعا فما أكثر ما يمضى معاون الادارة نهاره كله بعيدا عن داره ، خرجت ذات يوم مع لجنة المساحة لنقيس أرضا تسمى بطرح البحر ، معنا شيخ القرية ، والمساح وصبيه ، واثنان من الخفراء ، وجنزير طويل يصلصل هو عدة الشغل • شققنا الغيطان حتى وصلنا الى النيل ، البرسيم علوه شبران ، أخضر ندى ، مربوط عليه هنا وهناك بقرة أو جاموسة مستغرقة فى سعادة كبرى وهى تلوكه بين فكيها وتهز أذنيها ، ما كان أخشن أكلها فى الشهور الماضية ! لا أعرف شيئا يفوق وداعة عينيها • فوقنا سماء رقيقة السحب ، والهواء صاف شفاف كأن يدا من السلام والطمأنينة تمسح على جبهتى ؛ أحس أنا القاهرى أن نوافذ مغلقة فى نفسى تتفتح لأول مرة • انقطعنا عن العالم كله وخلونا الى الأرض والزرع والحيوان والنيل ، غمرت قلبى راحة جميلة تمنيت ألا تفارقه أبدا • هذا الجو ساعدنى على أن أرفع الكلفة بينى وبين أصحابى كأننا فى نزهة تزول فيها الفوارق • هذا طبعى وكثيرا ما جر على المتاعب فى حياتى •

واقترب الظهر وولى ، وأحسست بالجوع ، ورأيت بين

القوم مسارة تجمعت فيها رءوسهم ثم جرى أحد الخفـراء للقرية ، فرحت بهذه المســارة وبمنظر ســاقى الخفير فى جريه ، ولـكنى أرجو ألا يضـحك القـارىء اذا قلت اننى توقعت في سذاجتى وأوهامى أكلة شاعرية تنسجم مع هذا الصفاء وتنسجم مع مشاعرى ٠٠ لو سألتنى أن أصفها لك بالتحديد لما استطعت ، كأننى أتوحم على أكلة تهبط علينـا من السماء لم تصنعها أيدى البشر ٠

وبعد غيـاب طويل زاد فيه جوعى عاد الخفير وفي يده صرة منبعجة ، فترك القوم عملهم من فورهم ٠٠ فرشوا لى حراما أجلســونى عليه ، ثم تحلقـوا حولى على الأرض عن يمين ويسار ، فى وجوههم سعادة كبيرة أن تألفت قلوبنا ، هم فى فرح لأننى سآكل معهم مثلهم ٠ لم أصبح عندهم من الأجرية أو الشباحين ٠ وفتحت الصرة فاذا بها لا تحتـوى الا على خبز بائت وبصل مستدير ٠

أقول لك الحق اننى رغم ادراكى لمعنى فرحهم وسعادتى به أحسست بخيبة أمل كبيرة ، وصـعبت على نفسى ٠ لم يحدث لى قط من قبل أن اقتصرت وجبة لى على خبز وبصل ، حتى يوم كنا ــ من أجل تحريش المعـدة ــ نطبخ بصـارة يستحب معها أكل البصل ٠ أعاف البصـل المستدير لأنى أرى لقضمه بالأسـنان وهو يحشـو الفم منظـرا قبيحا ، وأفضـل عليه البصـل المنسرح المبروم ، أهذه هى الأكلة الشاعرية التى تهبط على من السماء ؟ خجلت من الاعتذار وأكـلت معهم على مضــض ، كم تمنيت أن لو كانت نفسى أقوى وأنبل وعلت عن سفاسف الأنفة والحرج ، وتأملت الأرض والزرع والحيوان والنيـل من حولها مرة أخرى ، وصحبة أناس بذلت بسـاطتهم مع الود ما تملك أيديهم ،

انها لو كانت كذلك لأدركت حقا أن السماء قد استجابت لدعائها ، وأن كل أكلة سواها ما كانت تكون الا شذوذا وغلطا وتلفيقا وقبحا ٠

عرفت يومئذ كيف يؤكل فحل البصل ، يوضع على الأرض ويدش بقبضة يد لها وقع الحجر أو يد الهاون ، فلما هممت أن أقلدهم أحسست بوجع فى كلية يدى ، فاكرمونى أيضا بدش فحل البصل لى ، يقدمونه الى كأنه دجاجة فصصوها لى بأيديهم ٠ ليس معنا سكين ، ولا حتى مبراة ، معنا أسناننا فحسب ٠

كدت بعد الأكل أرقد سطيحة ، وأنام حتى لو وضعت راسى على ركبة المساح ، وظلت رائحة البصل تليس فمى ولسانى وحلقى الى صباح اليوم الثانى ، أحس له بغليان فى جوفى ٠٠ عشت بعد هذه الأكلة يوما كاملا وأنا سيىء الخلق ، منـاكف ، شرس ، جحود ، كافر ، اذا كان هذا حالى بعد أكلة واحدة فما بالك برجال ـ كل منهم كالشحط ـ لا ياكلون الا هذا الطعام فى أغلب الأيام ٠

وكما صعبت على نفسى يوم مأدبة البصل المستدير رثيت لها ـ واختلط الرثاء بالحزن والغضب ـ حين دق بابى بعد العشاء ذات ليلة رجل له عمل عندى ٠ لم آكد أوارب الباب حتى مرق منه كأنه هارب يلتمس النجاة ، يده وراء ظهره ، ولما اطمأن أن لا ثالث معنا أعادها الى الأمام ورفعها الى علو وجهى ـ وهى مسافة قصيرة ـ يطلب الى عينى ـ وهو يبتسم ـ أن تتمليا من بهاء سمكة كبيرة تتدلى من حبل من خوص ، تلمع فى العتمة ، وهو يقربها أيضا الى أنفى ٠٠ هذه هى رشوته لى ، لم يكن غضبى لاقدامه على شراء ذمتى ،

بل لحكمه على بأننى رجل بطنى شباح فارغ العين ، ما أظن أنه اشتراها بل صادها ليصيدنى بها •

ليس من الحلول العملية أن أحمل معى طعاما وأنا خارج من الدار ، فانى أخجل اذا حل موعد الغداء وكنت بين الفلاحين أن آكل وحدى ـ ودونهم ـ ما حملته يداى ، وليس مما أستسيغه أن أفرض نفسى على مضيفى ، وهل أنا أعمى ؟ يكفى أن ألقى نظرة الى الدار ، ليس فيها شيء يمت الى كلمة « الأثاث » بصلة ، سوى عدد من كراسى القش ، مهشمة بالية • من بيوت الفلاحين التى دخلتها كثرة ليس فيها الا الأرض والجدران وفرن سماوى تنضج على بلاطته أرغفة من دقيق الشعير زرق مكببة ، هى كل طعامهم •• مع المش أو البصل • لا شيء غير هذا ، اللهم الا اذا عددت بوص الأذرة الذى يغطى أرض القاعة نوعا من السجاد •• واعتدت أن أقسم لمضيفى بأغلظ الأيمان ـ كذبا ـ أننى مريض أو شبعان ، حتى ألفت أن أقضى نهارى صائما ولا آكل الا اذا عدت للدار • ووجدت مع الزمن أن صحتى تحسنت وزال ترهلى وصلب عودى وزادت مناعتى، فحمدت الله ••

نهم للمال

تعلو فراغة العين الى درجة تهدد المروءة ، وتقلب الانسان المتعلم ابن الناس الى وحش ضار لا يشبع نهمه • لا أتورع هنا ـ كما عاهدت القارىء ـ عن الادلاء ـ غير ملفق ولا

مبالغ ـ بقبح شديد يبلغ مبلغ الاجرام ، رأته عيناى ، ومن الخير أن أصف بعض ما كان يعانيه أهلنا ، للدرس والعظة ، ولكنى أحب أن أنبه الى أننى أصف عهدا مضى عليه أكثر من ثلاثين سنة ، وأرجو ألا يحمل كلامى على محمل التعميم ، فمن الطائفة التى سأتحدث عنها كثرة أقر لها بالفضل والاحسان ، ولكن كان يزاملها مع الأسف ، قلة دنيئة مجنونة ، كرهت من عشرتها الحياة ، وأنفت لنفسى أن تسوى بينى وبينهم كلمة انسان ٠

عرفت طبيب مركز كان همه هو الاثراء العاجل بأى ثمن ، ان نهمه للمال لا يقف عند حد ٠ دع عنك استيلاءه ـ ظلما وعلى خلاف القانون ـ على جنيه كامل من كل فلاح يكشف عليه ليشهد بصلاحيته لوظيفة « خفير » فاذا دفع المبلغ أجازه ولو كان أعمش ، والا فلا ولو كان له عين النسر ، بل الداهية حين ينتقل معنا الى القرية حيث ضرب فلاح فلاحا برصاصة أو سكين أو شومة ٠ يعلن من فوره أن المصاب ينبغى أن ينقل للمستشفى ، الى « القشلة » ـ هل هى مشتقة من كلمة الأشلاء ؟ لست أدرى ـ والمستشفى فى بندر المديرية بيننا وبينه مائة كيلو متر على الأقل ٠ كلمة المستشفى هى السيف الذى يشهره طبيب المركز فى وجه الفلاحين وهم فى عز النكبة ، فانها تقع على المصاب وأسرته وقع الصاعقة ، هم يؤمنون ايمانا لا يتزعزع أنه لو دخلها لما خرج حيا ، ثم كيف ينقل ، وكيف يزار ؟ انها مشقة لا قبل لهم عليها ٠ حينئذ يأتى دور « حلاق الصحة » أراه يجوس خلال أهل المصاب ، يقول لهم : لو شئتم لتولى الدكتور علاجه هنا تحت مسئوليته ، فلا يذهب للمستشفى، وان أقل أجر يرضى الدكتور مبلغ كذا من الجنيهات ٠٠

يدور بين أهل المصاب تشـاور ، رءوسهم دائخة ، وعيونهم زائغة • يصطدم في اللخمة واللهفة بعضهم ببعض ، ويكثر القيام والقعود ، وتختلط أصوات الرجال بأصوات النساء ، أنستهم داهية الدكتور داهيتهم الكبرى •• ثم يدور بينهم وبين الحلاق فصال ومساومة ، وتشفع ، وتوسـل ، حتى يسـتقر الرأى على الأجـر الذى يرضى الطبيب ، فيتفـرق بعض الأهل جريا للبحث عن المال ، لا يبرح الطبيب القرية حتى يضعه في جيبه ، أما العلاج فسيتولاه بطبيعة الحـال حلاق الصحة •

لا تبرح ذهنى ذكرى جلسـة لى مع هـذا الطبيب فـوق مقعدين على الجسر عند قرية ، ننتظر اصلاح عجلة السيارة• تلفنا ليلة غطيسة غابت نجومها •• لا ينقطع زن الجنادب ونقيق الضفادع كأنما طار من هلع لبها ، فهى ترى دوننـا روحا شريرة تخرخش فى غيطان الأذرة ، توشك أن تدهم الأرض • وجرى بيننا ـ دفعا للانقبـاض ـ سـمر لذيذ ، تتخلله الضحكات العالية ، ثم اذا بأذنى تسـمع من تحت الجسر صوتا خفيضا يهمس بتوسل ذليل :

ـ يا دكتور ، سـايق عليـك النبى ، أنا فى عرضك • اعمل معروف ••

يقطع الدكتور كلامه لى ويلتفت الى مصدر الصوت ـ وأنا لا أرى صاحبه ـ ويصرخ :

ـ هات الريال وتعال ••

ـ ماعنـديش الليلة دى ، ما احكمش على قرش واحد ، من فضلك واحسانك •• أنا تعبان بالحيل •• حاتفرتك •

ـ ذنبك على جانبك •

سألت الدكتور عن الذي يطلبه منه الرجل . والعجيب أنه أجابني بلا خجل وهو يضحك : انه فلاح يعرفه عنده حصوة في المثانة ، تتحرك أحيانا فتمنعه من التبول ، فاذا حدث له هذا جرى اليه في المركز فسلك له مجرى البول بالقسطرة لقاء ريال كل مرة .

ـ والقسطرة مش معاك دلوقتي ؟ .

ـ أيوه ..

ـ وفيها ايه لو تريحه ، حرام عليك .

ـ سيبه ده ابن كلب ، الريال أحسن من عينه .

وقمنا الى السيارة ولا يزال الشبح من تحت الجسر ينادي :

ـ يادكتور سايق عليك النبي ، أنا ح اتفرتك .

وهذه حادثة ثانية تعود هي الأخرى الى ذهني .

ويل لي ! كنت أحسب أن هذه الذكريات قد هضمتها وفرزت خبثها ، اذا استثرتها عادت ، بعد مرور الزمن الطويل ومع ماينشأ معه من تسامح حتى مع ألد الأعداء ، وهي محطمة الأنياب مقلمة الأظافر ، وأنا هادئ النفس رابط الجاش ، كأنما أنقل عن شاهد غيري . فاذا بها وأنا أفك عنها الأكفان البالية تهب ضارية تنهش قلبي ، فأتوجع لها بمقدار يفوق توجعي حين افتراسها لي أول مرة .

جناية قتل بشعة في احدى القرى ، رجل يملك فدانين لا غير ، وله خمسة أولاد كبار ، كلهم من الفلاحين الجائعين للأرض . ماتت أمهم وتزوج الأرمل ـ في أول يوم بعد الأربعين ـ بفتاة صغيرة * .

* « الجمهورية » ١٩٥٩/٦/١٩ ، ص ١٠

ستأتي لهم بمن يشاركهم فى الميراث ، لا ولدا واحدا بل ربما زربة عيال ، صبيان وبنات ، تزعم الابن الاكبر الثورة ضد الأب وبين لاخوته أن لا نجاة لهم الا بقتل أبيهم ، فيهم من انصاع له وقبل الاشتراك فى الجريمة ، وفيهم من نصحه مكرا وسحب يده وان علم بالذى سيحدث وباركه فى قلبه (كأنها أسرة كارامازوف) • وانفرد الابن الأكبر بأبيه فى الحقل وغافله وهوى على رأسه من الوراء بالشومة •

وصلنا ــ ومعنا الطبيب ــ بعد الحادثة بساعات غير قليلة •• وجدنا المصاب راقدا على الأرض ، فاقد الوعى لا ينطق رغم انكباب بعض الناس على اذنيه ينادونه باسمه • عظام رأسه سليمة ، ولكن الضربة أحدثت شرخا فى قاع الجمجمة • أخذ الدم يتسرب منه الى جوفه ، فرأينا تنفسه البطىء نوعا من البلع ، وكدنا نلحظ بطنه وهو يعلو شيئا فشيئا •• ملت فوقه أحدق فى وجهه ، حتى لحيته ازرق لونها ، لا أدرى لماذا وهمت أنه رغم انعزاله عن عالمنا وعجزه عن الاتيان بأقل حركة حتى من أهداب عينيه ، أن ذهنه لا يزال ــ وسط ضجة كأنها قرع أجراس ضخمة ــ حاضرا معنا يعى ما يدور حوله ، لم يكن الموت بل هذا الجمع الغريب بين الحضور والغياب هو الذى هز قلبى •• ثم بدأت حشرجة الموت •

أتدرى ماذا كان يفعل الطبيب فى هذا الوقت ؟ أرسل صبى الحلاق ليقول للزوجة الجديدة ان الدكتور مستعد لاجراء جراحة للمصاب اذا دفعت له مبلغ كذا ، قبلت المرأة من فورها دفع مايطلبه ولكنها استمهلته قليلا حتى تجمع هذا المال من هنا وهناك وأخرج الطبيب من حقيبته أدوات

الجراحة ووقف ينتظر .. نعم ينتظـر ورود المبـلغ ، فاذا برجل من الملتفين حول المصاب يرفع رأسه ويقول :

ـ خلاص طلع السر الربانى ..

أعاد الطبيب أدواته الى الحقيبة .. لم أتمالك نفسى أن أسأله :

ـ كيف ترضى اجراء الجراحة له وهو فى النزع الأخير. ثم أنت تعلم أنهـا ليست جراحة تربنة ، فليس الـكسر فى عظام الرأس بل فى قاع الجمجمة ، ولا حيلة لك فيه (كنت فى ذلك الوقت أقرأ كثيرا فى الطب والأمراض) .

فأجابنى :

ـ واجب الأطباء التدخل مادام فى المصاب عرق ينبض ! حتى ولو كان الأمل فى نجاح الجراحة واحدا فى الألف ..

كان يريد اجراء جراحة لميت ، من شدة جشعه للمال .

أطبقت الكلبشات على معصمى الابن الأكبر .

الجنود الذين معنا من السوارى ربطوه بسلاسل وجروه جريا وراءهم من القرية الى المركز ، وهى مسـافة طويلة . كنت أركب البـوكس فورد مع وكيـل النيـابة والمـأمور والطبيب وضابط المباحث . صـليل السلاسـل لا يفارق أذنى . لم أجد فى نفسى الشـجاعة أن أقول لهم « أركبوه معنـا » لا أحتمـل ـ رغم بشـاعة الجريمة ـ رؤية اهدار الكرامة والتعذيب ، لم يصبح انسانا بل أدنى من الحيوان . أمد رأسى ـ حتى تكاد تنقصف رقبتى ـ لاتطلع الى وجهه ، والعجيب أننى رأيته متهللا لا تفارق الابتسامة شفتيه طول

الطريق • كأنما وجد بهجة كبيرة في أن يكون بطل هذا الركب كله ، لولاه لما كان ••

في أغلب الجرائم التي حضرت تحقيقها تملكني شيء من الحيرة • هل أنا صادق أم واهم ، أحس في المتهمين نشوة عجيبة ، فكأنهم يترددون في الجريمة بلذة ، شأن المسحورين •• قد يكون تفسير هذا أنهم يخرجون من الضياع الى مسرح تسلط فيه عليهم الأنوار ، ويقوم لهم المركز ويقعد ، وتجيء لهم النيابة بجلالة قدرها •

كلبشات

على ذكر الكلبشات : لابد لي هنا أن أروى حادثة أراها من أغرب النوادر في تاريخ الاجرام •

عربة السبنسة في قطار الصعيد تكاد ـ والنهار والحر في عزهما والنوافذ مفتوحة لأنها مخلوعة ـ تجللها عتامة هي خليط من بخار مشبع برائحة الحلبة والعرق تفوح من أجساد ومقاطف مكدسة ، ومن كلام ـ كهلوسة محمومة ـ متشابك له دوى كهدير البحر ، ومن زعابيب مجنونة من التراب تقفز اليها وتحوم في جوها كأعمدة الدخان ، كأنها سوق قائم لم ينقصها رجل « أفندى » منتصب وسطها ـ كالمؤذن في مالطة ! ـ فوق الرءوس ، يهتز جسمه لأنه واقف على زكيبة ـ فهو جوال لا مقعد له ـ ومع ذلك فان صوته لا يرتعش وهو يعدد مزايا القطرة العجيبة التي تشفي اللحمية والشعرة واحمرار الجفون وتمنع الدمعة

والعماص ••• ثمنها بالأجزاخانات عشرة قروش ولكنه ـ اكراما لهم ـ يبيعهـا بخمسـة فقط ، والأجر والثواب على الله ••

بجانب احدى النوافذ يجلس جندى عائد الى نقطته بعد ان سلم متهما للمركز ، وجاءت جلسـته أمام فلاح يضـع تحت مقعده قفة كبيرة غطـاها بلحـاف • وكان الجنـدى يمسك بيده زوجا من الكلبشات بقى مفتوحا بعد أن خلعه المركز عن يدى المتهم ، وأخذ من قبيل التسلية يديره حول أصبعه ، كأنه طفل يلهو بلعبة •• بريق حديده يسقط على عينى الفلاح فلا يحيـد عنه بصره ، بعـد قليـل بدأ يتكلم ويقـول انه لم ير من قبل الكلبشـات عن قرب ، وما كان يحسب أنها تفتح هكذا • وأبدى عجبه لصنعها بحيث تقفل وتفتح •

قال له الجندى وهو يمازحه : « أتريد أن تجرب ؟ » فمد له الفلاح معصميه فأدخلهما الجنـدى فى الكلبشـين ومال بطرفهما المفتوح شـيئا فشيئا وهو يحـاذر أن ينتهى عبثه باغلاقهما • ثم اذا ـ وهما يضحكان ـ بتكة خفيفة تعلن لهما أن الكلبشات قد انطبقت •• يادى الداهية السودا !

ما العمل ؟ ليس مع الجندى مفتاحهما ، انه بالنقطة •• وهل يترك الجندى الكلبشات فى يد الفلاح ويعود للنقطـة ليواجه تحقيقا ينتهى بتقديمه لمجلس التأديب ؟ كان جزعه أشد من جزع الفلاح لا تفارقه ابتسامة بلهاء • كل أسـفه أنه لا يستطيع في ورطته أن يضرب كفا بكف •• لا مفر اذن من أن يعدل الفـلاح عن متـابعة سـفره وينزل مع الجندى للذهاب الى النقطة ، فلربما سـامحه الضابط حينما يشرح

له سوء حظه ويطمئنه على أن عهدة النقطة ردت اليها سليمة وان كانت مغلقة !

وجاءت المحطة ونزل الجندى وسار الفلاح وراءه .. فاستوقفه قائلا « القفة القفة ! أوع تنساها .. هات أشيلك فوق رأسك .. »

لا أدرى ما الذى حدث بالنقطة هل سقط اللحاف عفوا ؟ أم دس الجندى فيها يده يحسب بها شيئا يؤكل . كشفت القفة في النقطة عن سرها فاذا بها تحتوى على جثة رجل مقطعة أربع تربع .

واعترف الفلاح بأنه هو القاتل وأنه كان يريد الهرب وترك القفة فى القطار ..

تشريح الجثة

ونعود لصديقنا فارغ العين طبيب المركز . لقد ذكرت لك أمثلة من تكالبه على ابتزاز النقود من تحت الأرض ، قد أغفر له جشعه ـ فللمال سحر لا يقاوم ، تذل له النفوس ـ ولكن لن أغفر له أبدا فعلة لم يكسب منها مليما انما تدل على غلظة فى الطبع ، وبلادة فى الحس ، ومجافاة لأبسط مطالب الذوق ، واستهتار بشسع بكرامة الانسان وشعوره .

ذهبت معه فى جناية لاتزال ذكراها تحز فى نفسى . فتاة بكر حملت من قبل أن تنتقل الخطبة الى زواج أخرته

شكليات ومناقشات تافهة بين الأسرتين ·· ولربما صادف التأخير هوى فى نفس الخطيب الجبان بعد أن نال غرضه ، ولعله أصبح يعيب عليها فى سره أنها رضخت له ·· فلما انفضح أمرها حبسها أبوها في حجرتها انتظارا لعودة ابنه من سفر له ·· عاشت أياما وليالى وهي تعلم أنها محكوم عليها بالاعدام · ان انهارت لهلعها من الموت فانها أشد انهيارا لتحطيم بنيان فى قلبها أقيم على أن بين الأب وابنته محبة · فكيف تلقى مصرعها على يدى أبيها ؟ هل تكرهه ؟ كيف تغفر له ؟ ·· وعاد الأخ ·· وسمعت بأذنيها أباها يقول لأمها أن تذهب لقضاء الليلة عند أختها · وخرجت الأم وهى تقول لابنتها من وراء الباب : « لك رب يابنتى ! »

ومضى الأب فى الصباح الى العمدة وأبلغه أنه قتل وحده ابنته دفاعا عن العرض · قدم نفسه ليفدى ابنه حتى يبقى عائلا للأسرة بعد ذهابه هو الى السجن ·

دخلنا منزلا فقيرا من منازل الفلاحين له حوش سماوى ، وسلم بالطوب الأحمر يصعد الى الدور الأعلى ·

أمر الطبيب أمامى بانزال جثة الفتاة ثم صرخ ··

ـ هاتوا لى دكة ·· فجىء له بدكة ·· لعلها هى الوحيدة عندهم لا جلوس لهم الا عليها · ووضع الجثة فوق الدكة تحت حنية السلم · من فوقنا نسوة ـ من بينهن أمها ـ تطل علينا ، تصرخ وتولول ، ومن حوالينا صبيان ندافعهم كالذباب ، من وراء باب البيت مئات من المتطلعين المتطفلين تمد أعناقها وأبصارها فوق الأكتاف ومن بين الرءوس ·· عريت الجثة أمام الجميع ·· وأخرج حلاق الصحة المشرط وبقر بطنها وتناول من بين القدمين جنينا كامل النمو ، رفعه فى الهواء كأنما يريد أن يريه للجميع ·

كان يستطيع هذا الطبيب أن يشرح الجثة داخل النقطة ، أو فى جوارها ان أراد مجاملة الضابط ، أو ينقلها للمركز. ولكنه لم يبال أن يمزقها أشلاء أمام أعين أهلها وجيرانها . فى منزلها ، على دكتهم الوحيدة ! .

حدث اتفاق جنتلمان بين المتهم والعمدة ، وبين العمدة وبيننا على ألا نجر الابن فى الجريمة ، ولم يرد له ذكر فى التحقيق ونحن نعلم علم اليقين أنه مشارك فى القتل .

وجيء بالخطيب ..

شاب ممتقع من شدة الخوف ، ولكن ما كان أسهل عليه أن ينكر ويتنصل .. ليس فى القانون مع الأسف نص تقضى به العدالة يمكن به محاكمته مع أن القتل وقع بسبب حماقته هو أيضا ..

شعرت بشيء من الضيق ، ولكنى كرهت الحياة أشد الكره حين جاءت الأم وأدلت بشهادتها ، وقبل أن تنصرف تريثت قليلا وهى تستند محنية الظهر على المقاعد ، وأدارت علينا نظرة كلها توسل واستجداء . حن قلبى لهذه المرأة المحطمة وتعلق كل انتباهى بشفتيها .

حسبتها ستقول : « خدوا بالكم من جوزى ده راجل عجوز ! » أو « ان ابنتى مظلومة ، انضحك عليها ، الله يجازى اللى كان السبب » أو « ربنا وحده هو اللى حاسس بمصيبتى مش عارفه أبكى على بنتى والا أبك على جوزى ، قلبى مش مطاوعنى ، لكن أنا مسامحاه » لم تقل شيئا من هذا وانما تمتمت بصوتها المبحوح :

ـ كان عند بنتى حلق وأستيك اديناهم للجدع ده علشان يكمل بيهم المهر .. أنا عاوزاكم تجيبوها لى منه ، ده حقنا ..

لم يكن لهذا الأب مفر من قتل ابنته . ان الذى وضع السكين فى يده هو ضغط الرأى العام ، يجعل الشرف قاصرا على سلامة العرض .. ولو لم يقتلها لما استطاع أن يعيش فى قريته ، فلأهلها انتباه شديد بسيرة نسائها . أغلب الحديث يدور عن ذلك ، بل ان بعض الشبان يجدون لذة ولهوا واستعراضا لرجولتهم فى التطوع للتجسس على البيوت .. فاذا تكشفت فضيحة تتبعوا ولى الدم . يأتى دوره قبل الزوج بالتحقير والازدراء فى مواجهته ، يعيرونه بسكوته حتى تسقط كرامته ، كأنها حركة عضوية لا شعورية للمجتمع يريد بها أن يلفظ من يخرج عن تقاليده.

وكان لى تأمل غير قليل لهذا الربط بين الشرف والعرض حينما كنت أحضر كثيرا من مجالس الوعظ فانى أجد المتكلم ـ بعد مقدمات قصيرة ـ لا يتحدث عن استقامة الخلق وفضائل الصدق والشجاعة وخسة الكذب والغش والخداع، بل يقفز من فوره الى التحدث عن النساء وبهرجتهن ويجعلهن السبب الأول لكل شر ، وان من سلم عرضه سلم شرفه ، كأنه يكاد يقول لهم : « وافعلوا بعد ذلك ماتريدون»

ثم أتأمل أيضا حوادث القتل للدفاع عن العرض مما يحدث منها فى القاهرة والمدن الكبرى فانى أشتم فى بعض هذه القضايا أن المال ـ لا الشرف ـ هو الدافع عليها ، وأن القاتل ـ وهو فى أغلب الأمر أخ بلطجي ـ يبدأ وهو صامت بقبول ما تقدمه له الأخت من مال كأنه احسان يشكرها عليه .. ثم يأخذه كأنه حق له ، بل اتاوة مفروضة ، ثم يغلو فى مطالبه .. وتكون الفتاة قد انتقلت هى أيضا من البدء بالعطف على أخ عاطل ومساعدته الى الانتهاء باحتقاره وأنها تشقى من أجله هو وحده ، وأنه قد أهدر رجولته ولن

يحمر لها عينه ، فترفض دفع الاتاوة وان لم تسلم من الخوف بأنه مع ذلك قد يغدر بها ٠٠ كثيرات من بائعات الهوى تنقضى حياتهن فى هذا الاضطراب بين التحدى والخوف من الغدر ٠

وكان طبيب المركز في عهدى يستحق أجرا مستقلا ـ أظنه جنيهين ـ عن كل مرة يشرح فيها جثة بتكليف من النيابة العامة ٠

وقد رويت لك أن التشريح يتم فى دار القتيل ذاته ، أو فى أرض فضاء بجانب النقطة ، أو على الجسر ان كان غريقا ، يحدث هذا على مشهد من الناس ، وكان حلاق الصحة هو الذى يتولى ـ وقد جلس القرفصاء ـ فتح البطن واخراج الأحشاء والطبيب واقف ينظر لا يمد يده ٠ هذا رجل مات رصاصة دخلت بطنه ، كنت أنتظر أن يقتصر التشريح على فتح جوفه وتتبع هذه الرصاصة ٠ ولكنى رأيت طبيب المركز فى كل مرة يأمر الحلاق بأن ينشر الجمجمة بمنشار : فيتهتك المخ ويتساقط على الأرض ، فيجمعه الحلاق بيده ويعيد تعبئته فى الطاسة ويضعها مكانها من جديد « كلشن كان » ٠ مبالغة تصل الى حد الاستهتار بكرامة الميت ، لا تفيد التحقيق شيئا ، ولكنها لازمة من أجل أن تتم الصفقة التشريحية ويستحق الطبيب أجره الاضافى ٠

ألفت منظر تشريح الجثث ، لا أنسى أول مرة شق فيها المبضع أمامى جلد الميت من تحت منتصف ذقنه مشيا مع وسط حلقه ورقبته ثم الى البطن حتى العانة ، كان أكثر ما أدهشنى اصفرار الشحم تحت الجلد الأسمر ٠

تشريح الجثة « الطازة » أهون على نفسى من تشريح جثة دب فيها التعفن .. لا أنسى هذا الغريق الذى عثرت به أو الذى عثر على لست أدرى ، كنت مع لجنة المساحة فى أرض قريبة من النيل ، فى صفار شمس من أوائل أيام الخريف . أنا جالس على الأرض فوق حرام ، سحب أبكار رقيقة الحواشي تتبختر عبر سماء زرقاء شفافة ، عصفور ـ لا أعرف اسمه ـ له ذيل طويل مرتعش يتواثب من حولى ساعيا وراء رزقه بهمة تغالب وجله الدائم ، يريد أن يعود لعشه قبل الغروب . من بين عيدان البرسيم تصل الى أنفى من بطن الطين الندى تحت قشرة جافة رائحة زخمة توحى بأن مخاضه لم ينقطع كأنها منبعثة من معمل كيمائى .. نداءات الفلاحين بعضهم لبعض عبر الحقول لها ولولة شجية يهتز لها قلبى ، كنت أحسب أن أمامنا ساعة كاملة من قبل أن يتم العمل ولكن أعضاء اللجنة يسرعون على غير عادتهم . وجمعوا أدواتهم وهموا بالانصراف ، فلما وقفت رأيتهم يصطفون أمامى جاعلين ظهورهم للنيل ، أحسست أنهم يخفون عنى شيئا ، فشققت سياجهم وعلوت الجسر وتأملت المياه فاذا بجسد مكور يقب ويغطس .

ـ ما هذا .. ؟

ـ مفيش حاجة ياحضرة المعاون ، باينها جثة بهيمة .. يمكن حمار ولا مؤاخذة .

ـ حمار ازاى .. ؟ ده بنى آدم أهو قدامكم ..

ـ اعمل معروف ياحضرة المعاون ماتجبلناش مصيبة وخوتة دماغ . سيبها تبحر مع المية تطلع فى حتة تانية .

سيأتى رجال المركز والنيابة والطبيب وعدد من الجند ،

يلزمهم قهوة وشاى ان لم يكن غداء أو عشاء ، وستحسب جناية فى احصائيات القرية ، ويزيد عدد عفاريتها واحدا .

لم أنتقل حتى أخرجت الجثة ووضعت على الجسر . وجدناها عارية الا من حبل من الليف مربوط حول العنق هو لا يدل الا على أن فلاحى القرية القبلية ربطوها به وسحبوها بعيدا عن زمامهم .. ابتلت الأرض حول الجثة ، لاتزال تنزلق من فوقها قطرات ضئيلة من الماء كأنها عرق لوح من الثلج .. الأظافر مزرقة ، وجلد الكفين انفصل على هيئة قفاز شفاف ، البطن منتفخ ، فيه جفنات مشرذمة الجوانب ، من هنا دخلت السكين .. وبدت الساقان والذراعان المقوستان قصيرة لا تناسب حجم الجثة ، ورغم أن سواد العينين اختلط بالبياض خلت أن الغريق يصوب الينا نظرة شاخصة .

حضرت تشريح الجثة ولكنى بقيت مشيحا بوجهى عنها ، لا يكربنى منظرها بل نطقها ببرودة الموت .

لم نعرف من هو ، ودارت اشارة تليفونية على جميع عمد المركز بأوصاف القتيل الغريق الذى عثر عليه المعاون فلان الفلانى .. فتجمع على لوم القرى كلها لا قرية واحدة .

لم أسمع بعد ذلك شيئا عن هذا القتيل ، وحفظت القضية لعدم معرفة الفاعل .



يوم الكشف

٠٠ سأروى لك آخر المتمة مثلا جديدا عن استهتار طبيب المركز في أمر قد يكون هينا ، ومع ذلك كنت لا أستسيغه رغم عجزى عن الرد على حججه ٠

يوم الكشف الأسبوعى على المومسات يتحرك موكبهن جماعة سيرا على الأقدام من النقطة الى مكتب الطبيب ٠ لهن مشية مضطربة ، لا هى متسكعة ولا مجهدة ، كأنما يئودهن تعلم المشي من جديد في مشوار هو سخرة لا نزهة ٠٠ صامتات لولا طرف فستان لبنى أو بمبة من تحت ثيابهن السود لما فطن لهن أحد ، رأيت الناس يتركوهن لحالهن ، لا تعليقات لهم ، لا بسخرية ولا برثاء ، هذا الموكب الذى ألفوا مشاهدته هو عندهم « طقم شغالة » يجاهد فى الحياة مثلهم ٠ تتجمع النسوة في الردهة ويتسلم الفراش رخصهن ويدخل بها على الطبيب فيوقع عليها بأنه أجرى الكشف وثبت لديه خلوهن من الأمراض التناسلية ، ويعود الموكب من حيث أتى ، صامتات لا يفهمن لم كان الذهاب والاياب ٠٠ شغل الحكومة عاوز كده ٠

لم أتورع عن أن أسأل الطبيب :

ـ لماذا تفعل ذلك وأنت مطالب بأن تكشف عليهن ؟

أجابنى :

ـ لو كشفت عليهن لضاع منى وقت طويل ، ولثبت أنهن جميعا مصابات بأمراض ، ثم ان كل من يخالطهن يعلم علم اليقين أنه يعرض نفسه للمرض ، ذنبه على جنبه ٠

داخل قلعة

أودع هذا الطبيب الذى قسوت عليه رغم أنفى وعلى خلاف طبعى ، وألوم نفسى من أجل ذلك لوما شديدا ، بأن أعترف بجميل له على • كان لا يخالط الموظفين ، وقلما دخل أحد داره ، ولكنه دعانى ذات يوم للعشاء • لعله رآنى من كثرة ماوجهت اليه من أسئلة ساذجة •• وبسبب نظراتى الحائرة المتطلعة أننى لم أنخرط بعد فى قافلة رجال الادارة ، أو ربما شفع لى عنده أننى أشذ عنهم فيرانى الناس أحيانا أخرج الى عملى وفى يدى أو فى جيبى كتاب • دخلت مسكنا أنيقا نظيفا ينم لأول وهلة عن ثقافة أوربية • ستائر ملونة على النوافذ ، لم أشهد مثلها فى منفلوط •• أنوار خافتة ، أثاث مريح من الطراز الانجليزى ، ومكتبة غربية عامرة ، وبيانو فى ركن الصالون • ودخلت علينا صاحبة الدار • سيدة متحشمة وقور فى ثوب جميل • وكنت لم أرها من قبل • أغلب الظن أنها تعيش طول الوقت حبيسة دارها • أحسست أننى أنتقل فجأة الى صالون — لا فى القاهرة — بل فى لندن أو باريس • لم أعجب حين علمت أنها من خريجات « الساكركور » • عزفت لنا على البيانو ألحانا تلقاها هواء منفلوط بدهشة يمازجها استغراب • من أى عالم قصى مجهول يأتينا هذا الطارق الغريب ؟ علمت أن لهم أولادا — رأيت صورهم فوق البيانو — بقوا فى القاهرة لطلب العلم ••

يسود الدار جو من السلام والدعة والنظافة والرقة والاطمئنان ومع ذلك لم أنعم بعشائى الفاخر — بين أطقم من فضة وكريستال — وأنا أحاول أن أطابق ما أشهد على سيرة

هذا الطبيب خارج داره • زلزل هذا التناقض نفسي زلزالا شديدا وعجزت عن الفهم والتفسير • وأحسست أنني في صحبة أناس أقاموا وسط الغابة مخبأ جعلوه لا يتسع الا لهم ، وصورة مصغرة لقصر جميل ، وأقاموا من حولهم المتاريس •• يخرجون للأدغال للصيد كالوحوش ، ثم يعودون فيغسلون أيديهم وينفضون ثيابهم ويتذوقون نعم المدنية والحضارة للجسد والروح •• أما أنا فقد بقيت نفسي طول المساء مطروحة خارج المتاريس ، ممزقة أشلاء ، يتناهبها سكان الأدغال •• ووقاني الله سبحانه وتعالى طول حياتي من شر هذا السياج •

قبلات وأحضان

أكاد أحس أن أهل البلد كانوا أيضا يقولون في سرهم : « كيف يخلص لنا هؤلاء الموظفون وهم لا يخلص بعضهم لبعض ؟ •• » لا شك أن أخبارنا تصلهم • فيضعونها تحت أضراسهم ويخفون ابتسامتهم الصفراء تحت شواربهم •

في المركز معاون بوليس ومعاون خفر ، كلاهما رب لأسرة كبيرة تعتز به ، هما مضرب المثل في الصداقة ، لا يقابل أحدهما الآخر ، في المكتب أو في الطريق ، بالليل أو بالنهار ، الا اندلق كل منهما في حضن حبيبه وطوقه بذراعيه ، وانشغل الفم وهو مفلوت العيار بتقبيل الوجنات، وظلت اليد اليمنى تطبطب من وراء على الظهر كأنها تمتحن بطيخة •• كنت أحسدهما وأتمنى أن يكون لي صديق

مثلهما . وظل هذا حالهما زمنا غير قصير ، ثم لا أدرى ما الذى حدث بينهما فاذا بالصداقة الحارة تنقلب فى غمضة عين الى عداء شديد .. لغاية كده كويس .. هذه الأشياء تحدث فى الحياة حتى قيل فيها شعر كثير وأمثال وحكم ومواعظ .. ولكنى أصبت بذهول حين دخلت على معاون الخفر فوجدته منشغلا بهمة فى تحرير عريضة اتهام ضد معاون البوليس . فى يده « نوتة » صغيرة مما يوضع فى جيب الصديرى ، يتأمل صفحاتها ويكتب :

« فى يوم ١٠ يناير (أى منذ خمسة أشهر تقريبا) أشر معاون البوليس فى دفتر الأحوال أنه خرج لداورية ليلية الساعة كذا وأنه عاد منها الساعة كذا مع أن الذى حدث هو أنه أرسل الجندى السوارى فرح سعفان ، فجمع له دفاتر الخفراء من مناطقهم ، وأشر عليها وهو فى منزله لم يبرحه ».

ثم يقلب صفحات النوتة حتى يعثر على تسجيل آخر فيعاود الكتابة :

« وفى يوم أول فبراير أخذ بدون وجه حق من عليقة المركز ملو كيسين تبن لحصانه الخاص .. وفى يوم ٣ مارس .. »

سألته : ايه الحكاية .. ؟ ليه تعمل كده .. ؟ أنتم كنتو أصحاب .. عز الحبايب ..

فانفجر فى :

ـ ابن الكلب الشرموط مقدم فى عريضة مهببة ، أتارى السافل كان مقيد على كل حركاتى وسكناتى زى اللى كان مراقبنى ، تصور عادد كام مرة رحت فيها قال خمارة البلد ، كذاب فى أصل وشه ، لكن ماتخافش على أنا كنت

واخد احتياطي • البركة فى النوتة دى • وقبل ما يوديني فى داهية ـ ده بعيد عن شنبه ـ ح أوديه أنا فى ستين داهية •• بكره تشوف واقعته سوداء ••

انصرفت أجر أقدامي ، لم أسأله :

ـ ومقيد على أنا ايه فى النوتة بتاعتك ؟

لعل الذى كان يطمئنى قليلا أن ليس بينى وبينه لا قبلات ولا أحضان •• وانما أعدك بأننى سأحدثك عن خمارة البلد فقد كان معاون الخفر هو الذى قادنى اليها أول مرة وسحب رجلى اليها •

سينما بدون رخصة

لذلك لم يندهش أهل البلد حينما علموا ذات صباح بما فعله معاون البوليس بواحد منهم بالليل ••

بجوار المركز بيت جميل لأحد الأعيان الأثرياء ، له حديقة واسعة • هو معمم وله ابن مطربش يهيم بالسينما ، فأقام فى الحديقة آلة عرض جيدة وشاشة لا يقل حجمها عن شاشة دور السينما • وكان يتكرم علينا ويدعونا لمشاهدة الأفلام كل مساء مع عدد قليل من أصدقاء صاحب البيت • وتدور علينا بسخاء فناجين القهوة والشاى وأكواب الشربات ، سهرة جميلة هى نعمة كبيرة أحمد الله عليها • وكان هذا الثرى عضوا مرموقا فى حزب سياسى كبير يتولى الحكم •

معاون البوليس أولنا فى الدخول وآخرنا فى الانصراف. اذا حدث أن أخره عمل فى مكتبه أرسل خفيرا يرجو صاحب الدار أن يؤخر عرض الفيلم حتى يحضر . هو أكثرنا مبالغة فى تحيته ومدحه والثناء على كرمه وأخلاقه التى لا تفترق عن أخلاق الملائكة .. وكان يطلب من الابن أحيانا أفلاما معينة فيحضرها له اكراما لخاطره ..

فى مساء اليوم الذى بلغنا فيه نبأ اقالة الوزارة وجدته مهموما فى البحث عن شمعة وشريط من القماش وشمع أحمر .

لم أر من قبل مثل هذه التشكيلة فوق مكتبه فسألته باستغراب :

ــ خير ان شاء الله ؟ .

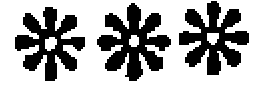
ــ لا ، حاجة بسيطة ، أنا رايح أحرر لجارنا فلان محضر مخالفة لأنه فاتح سينما عمومية بدون رخصة .

ــ وح تعمل ايه .. ؟ ح تشمع باب البيت .. ؟ وأهله يدخلوا ويخرجوا ازاى .. ؟

ــ أنا ما أعرفوش الا انه باب السينما ، ده مش ذنبى قدامهم المحكمة .

ــ وعندك تعليمات بكده .. ؟

ــ هى دى عاوزة تعليمات يا أستاذ ؟ .. الدور على فى الترقية ، وعاوز لى زقة بسيطة ؛ فلعل وعسى ★ .



* «الجمهورية» ٢٦ ـ ٦ ـ ١٩٥٩ ـ ص ١٠

ماحدش زيك ..

وخيل الى كذلك أن أهل البلد يجدون نوعا من التسلية في استعراضهم للموظفين يتبدلون عليهم تباعا أشكالا وألوانا، فما يكاد القادم يستقر بينهم ويألفهم ويألفونه حتى ينقل ويحل محله وجه جديد له طبائعه ومزاجه .. ساقية لا تكف عن الدوران . هذا الدوران كما يصون لحسن الحظ أهل البلد من تحمل الهم المقيم اذا كان القادم فاسدا أو مناكفا ، فهو ليس بالمخلد بينهم ، يحكم كذلك ـ لسوء الحظ ـ على هذه الألفة مع القادم الذى يرضون عنه بأن تظل سطحية لأنها مؤقتة . فالفلاح رجل عملي يجد من العبث والاسراف في غير طائل أن تتحول الألفة الى صداقة مع عابر سبيل .

وقد رأيت بعض الموظفين الطيبين العواطفجية ، حين ينقلون من بلد أقاموا فيه زمنا الى بلد آخر عساه أن يكون قريبا ، يلحقهم شيء من المرارة ويتهمون أهله بالجحود وقلة الوفاء والمقدرة على الضحك على الذقون ، حين يرون أن صلاتهم بأهله التى وهموا أثناء اقامتهم به أنها توثقت ، قد انبتت مرة واحدة كأنما لم يعرفهم فى هذا البلد أحد أو ـ كما يقولون ـ كأنما لم يكن لهم أفضال كبيرة على كثير من أهل هذا البلد .

هذه النظرية العملية من جانب الفلاح ، وهذه المرارة الموروثة من الماضى عند الموظف العاطفي ـ والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ـ تعرقلان توثيق الصلات بينهما مهما طالت اقامة الموظف بالبلد الجديد ، وتظل هذه الصلات رغم

ظـواهرها البراقة لا تسـلم من جو من الزيف ، وان كان منشـؤه أسـبابا سـلبية غير متعمـدة من الجـانبين ..
فالفلاحون يرون أن الموظف أتى لا حبا فى سواد عيونهم ، بل تأدية لواجب مفروض ربما يراه كريها ، ما يفرغ منـه حتى يسرع فيولى لهم ظهره ويتفض منهم اليدين ، والموظف يتـوقع من أهل البلـد منـذ مبدأ الأمر قلة الوفاء وسرعة النسيان ، ولا يصـدق في كثير من الأحوال مودة من يهم بالتقرب اليه .

وكنت أحس بهذه التيارات التحتـانية ، وأرقبها بأسى غير قليل ، ولا أعرف لها علاجا ، وأرى مجتمعنا فى الريف يضيع عليه بسببها كثير من الخير والجمال .

وجدت في بندر منفلوط رجلا قصير القامة يلف رقبتـه شتاء وصيفا بكوفية من الحرير يماثلها فى اللون أحيانا ، ثم يبيض عنها ــ بعد الغسيل كل شهر مرة ــ شال عمامة واسعة تهبط حتى تكاد تقضم أذنيه في وجه مستدير دائم الابتسام (فكنت أعرف أسـنانه) . له فرس « رهوان » هي وحدها دليله على أنه يمت للأعيان بصلة ، على حين أن رقة ملابسـه وخشـونة جلده لا تعيننـا على تصـديقه . ولكن ــ كثر الله خيره ــ هو رجل ليست له مصلحة يجرى وراءها في المركز ، ولا له قضية يدخل من أجلها المحكمة ، ولكنه مع ذلك وقف نفسـه ــ كأنمـا يجـد فى ذلك لذة كبيرة ــ على تتبع أخبار تنقلات الموظفين ، واستقبال القادم وتوديع الراحـل ، وان لم يدخل أحدنا قط بيتـه ، بل لم أعرف فى أى شـارع يقيم وما مهنته على وجه التحـديد .
نراه على رصيف المحطة ــ والقطـار يبرحهـا فى منتصف

لليل ـ يقول للموظف المسافر وابتسامته المعهودة لا تفارق شفتيه :

ـ والله العظيم ماحدش جانا زيك قبل كده ، ويقول له : ولا حدش ح يجينا زيك بعد كده ٠

ثم يكون فى استقبال الموظف الجديد ويقول له بابتسامته اياها :

ـ البلد نورت وربنا أكرمنا بيك ، والله العظيم من وشك باين ماحدش جالنا زيك قبل كده ولا حدش ح يجينا زيك بعد كده ٠

هيهات أن يطاوعنى قلبى أن أتهم بالنفاق رجلا يتبرع لوجه الله ـ لا سعيا وراء مصلحة ـ بكل هذا الترحيب والمديح ٠

بيت الباشمهندس

من ذكرياتى عن تنقلات الموظفين ٠

مهندس البلدية مضى عليه فى منفلوط أكثر من ثلاث سنوات جاءها منقولا من وجه بحرى فعد هذا النقل نكبة كبرى ٠ ليس لديه أمل فى التخلص من قبضة الصعيد لأن ملف خدمته يزداد مع الأيام والسخط اسودادا ، فاستسلم وطلب السعادة والنسيان فى نشوة الخمر وأحلامها ٠ يسميه أهل البلد « الباشمهندس » فنحن جميعا نعلو رتبة عندهم ٠٠ الجاويش « باشجاويش » ، والمفتش « باشمفتش » ، وأنا كنت معروفا باسم « الباشمعاون » ٠

هو رجل أعزب عزوف عن الناس ، لا يألف الا شلته فى القهوة ، ولعله لو أتى هؤلاء الأصحاب القلائل في مكان غير القهوة لهرب منهم • يسكن وحده ـ بلا خادم ـ في منزل طويل عريض من طابقين يقع فى أطراف البندر ، لا يئوب اليه الا بعد منتصف الليل فيفتح الباب بعد لأى ، ويعلو الدرج وهو يدندن حتى يصل الى فراشه ، فيرتمى عليه وينام ، ثم يغادره فى الصباح ويعود اليه بعد الظهر لينام ساعات القيلولة ثم يخرج وهكذا دواليك ، لا يختلف يوم عن آخر ، حياته مظروف به ثلاث صور تحقيق شخصية من أصل واحد ، هى الأمس واليوم والغد ، فأنت تراه لا ينتفع من هذا البيت الكبير كله الا بسرير سفرى صغير •

أصبح المنزل بعد قليل ـ فما بالك بعد ثلاث سنوات ـ من المسارح الحرة للفيران والعناكب والهوام والغبار ، زجاجات الخمر مبعثرة على طول المدق المؤدى من الباب الى الفراش • أوراق الصحف تطير كما تشاء وتستقر حيث تشاء ، القمامة بين متناثرة ومكدسة طال عليها الأمد ، والباشمهندس المكلف بنظافة البلد كله سعيد بحياته أشد السعادة ، يقول : ان أوسخ معيشة لأعزب أفضل ألف مرة من أنظف معيشة لمتزوج • لما عرفته تنبهت أن أهل البلد حين يتطقون لفظ « الباشمهندس » لا يخفون ابتسامة تدل على الاستخفاف والرثاء معا •

كنت ألحظه وهو يسير أمامى على حافة الطريق منزويا مقنفدا ، رأسه اندفست فى جسده فلمس شعر قفاه ياقة الجاكتة أو البلطو ، له مشية راقصة تديره قليلا الى اليمين

ثم قليلا الى لايسار • ترى أثرها فى تآكل كعبى حذائه من جنب• وحين أرقبه يسير هكذا وأجد يديه مضمومتين يحركهما الى الأمام والخلف لا أدرى لماذا يخيل الى أنه يكلم نفسه ، أحس حينئذ أنه شيخ متعب أثقلته السنون والهموم ، فاذا لحقته ـ لا أبالى اقتحامى لخلوته ومفاجأتى له ـ ومشيت الى جانبه تطلعت الى عينيه تحت حاجبين غزيرين متهدلين ، مستندين الى وسادة رثة من انتفاخ مستعرض على شكل اللوزة فوق كرسى الخد ، رق جلدها حتى تتحسب أنك لو مسستها بسن أبرة لنزت دموعا متعفنة ، وتقلصت على صدغيه تجاعيد رقيقة كخطوط الكف وعلى جبهته ـ لماذا لا يفردها ؟ ـ حبال من دوبارة غليظة كأنما لفتها يد العطار فى الحمزاوى • تنبعث من هاتين العينين نظرة صافية وديعة تترقرق بماء الحياة والقدرة على الضحك والبهجة ، لم أر مثلهما عيونا تبتسم وتغضى بحياء لذيذ لا يلبث أن يعم الوجه كله ، فأحس أننى بازاء شاب قد شاخ قبل الأوان • اننى لا أستطيع تخمين عمره ويورثنى هذا العجز شيئا من الحزن والأسى ، كأننى أشهد غصنا رطيبا لا يزال أمامه فى الحياة فسحة كبيرة يورق فيها ويزهر تقصفه فى عز الشباب يد غادرة • وكلامى عن عجزى عن تقدير العمر له بقية ستأتى فيما بعد •

نترك سيرة الباشمهندس قليلا لنستقبل معاون البوليس الجديد الذى شرفنا ذات صباح وقال له صاحب الابتسامة والفرس الرهوان : انه لم يأت لمنفلوط من قبل ولن يأتى من بعد معاون مثله طيب ابن حلال • هو شاب أنيق أبيض اللون ، وسيم متعاجب ، على رأسه طربوش غامق قصير كطربوش اسماعيل باشا ، يتألق فرحا بمنصبه الجديد

لأنه جاءنا بترقية تقربه الى مطمعه فى أن يصبح سريعا مأمورا لمركز ، وينتقل من تلقى الأوامر السخيفة وينفذها وهو لاعن ساخط الى اصدار هذه الأوامر فى نفخة وأبهة بالقلم الأحمر أو بالشخط والنطر .

فهمنا أنه متزوج ولكنه جاء وحده أول الأمر ليبحث عن مسكن ، فاذا وجده استدعى أسرته . وبدأ الموظفون يتهامسون أن مثل هذا الشاب الحليوسة الذى تبدو عليه دلائل النعمة لابد له زوجة جميلة هاى لايف ، فمتى تحضر؟ ومتى نراها ولو خلسة ؟

جعل المعاون أول همه البحث عن سكن وترك مكتبه وبدأ يجول فى البلد حتى وجد بيتا أعجبه موقعه وتفصيله وان أكربته فيه قذارة الأرض والجدران وسارع باستئجاره . وقيل له ان هذا البيت معروف فى البلد كله باسم « بيت الباشمهندس » نسبة الى مالكه الأول وكان مهندسا من أبناء البلد .

وعاد المعاون من فوره على عجل الى مكتبه ، وكنا بعد الظهر بقليل فدق الجرس فدخل عليه الجاويش .

ـ اسمع يا جاويش

ـ أفندم

ـ أنت عارف بيت الباشمهندس .

ـ أيوه

ـ ده بيت وسخ قوى .

ـ معاك حق يا سعادة البيه حاجة وحشة خالص .

ـ عندك كام عسكرى ماعلهمش الوردية ؟

ـ أربعة

ـ وكام خفير ؟

ـ ستة

ـ وكام مسجون أشغال ؟ (وهم المساجين الذين يعملون سدادا لغرامة) ..

ـ يبجي عشرة .

ـ عاوزك تخدهم كلهم وتروح معاهم تنضفوا لى البيت ده من فوق لتحت تخلوه زى المراية . فاهم ؟

ـ حاضر يا أفندم ، أمرك يا أفندم !

وخرج الباشجاويش وهو معجب أشد الاعجاب بالمعاون الجديد فهو رجل حمش لا يعجبه الحال المايل ولا يخاف أحدا .

جاءنا الباشمهندس للقهوة متأخرا وهو يكاد يقع من طوله لفرط الضحك .

ـ خير ان شاء الله مش عادتك ؟

ـ تصوروا أنني كنت راقدا اليوم بعد الظهر فى أحلى نومة فاذا بى أستيقظ فزعا على دق شديد على الباب كأن القيامة قد قامت . لم يحدث لى هذا قط من قبل ، وزاد انزعاجى حينما تدليت من النافذة فرأيت رهطا كبيرا من العساكر والخفر والمساجين على رأسهم الباشجاويش وفى أيديهم جرادل وفرش ومقشات ، وثقت أنهم أخطأوا العنوان ، وعرفتهم بنفسى وان كانوا يعرفوننى . ولكن الباشجاويش طلب منى ألا أضيع الوقت وأن أنزل اليه ، فلما واجهته قال لى ان لديه أوامر مشددة بتنظيف البيت من

تحت لفوق ، ففتحت لهم الباب على مصراعيه وظلوا من بعد الظهر الى العشاء يكنسون ويمسحون ، حاجة ألسطة خالص ، رزق الهبل على المجانين وتيجى للعمى طابات .. والى الآن لا أعرف السر ولا من تكرم على بهذه الخدمة الكبيرة .

لا أعرف ماذا حدث لمعاون البوليس حين عاد يعاين داره الجديدة بعد العشاء والسهرة مع المأمور ليطمئن على تنفيذ أوامره .. والعجيب أنه حنق على الباشمهندس ــ ولا ذنب له ــ وظل طول صحبتهما يناكفه ويدبر له المقالب .

***

اعود لبقية الحديث الذى فتح بابه على وصفى للباشمهندس وقولى اننى أسيت له حين عجزت عن تخمين عمره .

هذا التناقض بين العمر والوجه كان يلاحقنى مرات غير قليلة . فى منفلوط تلقيت لأول مرة فى حياتى عن قرب ووجها لوجه ضحايا البلهارسيا والملاريا ، فتية كثيرون فى زهرة العمر اكتسى وجههم بسبب هذين المرضين الخبيثين بصفرة الموت ، انتفخت بطونهم بثقل طحال متضخم ، أصبحوا مسخا تحار كيف تصفهم ، أهم شباب أم شيوخ . فى عيونهم نظرة مجهدة ومع ذلك تثب اليك كأنما تحاول التملص من يد تغتالها لتنطق بمعانى النفس وتنم بالراحة والمرح والمعابثة . وجدت أغلب الفلاحات ما تكاد الواحدة تتزوج وتخلف ولدا أو اثنين حتى تتساوى فى المظهر مع أمها ، قددتهما لسعة الشمس ووقدة الفرن ، وامتهنهما

وعطرهما بشذى واحد عجين الجلة وتقريصها ، ودمغهما بميسم واحد بذل جهد مماثل في عمل شاق متصل رتيب ، هي أكثر أهلنا قفزا من الصبا الى الشيخوخة ، ولكن لهفي على صبية صغار لم يشبوا بعد عن طوق الطفولة من الكادحين في الريف أو في المدن ، أولاد الفلاحين في الغيط، الباعة السريحة في المدن ، ولماو السبارس والمشردين على سلالم الترام من يمين ويسار ، والخدم الصغار من بنين وبنات : هم من معاناة الحياة أصبح لهم ذكاء الرجال المجربين وخبثهم وحيلهم وكلامهم ، حرموا جميعا من مرحلة هي أجمل العمر مرحلة الطفولة بلهوها وأخيلتها وغرقها في غفلة من الهموم في عالم من اللعب والاختراع لا تمت لعالمنا بصلة ، ان هذا الغدر بالطفولة مأساة نعيشها ونغفل عنها ، لسنا فيها بدعا بين الأمم التي تجاهد للتغلب على الفقر • ان سعادة الآمم اذا قيست بالدخل القومي أو انتشار التعليم فانها تقاس أيضا بنجاحها في أن تتيح لكل مرحلة من مراحل العمر حقها وحظها في الحياة •

حتى بين الموسرين ، كم أود أن يكف الآباء والأمهات عندنا عن اشراك أطفالهم في أحاديثهم ومشاكلهم وعن الالحاح عليهم بأن يثبتوا سريعا مقدرتهم على الكلام والفهم والتصرف كالبالغين ، انهم يحرقون طفولة أبنائهم وهم لا يشعرون في سبيل الافتخار الأناني بأنهم أنجبوا عباقرة •

تسكع على الصبح

غلبني في ذلك الصباح ميل الى التسكع بعد العمل المتواصل في الايام الأخيرة هو الذي صد نفسي عن الذهاب

الى المركز ، كنت محتاجا الى يد تدلك عن رقبتى وركبتى تصلبهما من ركوب الحمار ، وتدلك أعصابى أيضا لأنها كالزنبرك ، هو وحده الذى اذا انفك تعقد ، والتعب ـ كالجوع ـ يحطم النفس ويذلها ويغيض عليه كل مباهجها ، فكى الأسفل يتوسل الى : من فضلك خلينى أتثاءب ، وروحى تتوحم على وسادة من ريش النعام لتضع عليه راسها وترقد تحت شجرة وتحلم الأحلام • والغريب أننى أحسست مع هذا الميل الى التسكع بتوهج فى حاسة الذوق ، لا أدرى سببه ، فليس له علاقة بالجوع ، اذ كنت دببت بطنى بالفطور من جبن ولبن وفول مدمس كعادتى كل صباح • وجدت لسانى كأنه استيقظ من نوم أو شفى من علة وأخذ يتمسح فى قضبان فمى كما يفعل الثعلب الحبيس فى قفصه اذا دنت ساعة الأكل ، يقول لى لسانى ، اذا أذقتنى الآن شيئا ولو طعام دلع أو حرش لاكتشفت معى لاول مرة أجمل أسرار طعمه وأدركت طرفا من نعم الله •

ولكن أين اذهب ؟ ليس اليوم يوم السوق ، فلو كان لوجدت فيه ما أشتهى على أتمه • اننى لا أريد أن أجلس على القهوة لسببين ، الأول : أننى أستسمج أن أزوغ من المركز علنا ، والثانى : أن الذهاب للقهوة نوع من الوظيفة الفتها رجلاى وسمعى وبصرى ، لو أصبت بداء المشى فى حالة النوم لما قادتنى قدماى الا اليها ، على حين أن لذة التسكع هى فى الخروج عن المألوف • المحطة ميتة ، لأن موعد قطار مصر لا يزال بعيدا ، حتى الناظر قفل الدكان ووضع مفتاحه فى جيبه وصعد الى زوجته ، يخطف له تعسيلة ، لن تكتحل عينى الا برذاذ الروائح المتطايرة مع فتات القشر من أكياس البصل المكدسة على الرصيف ، كل منها فى

شهره التاسع • الجلوس على باب الصيدلية لم يأت أوانه بعد ، فقد قررت ألا أفعله الا اذا كانت في يدي منشة من شعر الخيل بمقبض من العاج بعد الاحالة على المعاش حين يكون همي الأوحد السؤال عن آخر علاج لضغط الدم ، ان كان في العمر بقية •

اذن لم يبق لي الا أن أتطفل على طبيب المركز ، صديقي الذي بفضله علمت عن مظالم أهلنا ما لا كنت أعلم أو أتخيل ، وأقرب الأمكنة شبها بمحطة السكة الحديدية التي أحبها ساعة يقظتها على صفير القطار ، هي عيادة الطبيب ، فليس الا عندها نحس أننا في هذه الدنيا على سفر أيضا •

دخلت عليه فوجدته لحسن الحظ منشغلا باجراء جراحة ، اذا كان لا يلبس معطفا أبيض ـ حاشا ثم حاشا ـ فمن باب أولى ألا يضع برقعا على فمه ، لعل عذره أن أهل الصعيد يرون من أكبر الكبائر أن يتبرقع الرجل كالمرأة ، بل اكتفى بخلع الجاكتة ولملمة كم القميص فوق الكوع كالرحى ، وعلى الطاولة الضيقة الطويلة ـ دهانها الأبيض مقشور هنا وهناك ـ رقدت فلاحة شابة من قرية مجاورة ، لا ترتدي الا جلبابا أسود غليظا ، يهبط الى الكعبين ويتكفل ذيله اذا مشت بكنس الطريق وراءها ، طعنتها جاموسة بقرنها فمزقت جدار بطنها ، والعجيب أن الثوب ذاته لم يتمزق لأنه فضفاض ، فنفذ في مكان الطعنة مع القرن الى تجويف البطن ثم رجع سليما ، كان الطبيب قد أزاح ثوبها وكومه فوق صدرها • فلأول مرة في حياتي رأيت أمعاء انسان حي تبرز من ثقب في بطنه بروز أسلاك من موطور مخروب ، ودهشت حين رأيتها على غير ما كنت أظن ، رقيقة تكاد تكون شفافة ، منتفخة كبالون الأطفال ، تشبه

البقاليل ، أى قدرة هذه التى تقيم حياة الانسان المستأسد على مثل هذا الوهن ؟ الشابة الفلاحة شاحبة الوجه زائغـة العينين ، مرتعبة لا من الجـراحة بل من وقوعهـا وهى فى الغربة ـ مع أن المسافة بين قريتها والمركز فركة كعب ـ فى يد أناس ليســوا من أهلهــا ولا من طينتهم ، تعرف أكيدا بالبداهة وبالوراثة والسمع والعلم والتجربة أن الرحمة قد نزعت من قلوبهم ، يائســة مغمومة لو استطاعت للطمت خديها ، لا رثاء لحــالها أو لحــال وليــد سيتيتم يا ضناى بعدها ، بل لعريها وانتهاك حرمتها وكشف عورتها ، أظن أن عارها هو الذى أفقـدها الشعور بالألم ، فهى لا تصرخ أو تتاوه ، انما تتلاحق أنفاسها كانها تلهث من كرب عظيم ، كنت أظن من قبــل أن جمــال الوجه لا ينطــق الا فى حالة الصحة والنعيم والاشراق وأن الجمال والرضا أو البؤس أو الكمد ضدان لا يجتمعان • فما بال هذا الوجه الذى تجمعت عليه كل الأدواء ، وشحب على الخوف والبـؤس ، وكادت شفتاه تضربان الى الزرقة ، جلده مشدود وعظامه ناتئة ، كل خلية فيه لم ترع الا المش والبصل والبتاو ، ما باله قد اكتسى فى نظرى بصفاء التحف المرمرية فى قبور الفراعنة ، كل لمس لهــا تيمم وتبرك وصــلاة • وما بال الشــفتين قد أنستنى رقة رعشتهما لونهما ، بل تمثل لى فيه كل ضعف وضياع وعطش للحنان ، لو أطعت نفسى لمددت يدى أمسح بها على شعرها وجبهتها ولملت بفمى على شفتيها الزرقاوين أقبلهما •

غسل الطبيب يديه فى طبق غويط به سائل مطهر ، لم يلبس قفازا ، بل أخذ يعمل بسبابتيه واحدة وراء أخرى ـ كأنه يحشو باذنجان ضولمة ـ فى دفع الأمعاء البارزة داخل

تجويف البطن وأنا أهمس له :

ـ مفيش بنج ؟

فرد علي بقهقهة أردفها بقوله :

ـ خليها على الله ٠

انتهى من ادخال الأمعاء ورأيت كيف خاط جدار البطن حتى اذا فرغ من وضع الضماد عليه سحب ثوبها من فوق صدرها وغطاها وهو يتنهد ٠٠ كم كنت أتمنى أن يشيح بوجهه ولو في هذه الحركة الأخيرة التي لا تستدعي منه النظر لتفهم الفلاحة أننا فهمنا ، ولكن تقول لمين ؟

سألته :

ـ أتظن أنها ستعيش ؟

فأجاب :

ـ وتبقى زي الجاموسة اللي نطحتها ، الصعايدة جنس نمرود ، مايجيبهوش الأرض الا الشديد القوي ، ولا يفل الحديد الا الحديد يا أستاذ ٠

والعجيب أني تتبعت أخبار هذه الشابة من العمدة وعلمت أنها شفيت في أقل من أسبوع ٠

لا أدري لماذا ذكرتني ملاحظة الطبيب عن الجنس النمرود بهذا الرجل الأعرج الذي عرفته في احدى قرى نقطة « نزالي » جنوب ٠ انتظر أهلها على زمنا حتى ألفوا حديثي وطبعي ٠ ثم باحوا لي بالسر ٠٠

كنا جالسين ذلك اليوم أمام دوار العمدة فاقبل علينا هذا الأعرج ، رجل بدين ، يدل مظهره على أنه أرفع من طبقة الفقراء المعدمين ، لما سلم علي كادت يده تسحق أصابعي ، ومع ذلك فكل حاله ينطق بأنه طفل كبير ، في

خفة حديثه وتلفت وجهه ولعبه بعود من القش يعقده حول أصابعه ، وفي استناده عند القيـام على كفيه فوق الأرض حتى تعلو عجيزته •

لم يكد يستقر به المقام حتى رأيت القوم كلهم يبتسمون ويتطلعون الى ، شـأن من يريد أن يروى لك نكتة تعجبه ، فلما رأى الرجل ابتسـامتهم عرف الذى هم قادمـون عليه وابتسم هو أيضا ، يريد بهذه الابتسـامة أن يسـتل منهم سلاح الهجوم ، سيكون هو الذى يضحك على نفسه قبلهم •

ثم قالوا وهم يزومون :

ـ تحكى انت والا نحكى احنا ؟

لا اذكر الآن أى الطرفين حكى الحـكاية ، المهم أن هذا الأعرج أصبح منذ حادثته موضع تندر أهل القرية لخلطه بين العباطة والنمردة ، وبين الهبالة والشيطنة ، وأهل القرية يتصيدون أقل دواعى التندر لأنها قليلة ويتوارثون روايتها زمنا غير قليل • كان الرجل قد ذهب وهو سليم الى المنيـا ـ وتلك هى أطول رحلة له شمالا أو جنوبا ـ لعيادة قريب له وللتبرك بزيارة سـيدى الفـولى • فلمـا عاد لم يركب القشاش بل ركب الاكسـبريس وقطع تذكرة لمنفلوط لأن هذا القطر لا يقف على محطـة نزالى جنوب ، ويتطلب نظام السـكة الحـديدية فى الخط المفرد (كمـا كان فى عهدى جنوب المنيا) أن يخطف السائق والقطار مسرع طوقا معلقا فى عمود على رصـيف المحطـة ليقـذف به الى ناظر المحطة التـالية ، وهـكذا دواليـك محطة بعـد محطة يقذف طوقا ويخطف طوقا ، ويقتضيه هذا أن يخفف من سرعة القطـار قليلا •

وكان قطار الاكسبريس قد تأخر عن موعده وبان لصاحبنا انه لن يدخل منفلوط الا بعد منتصف الليل حين تكون قد انقطعت كل المواصلات ، وعزم على أن يكوع فى المحطة حتى الفجر ، ولكنه حين رأى القطار يخفف من سرعته قليلا وهو يهل على محطة نزالى جنوب ـ وربما وصلت الى خياشيم صاحبنا روايح قريته ـ حتى لعب الشيطان بعقله وأوهمه أن النزول من القطار وهو مسرع ينبغى ألا يخيف رجلا شجاعا مثله ، حتى ولو وقع فانه يستطيع أن يسند نفسه على يديه ورجليه ، فلم يكذب الخبر ولم يجد فى العربة كلها من فطن لحماقته حتى يمنعه ، ووقف على باب العربة حتى اذا رأى رصيف المحطة نزل من الاكسبريس كأنه ينزل من سوارس .. لم تدق عنقه كما يعلمنا المنطق وعلم الطبيعة ، بل نجا وكسرت رجله ، ومنذ ذلك اليوم أصبح معروفا فى القرية وما جاورها بأنه : فلان إللى نط من السكسبريس .

وتركنا الرجل ومضى وهو يدب على ساقه العرجاء ويضحك ، يحمل عاهته كأنها قشة على ظهر بعير ، يخيل الى أنه أصبح يؤمن أنه ولد بها كما ولد غيره بست أصابع او أربع ، فليست هذه عاهات بل عوارض .

خرجت مع الطبيب من حجرة العمليات ـ عينى ياعينى ـ الى حجرة المكتب فوجدت فلاحا واقفا بالباب وقفة الخاشع المتأدب ، وسلم علينا بوضع يده على صدره تارة وجبهته تارة أخرى وهو يقبلها كل مرة .

ساله الطبيب :

ـ عاوز ايه ؟ بتشكى من ايه ؟

ـ رطوبة يادكتور ، رطوبة فى جنبى ..

الرطوبة عند الفـلاح هى أخبث الأمراض كلها ، لو فتح مدرسة للطب لسماها مدرسة الرطوبة .

أشار له الطبيب فرقد فوق سرير الكشف وهو يقرفص ركبتيه ويدنيهما الى بطنه ليتخـذ هيئة الهيـاكل العظمية لموتى الشعوب البـدائية فى قبـورهم ، ففردهمـا الطبيب بضغط يده وهو يقول له :

ـ أنهو جنب اللى بيوجعك ؟

فأجاب ببساطة :

ـ جنبى البحرى يادكتور .

لم أتمالك نفسى من الابتسام ، وكدت أتلفت فى الحجرة لأعثر على شىء يهدينى الى البحرى من قبلى ، حتى لو رأيت الشمس أو كانت فى يدى بوصلة لتلخفنت وظللت أدور فى مكانى ..

هذا مثل فريد لحاسة عجيبة وجدتهـا على أشـد قوتها لدى الفلاح ، حاسة معرفة الجهات الأربع . كنت اذا سألت فلاحا عن طريق أجابنى :

ـ امش شـوية وبعـدين تشرق وكمـان مسـافة تبقى تغرب .

وقد يكون الشرق عن يسار السائر والغرب عن يمينه ، ان الفلاح لا يعرف اليمين واليسـار والأمام والخلف ، بل الشرقى والغربى والبحرى والقبلى ، وقد لاحظت أنه يتخذ البحرى أساسا لتحديد الجهات الأخرى ، وبعض الشـعوب

تتخذ الشرق ، لست أدرى تعليل هذا الخلاف والكن الذى تبينته أن الفلاح يعرف الجهات الأربع بالغريزة لا بالتعليم، حتى لو أنه سقط من باراشـوت وهو معصوب العينين فى أضرر مجهولة وسمعك تنادى عليه لهتف بك :

ـ قبل حداى ..

هدأت نفسي بعـد تسـكعها فى عيـادة الطبيب وان لم يتثاءب فكى الأسفل ولم ترقد روحي على وسـادة من ريش النعـام ، وخـرجت وسرت الى المركز وأنا مدلدل الأذنين ، أدير فى رأسى عذرا أخترعه لأبرر تأخـرى . ولماذا أذهب بعيدا . سأقول للمأمور :

ـ أصل عندى رطوبة .

وليفهم ما يفهم ! ★

سـوق الجرائم

حاولت فى الفقـرات السـابقة قدر جهـدى وفى نطاق خبرتى ـ وأعترف مع الأسف أنها محدودة ـ أن أصف لك شعورى ـ وقد أكون مبالغا ومهولا ـ وأنا أتأمل علاقة أهل البلد بالموظفين عمال الحكومة عندهم ، ووصفت لك ما خيل الى أننى رأيته من ثمارها وجذورها باحثا عن تفسير لهـذه الهـوة التى كنت أحس فى عهـدى أنها تفرق بينهم والتى جعلت من همى المؤرق أن أبنى لنفسى فوقهـا جسرا فـكان ينهدم قبل أن يقوم . لم أفلح فى حمل الفلاح على الوثوق بى مع أننى رفضت كل الرفض أن أؤمن بما يقول زملائى

---

* كتب للجميع ، ١٥٠ ، مارس ١٦٠ (ص ٧ ـ ١٣)

ـ عن تجـربة ـ بأن الفـلاح رجل لا يوثق به وأنه عنيـد لا يتحـول عن طبعه وأن معـاملته باللين والانسـانية عبث ضائع .. يلحون على أذنى بهذا الكلام يوما بعد يوم .

هذه الريبة التى شرحت لك مظاهرها وأسبابها هى التى كانت تفسد على الحكومة كثيرا من نيـاتها الطيبة وكانت تجعل ـ كما يتبين من الأمثلة التى ذكرتها لك فيما سبق ـ بين الـكلام الجميـل على الورق وتنفيـذ هذا الـكلام بونا شاسعا .

بقيت لهـذه الهـوة أسـباب أخرى لابد لى من ذكرها ، بعضها لا حيلة لنا فيه ، يظلم الفلاح حكومته بسببها ظلمـا شديدا ، سأضرب لك مثلا بقضية عاصرت مولدها وخاتمتها المفجعة .

فى أحد بلاد المركز أسرة لها سـطوة كبيرة ، لن أطيل عليك بذكر أسبابها ، الأب ـ عميد الأسرة ـ هو « الرأى » الذى يقدر الموقف ويدبر الخطة ويعطى اشـارة التنفيذ ، رجل داهية ، ماكر ، سهتان ، لولبى ، غويط ، ساحر فى كلامه ، وتصنعه التقوى والضعف والطيبة وايثاره المسالمة على العدوان ، ماء من تحت تبن ، يساعد على هذا الزعم أنه رجل نحيـل ، قلة ، مصـاب بأمراض كثيرة أخفها الربو والفتاق . هو أمى لا يقرأ ولا يكتب ولم يخرج من قريته الا قليلا ومع ذلك كنت اذا جلست اليه أقول له فى سرى « لو كنت من رجال السياسة كان يروح جنبك فين « ماكيافللى أو « مترنيخ »! .. كنت أعجب به ، وأحبـه ، رغم كهوفه وسراديبه .. واستلطف مجلسه وحديثه ..

أما التنفيذ فموكول الى الابن الأكبر وهو شـاب ضخم

الجثة ، مفتول العضلات كأن لحمه من حديد ، لو مال على جبل لهده ، يعرفه أهل البلد أنه جريء ، مستبد ، لا يحب أن ينزل كلامه الأرض • مرهوب تخافه الناس •

وأصبحت البلد ذات يوم وهى تتحدث عن نزاع قام بين هـذه الأسرة وجار لهـا فى الأرض ، كل ما أذكره عن سبب النزاع أنه يتعلق بالحدود بين الأرضين ، أو بمرور ماء الماكينـة الى أرض عبر الأخـرى ، لا شـأن له بالمال أو بالعرض • وعلم أهل البلد كلها أن هذا الشاب قال لجاره أمام جمع من الناس :

ـ ياتيجى بالمعروف ، يامايحصلكش طيب ، صدقنى •

وأهل البلد كلهم يشهدون أن هذا الجـار رجل طيب ، لا يؤذى ذبابة ، وأنه انسان ، ولكن الظاهر ان أجله كان قد انتهى ، فلا يدرى أحـد لماذا ركب هـذه المرة رأسـه وأبى الانصياع للتهديد ـ ومع ذلك أخذ يحتاط لنفسه •

رأيته بعينى لا يفارق داره قط بعد الغروب ، ولا يخرج بالنهار الا بين حارسين شحطين ملتصقين بجسده عن يمين ويسار ، وعينه مع ذلك تجوب الأفق ، قلقة ، مسـتريبة ، يشتد انتباهها عند المرور بجانب غيط أذرة ، أو اذا رأت من بعيد شبحا لواحد من بلدة غريمه فيخال لها انه يخفى تحت جلبابه بندقية ، أية معيشة هذه ؟ كيف كان فى هذا الخوف المقيم يأكل ويشرب وينام ؟

لم يكتف بذلك بل قدم للنقطة بلاغا يشرح فيه الأمر ، وينهيه بطلب واحد هو أن تأخذ النقطة تعهدا على المشـكو فى حقه (بعدم التعرض له) ـ هذا هو التعبير المستعمل فى أمثال هذا البلاغ •

وقد وجدت المركز أثناء عملي به يتلقى عددا كبيرا من أمثال هذا البلاغ ، يحرر المعاون بكلام الشاكى وكلام المشكو في حقه محضرا تحفظه النيابة اداريا، أو يتولى الباشجاويش بخطه البديع قيد كلام الاثنين في « دفتر الأحوال » ويصر الشاكى قبل الانصراف أن يسجل رقم وتاريخ المحضر أو القيد في دفتر الأحوال في ورقة يضعها في عبه كأنها حجاب ..

وكنت أرقب هذا الذي يحدث وأتعجب له . فنحن نعلم أننا نشهد مولد أسباب جريمة متوقعة ، ومع ذلك نقف أمامها مكتوفي الأيدى ، فالنزاع من اختصاص المحاكم المدنية ، ولو تتبعنا هذه الشكاوى لمحاولة فض أسبابها لما بقي لنا وقت ولتحقيق الجرائم التى وقعت فعلا ، ثم لا شك أنه سيتبين لنا آخر الأمر أن أغلب هذه الشكاوى أوهام وأن تهديد المشكو في حقه تهجيص في بلاليص . من العسير أن نصبح (لجنة صلح) متنقلة ، ليس هذا في تقاليد المركز ، ولو فتحنا هذا الباب على أنفسنا لما عرفنا كيف نغلقه ، هذه هى صورة متكررة للغز الذى يحير الناس منذ قيام الحكومات وانشاء النيابة والبوليس وقوات الضبط والربط .. انها لا تتحرك الا بعد أن تقع الجريمة فعلا . أما قبل ذلك فكل جهدها أن تقف موقف المتفرج .

وكنت أرقب الشاكى حين يضع الورقة في عبه ، وأكاد أحس أنه لا يأخذها كضمان لحياته ، بل كضمان أن دمه بعد موته لن يضيع هدرا ، انه يريد أن يفتح عين الحكومة قبل أن يطمس الموت عينه هو ، هو يريد منذ الآن أن يطمئن على أنه قادر على الانتقام وهو فى قبره .. أمنع نفسى بجهد أن أقول له .. لكن بعد خراب مالطة ! ..

ومضت أيام وأسابيع على هذا النحو حتى كادت الحكاية تضيع في طي النسيان ، ولكن لعب القط والفار ، فاذا به ذات يوم وقد عاد الى داره وكان الغروب قد خدعه وسبقه بوقت غير طويل يسهو ـ وكل شيء مقدر ومسطر على الجبين ـ ويجتاز وحده الشارع الضيق أمام بيته الى دكان بقال في مواجهته ليشترى منه أوقية من الشاى وأوقيتين من السكر ٠٠ وكان البقال قد علق على مدخل الدكان مصباح اللوكس ، يزن ، ويصطدم به بصوت مسموع أنواع عجيبة من الحشرات ، وتبدو الوجوه تحت نوره الوهاج شاحبة غاضت دماؤها ٠٠ وهم الرجل بتقديم يده لتناول الشاى والسكر ويمسى على البقال ويصبحه بخير ، فاذا به ينطخ بعيار نارى من تحت الجسر القريب فوقع من فوره قتيلا فلما عدلوه على ظهره وجدوا يده لا تزال قابضة على الشاى والسكر ٠

هذه هي القضية ، هي عند أهل البلد سهلة واضحة ، الأعمى يشوفها ، لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح عنزان ، ان القاتل هو هذا الشاب ولا ريب ، ينبغي اذن حسب منطقهم القبض عليه فورا ومحاكمته واعدامه في أربع وعشرين ساعة ، يقولون هذا وقد علموا أن الشاب كان لحظة اطلاق العيار جالسا ـ على غير عادته ـ في بيت العمدة مع عدد من الأعيان والسمار ـ من بينهم الأب ، وهؤلاء أناس لاتكذب شهادتهم ، ان هذا الخداع عندهم تأكيد لا نفي لادانته ٠ انهم يسقطون من الحساب صاحب اليد التي ضغطت على الزناد ، هذا مأجور ، آلة صماء لا تفترق عن البندقية التي أطلقها ، هو دخيل ، فالقضية هي بين القتيل وغريمه الشاب ٠

ولكنهم يرون أن لرجال البوليس والنيابة منطقا مخالفا ، جعلنا همنا الأول البحث عن القاتل ، تتبعنا أثره في الحقول فضاع منا ، فتشنا بيوتا كثيرة فلم نعثر على شيء .. يقولون : وهو القاتل مغفل حتى يترك البندقية في بيته ؟. لم يتقدم أحد بشهادة عن واقعة القتل تسعفنا . لم نلبث أن ادركنا أن القضية (فطيس) ومع ذلك فتحت ضغط الرأى العام قبضنا على الشاب وسقناه الى سجن المركز ونحن نعلم أن اقامته فيه لن تطول فاذا كانت براءته موضع شك قليل أو كثير فان الحكم عليه محال لعدم كفاية الأدلة على الأقل .

ويتفرج أهل البلد على الحكومة في هذه اللخمة ويستخفون بها وبمنطقها وتظل الهوة قائمة بينهما .

لذلك كان للجرائم سوقان ، سوق حر ـ أهالى ـ وسوق رسمي ـ ميرى ـ ولا علاقة بين الاثنين .

في السوق الحر القاتل معروف ولو لم يره أحد،والأسباب بينة واحتمال الأخذ بالثأر ـ فهذا هو الحل الوحيد ـ يدرس على ضوء عزوة أسرة القتيل ورجولة أفرادها ، وقد يحسب حساب للابن الرضيع فى الأسرة العريقة في أخذ الثأر . مابقي بعد ذلك من كلام عن الجريمة بنوع من السمر ، ما أحلاه عند الاجتماع فى الغيط بالليل تحت سماء تناثرت نجومها وحول نار وقودها قوالح الذرة ، ولكنه كلام لا يسجل ولا يقيد ولا يعرض بعضه على بعض لتعرف جانب الصدق والكذب فيه ..

أما السوق الرسمي فهو ـ على النقيض من السوق الحر ـ منشغل بالثانوى ، بالتفاصيل ، بالمظهر السطحى . الحق الواضح لا يزال يحتاج عنده الى برهان كأنه يطلب من

القتيل ـ لا من القاتل ! ـ ألا يقع القتل الا بحضور شاهدين على الأقل ، وأن يطابق أحدهما كلام الآخر بالسنتي والمللي ، حتى في وصف الثياب ، ومقدار غروب القمر ، وقياس المسافات أولا فى تحقيق البوليس ، ثم بعده بوقت قليل فى تحقيق النيابة ، ثم بعد عمر طويل أمام المحكمة . ومنظر القضاة على منصتهم بالأوسمة والوشاح رهيب ، وصرخة الحاجب تزلزل القلوب ، وللمحامين صراخ وامساك بالتلابيب فلا نجاة الا أن يقال لهم ما يرضيهم ولو كذبا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فالمسألة هى عندهم مسألة شكليات واجراءات حكومية ..

لذلك لا يجد الفلاح غضاضة فى أن يدلى فى هذا السوق الرسمى ـ الذى يراه سوقا أعمى ـ بشهادة الزور .. أهه كله عند العرب صابون .

قد تختفى جرائم الأخذ بالثأر لو أخذت الحكومة هى نفسها بثأر الفلاح ، بحسب منطقه وهذا محال .

وقد تتبعت باهتمام أخبارا كثيرة عن بعض رجال البوليس والادارة ، تروى كالأساطير ، ولا يزال لاسمهم دوى فى الصعيد ، اذ وجدت شهرتهم قد قامت على أنهم لم يابهوا بالقانون والسوق الرسمى وماشوا منطق الفلاح ودبروا هم أنفسهم مقتل نفر من عتاة المجرمين . هكذا يقال عنهم ، والله أعلم بالحق ، ولكنى وجدت الفلاحين يذكرون هذه الأسماء ويحيطونها باحترام واعجاب شديدين ويقولون :

ـ كده تكون الرجالة ولا بلاش .

لا أترك هذا الموضـوع دون أن أخبـرك أنني كنت اذا فرغت من عملي لا أخرج من المركز الا اذا زرت هذا الشاب في زنزانته ، وطلبت اليه ذات يوم أن يكتب لي شيئا بخطه في الدفتر الذي كنت أحتفظ به حينئذ ـ وضاع مني فيمـا بعد ـ لتسجيل عينات من خطوط المجرمين ، ـ لعلك تذكر أنني حدثتك عن هذا الدفتر فيما قبل ـ ٠٠ وقد ارتاب في هذا الطلب أول الأمر ، ثم استجاب لرجائي وهو يضحك على هـذه التقليعـة الجـديدة التي لم يفهمهـا ٠ يقف في الزنزانة كالأسد ، الحبس للجـدعان والدنيـا بخير ، اذا اقترب مني وقبض بيديه على القوائم الحديدية ملأ صـدره شراعة البـاب وفـاض على الجـانبين ، يسـتقبل الزوار كالضيوف ، ويطلب لهم شايا ، وجدت العساكر والخفر في خدمته وبقية المسـاجين ـ بلا سعي منه ـ يعاملونه كأنهم أتباع له ، لم يكن مسجونا ، بل معتكفا يستظل هنيهة تحت سقيفة هربا من حر الشمس ٠٠

جمعية عمومية

ومن المنغصات للعمد أن المركز يسـتدعيهم ٠ (حسب قولهم كل يومين والثاني ، وحسب الواقع : كل حين ومين) لعقـد جمعية عمومية ٠ مايزورنا المدير أو وكيله أو مفتش الداخلية ، وكذلك ما يحل موسـم الفيضـان أو الدودة أو الجراد أو تقفيل الميزانية ، حتى تنبعث اشـارة تليفونية تشدد على جميع العمـد بضرورة الحضـور ، والحـذر ثم

الحذر من التأخير • فيهم من يسكن على أطراف الوادى ، بينه وبين البندر سفر شاق طويل ، كلهم يقـدم متحسرا على ضياع يوم كان ينفعه لو خلص له فى قريته •

هذا يوم مشهود ، حول بناء المركز عدد غير قليـل من الخيل والحمير ، بين غني وفقير ، الخفراء المصاحبون للعمد جاءوا مرتدين ملابسهم القروية وتحت ابطهم الزى الرسمى وهو بذلة زرقاء من قمـاش خفيف لها حزام عريض يشـد وسطهم ، وتحيل لابسها الى نحلة ضخمة ، واذا بلغوا باب المركز جلسوا القرفصاء فى الطريق وخلعوا ولبسـوا أمام أعين الناس ، ثم وضعوا على رءوسهم لبدة كالطربوش بلا ز فوقها نحاسة مستديرة عليها رقم • حينئـذ تكون القيافة الرسمية قد تمت ، فيدخلون المركز وهم مطمئنـون ، فق كان من أسباب الجزاءات التى يوقعهـا عليهم الحمقى ء رؤسائهم أنهم يمثلون أمامهم أحيـانا وقد غفلوا عن ارتداء هذا الزى الرسمى الذى يضيقون بقمطته ضيقا شديدا •

يجلس العمـد صـفا وراء صف ، يستمعون الى الخطب والأوامر والتنبيهـات المشـددة ، من ضرورة حفظ الامـن (بكسر الهمزة من فضلك) وتحصيل الميرى وتنفيذ أوامر الحكومة • لم أجد فيهم من يتكلم أو يقف ليسأل ، بل هم منصتون صامتون ، فهذا كلام سمعوه من قبل مرارا ، وما حضورهم الا سدادا لخانة • وخيل الى ــ ولست أدرى ان كنت على حق ــ أن الصداقات قليلة بين العمد ، فلم أشهد كثيرا من الأحضان والقبلات أو السلامات الحارة ، أكثرهم لائذ بنفسه منطو عليها • أيكون تحمل الهم الواحد منفرا لا مقربا بين القرناء ؟ •

أما نحن المعاونين فكنا نفرح لهـذا اليـوم كثيرا ، فوق مـكاتبنا أكـداس من أوراق يلزم لانجـازها أخـذ أقـوال العمدة ، فنظل نسـتدعيه ونرجوه التـكرم بالمرور علينـا فيماطل ويسوف ، الآن وقع فى الخية ٠

من اثقل هذه الأوراق ، حكم تأديبى يقتضينى أن أحصل من العمدة غرامة قدرها خمسون قرشا لسبب لا تستريح له نفسي ٠ فالتهمة هي أنه أهمل فى ضبط سلاح أو التبليغ عنه ٠ فما تقع في القرية جريمة ويسـتعمل فيها سلاح ـ سواء أكان بندقية أم سكينا ـ حتي يحرر للعمدة ـ اداريا ـ محضر مخالفة لأن حضرته لم يفتح عينه ولم يضبط هذا السلاح قبل وقوع الجريمة ٠ وليس فى القرية فلاح واحد له أرض أو زرع لا يملك سـلاحا ٠٠ لايدفع العمـدة هذه الغرامة الا بضجر بالغ وهو يضرب كفا بكف ، قائلا « وانا ذنبي ايه ، كنت أشم علي ضهر ايدى ؟ » كنت أحس أحيانا أنني أنتزعها من جيبه انتزاعا ، وكان مما يهون على نفسى علمى بأنه سيفرضها بدوره علي قريته ٠

والورقة الثانية ثقيلة الدم أيضـا ٠ هى تذكرة لجمعية خيـرية ورد للمـركز عـدد كبير منهـا لتوزيعـه بالذوق والانسانية ، ونحن نعلم أنها لن توزع الا بالاكراه ! ونقوم نحن بدل الجمعيـة بدور المسـتعطف المستجدى تارة ، والضغط والتلميح بما قد يخبؤه المستقبل تارة أخرى ٠

وقد رأيت العمـد ينقسـمون الى ثلاث طوائف : الأولى عمدة من أسرة لها عزوة وملك ، الوظيفة ليست الا تأكيدا وتثبيتا للمقام ، عليه سمة الأعيان لا سمة الموظفين ، شيخ الخفر تابع ملتزم حده ، وكنا نرتاح مع هذا العمـدة لأنه يفض كثيرا من المشاكل ـ وربما بلغ بعضها حد الجنايات ـ

فلا تصل للمركز ، والثانية عمدة من عائلة طيبة ليس لها عزوة كبيرة أو ملك وفير ، عليه سمة الموظفين لا الأعيان ، هو أكثر من العمدة الأول اعتدادا بمنصبه وأشد حرصا على اطاعة الأوامر وتجنب المسئولية ، شيخ الخفر رأسه برأس العمدة ، والثالثة عمدة في قرية كل أهلها فقراء على باب الله ، يقترض العمدة من أقاربه وأقارب أقاربه اقرارات كاذبة بأنه يملك النصاب القانوني من الأرض (عشرة فدادين فيما أذكر) ليس عليه لا سمة الموظفين ولا سمة الأعيان ، بل سمة الأجراء المسترزقين ، المركز يركبه ، وأهل البلد يركبونه ، ونفوذ شيخ الخفر يفوق نفوذه ، وبدلا من أن نستنجد به ، فانه هو الذى يستنجد بنا . جيتك ياعبد المعين تعيني لقيتك ياعبد المعين تنعان .

رحلة ملكية

الاشارة التليفونية التى خرجت هذه المرة من المركز للتتميم على جميع عموم كافة العمد هى افادة حامية جدا ، المأمور أصبح يشبه هذا الجهاز العجيب الذى كان يدور به علينا فى القهاوى رجل جعل صنعته أن يمتحن قوة أعصابنا ، لقاء أجر ندفعه نحن له (دبور زن على خراب عشه !) فيقدم لنا مقبضين من نحاس (لم يذهبا قط للمبيض !) يخرجان بأسلاك من صندوق أقذر من ملابس صاحبه ، فما نكاد نضم عليهما اليدين حتى تسرى فى أبداننا رجة عنيفة ، وتقاس رجولتنا بمقدار صبرنا عليها . أصبح المأمور رعشة مصبوبة فى قالب على هيئة انسان :

صوته ، يده ، كرشه ، شاربه ، رمشه ، شفتاه .. كلها ترتعش . وسرت هذه الرعشة الى الجميع .. حتى العسكرى عامل التليفون ، كفه ترتجف وهو ممسك بنص الاشارة ، تكاد الورقة تلسع أنامله ، صوته مرتعش ، ولكنه حاد كوقع السياط ، نبراته متتابعة كطلق الرصاص ، تقفز وتفرقع من حلقه كحبات الأذرة وهي تشوى على بلاط الفرن ، ليس هذا وقت الدلع والتريقة وتبادل النكت والشتائم الحياني مع الخفراء عمال التليفون فى دور العمد.

ذلك أنه كان قد وصلنا من المديرية ذلك الصباح نبأ اعتزام الملك فؤاد ــ الجندى أبو شنبات مبرومة ــ القيام برحلة الى الصعيد . سيغادر فى حراسة الله عاصمة ملكه بالقطار الملكى ثم يعود في رعاية الله باليخت الملكى (قاصد خير) . وعلمنا من البرنامج موعد مروره ببندر منفلوط فى الذهاب والاياب باليوم والساعة والدقيقة .

ومع أن برنامج الرحلة يؤكد أن القطار الملكى لن يقف فى محطة منفلوط الا أن المأمور رأى من الضرورى أن تقام الزينات وأن يصطف على رصيف المحطة أكبر عدد من أعيان المركز وأهله فلربما ــ من يدرى ؟ ــ راق للملك فى لحظة نحس أن يطل من الشباك والقطار يمر أمام محطة منفلوط فاذا رآها قاعا صفصفا سأل عن اسمها واسم مأمورها . أليس من المعقول بعد ذلك أن يأمر برفته ؟

ودخل مأمورو المراكز فى مزايدة عجيبة ، يحاول كل منهم أن يبذ قرناءه فى مظاهر الترحيب بالملك ، لم تنقطع الاتصالات التليفونية بينهم ، وكل منهم يكذب ويخفى ورقه عن الآخر .

أما الزينات فأمرها سهل • كانت المحافظات والمديريات والمراكز فى ذلك العهد أصبحت تنافس أصحاب محال الفراشة فى حيازتها لعتاد ضخم من الرايات والأعلام والمصابيح الملونة وغير الملونة • كانت الدولة أكبر مالك ومورد لعالم الأفراح • وكان بمحافظة القاهرة لجنة أعضاؤها من كبار الأعيان اسمها لجنة الاحتفالات باستقبال حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم • وكان فى مركزنا نصيبه من هذه الزينة يحرص عليه وينفض عنه ترابه فى المناسبات الملكية ، اذن ستزدان المحطة بالأعلام ، وتسطع عليها بالليل الأنوار ، ولو بعد مرور القطار ، بالنهار •• وسيجند طلبة المدارس مع أساتذتهم من مطلع الفجر ، وان كان مرور الطلعة البهية الملكية ـ بسرعة ٩٠ كيلو مترا ـ سيكون فى عز الظهر ، وسيتمم على جميع عموم كافة العمد بالحضور ، والحذر ثم الحذر من التأخير ، وسيتقدم المأمور بأحر الرجاء لأعيان المركز بأن يتخذوا أماكنهم هم أيضا على رصيف المحطة • أما الورقة التى أخفاها المأمور فهى نجاحه فى تجنيد عدد من عربان قرية « التتالية » ـ لقاء أجر من المصاريف السرية ـ للجرى على خيولهم على جانبى القطار •

واستراح المأمور وتنفس الصعداء ، وهدأت الرعشة ، ولكن الفرحة لم تتم • اذ همس له كاتب الخفر وهو يعرض أوراقه ـ وهو شاب معروف عندنا باصفرار وجهه وخبثه ـ •• وقال :

ـ الصحف تذكر دائما فى وصف استقبال جلالة الملك انطلاق الزغاريد •• وقد علمت أن القطار الملكى سيستقبل عند مروره بمحطة ملوى ويشيع بالزغاريد ••

يا خبر أسود •• امتقع وجه المأمور •• من أين له

بهذه الزغاريد ؟ انهـا موهبـة اختصـت بها النسـاء دون الرجال . ولن تقبل امرأة واحدة من أحرار أهل البندر أن تخرج للمحطة وتزغرد ، ولو لجلالة الملك ؟

أعمل المأمور فكره طويلا ، واستشار معاون البوليس ، وأخيرا لمعت فـكرة بديعـة ، من حسـن الحـظ أن مركز منفلوط به نقطة مومسات ، فلماذا لانحسن التصرف ونجند بلباقة وبدون ضجة مومسات النقطة للوقوف على رصيف المحطة ، بمنأى عن الجميع ، لن يشعر بهن أحد ، وسيظل الأمر سرا مكتوما .. وبذلك نضمن انطلاق الزغاريد ..

ولأول مرة في تاريخ هؤلاء المومسات أصبح كلام المركز لهن رجاء لا زجرا ..

في ذلك اليوم رأيت سرب المومسات يسير في الطريق الى المحطة ، على وجه كل منهن ابتسـامة جمعت بين فرحة الخروج للنزهة في يوم عطلة رسمية من وجع الشـغل ، وبين الزهو بمكانة جاءهم الاقرار بها غير انتظار ، الا أنى شـعرت ــ ولا أدرى لمـاذا ــ أنهـا كانت تخفى شـيئا من الخجل ، نعم من الخجـل ــ وليس من العجيب أن تخجـل المومس ، خجل لمشاركتهن في لعبة زائفة ، وللهـوان الذى هبط اليه المركز بجلالة قدره وان كان في هذا الهوان رفعة لهن . فليس كالمومس علمـا واحاطة ورعاية لأقدار الناس وترتيبهـا طبقـا لاختـلاف مراتبهـا . هي دائما من علماء البروتوكول ، وترتيب الأسبقية في المال والنفوذ .

واتخـذت مـكانى بجـانب المأمور ، لأنى أحب أن أقف بجانب كل « صـعبان على » . وقبيـل الموعد المحـدد حين شارف التوتر أن يبلغ ذروته لا أدرى ما الذى حدث ، ساد

الهرج والمرج ، واختلط الواقفون من أعيان وموسسات بعضهم ببعض • فهذا رجل طيب لمحت عمامته وسط شلة من الموسسات ، ولما انكشف لى وجهه رأيته يضحك ببلاهة ، وهذه موسس تشق الصفوف وتنطبق عليها حلقة من كرام الأعيان ، واذا هى تشرح لهم مسألة عويصة لم أتبينها ولكنى رأيتها تشير بيدها اليهم تارة والى صدرها تارة أخرى • وهاج المأمور فجأة ، لقد باظ الترتيب وأفلت الزمام وانكشف السر واختلط الأمر ولا نضمن انتظام الصفوف ولا انبعاث الزغاريد كقومة سرب حمام • فاذا به يشد قامته كأنه قائد في ميدان يصرخ صرخة الحرب ، ويلوح بيده اليمنى مشيرا لليمين وباليسرى مشيرا لليسار ويزعق بأعلى صوته :

ـ الأعيان هنا •• والموسسات هنا ••

وبعد قليل مرق القطار الملكى أمامنا بسرعة كبيرة •• مغلق شيش النوافذ كلها • لم نر وجه مخلوق واحد ، وانطلقت الزغاريد وعلت الهتافات بحياة مولانا الملك وانصرف الجميع وقفاهم « يقمر عيش » ••

كانت الرحلة الملكية في العودة أقل وجعا للدماغ • ولم ترتجف لها القلوب • فاليخت « قاصد خير » لكبر حجمه وجلالة قدره لا يسير الا وسط مجرى النيل ، وبعد أن يتخذ مهندسو وزارة الأشغال كل الاحتياطات لرفع مستوى النهر ـ لفترة وجيزة ـ ولو على حساب الماء المخصص لرى الأراضى العطشى • وبين وسط النيل و « موردة » منفلوط مسافة كبيرة • سيكون البعد حمى لنا من السلطان ، فمن الأمثلة التى كنا ورثناها عن عهود الاستبداد « السلطان من لم يجاور السلطان » • حتى لو

شاءت له ارادته السنية أن يقف على سطح اليخت (والأمل الا تكون عنده نظارة معظمة !) ودقق النظر فلن يرى أشخاصا بل أشباحا ، ولن يرى صفوفا متراصة كالجند ، بل لحمة مختلطة ليس بينها مومسات هذه المرة لأن الزغاريد مهما لعلعت لن تصل الى أذنيه الكريمتين .

ومع ذلك ذهبنا من النجمة ومعنا العساكر والخفر وضحايا السخرة الراقية من طلبة المدارس وأساتذتهم وجمع من هلافيت الناس . هذا لا يهمنا فالعبرة هنا ـ والسلطان بعيد ـ هي فى العدد لا فى المقام .

و « موردة » منفلوط تبتعد عن البندر مسافة كبيرة (وكأنما كان بين مدننا والنيل عداوة مستحكمة ، فكل منها تبتعد عنه وتدير له ظهرها ، انظر بنها وكفر الزيات .. ولماذا نذهب بعيدا ، انظر الى القاهرة المعزية والأيوبية) . ليس لها طريق ممهد ، بل نسير اليها فى مدق صغير وسط الغيطان ، شط من الطين الزلق أمامه حجران ، يطلق عليه اسم « الموردة » تجوزا ، فهذا مكان لا يصلح لرسو قارب صغير ، غاية ما ينتفع به أن تتجمع عنده الفتيات لملء البلاليص ، (مشروع انشاء موانى نيلية يداعب عينى منذ وعيت قراءة الصحف ولم ير النور بعد). لما بلغناها ألفينا أنفسنا مضطرين لأن ندوس بالأقدام أرض فلاح فقير ـ لا تزيد عن قيراطين ـ زرعها بصلا .. وفى غمضة عين أصبح الغيط سداحا مداحا . رأيت الفلاح يحاول أن يصد بيديه صدر كل واحد منا ، فلم يفلح . وهل يمكن له أن يصد الحكومة ؟ فقعد القرفصاء ، وأسند رأسه على كفيه فوق ركبتيه .

ومر اليخت من بعيد بعد أن مرت الساعة الثالثة .. لم

نكتف بتلويح الأيدى والأذرع بل هتفنا أيضـا ـ دون أن نجهد أصواتنا ـ ليحيا جلالة الملك ٠

وكان آخر شيء علق بأذني ونحن ننصرف صوت الفـلاح وهو ينوح :

ـ عوضى على الله ٠٠

لا أدرى لماذا بعث منظر هذا الفـلاح فى روحي شـعورا ممضا باعياء وتعب شـديدين ٠ وشـكوت حالى للمأمور ـ وكنت لا أزال كثير التشكي بلا حياء ـ فقال لى ، مسـتغلا فراسته وذكاءه :

ـ من تعب المشوار ووقوفنا من الفجر ٠

فنظرت الى وجهه وابتسمت ، واسـتعادت روحي بعض سكينتها ٠

قصيدة من ٩٩ بيتا

وقد أعادت هذه الرحلة الملكيـة الى الأذهان فى منفلوط ذكرى رحلة سـابقة لولى نعم آخر ٠٠ مر الخـديو توفيق بالقطـار على منفلوط ذات يوم وخرج الأعيـان لاسـتقباله بالمحطة وتقدم اليه شاعر منفلوط حينئذ الشيخ أبو النصر واسـتأذن أن يلقى بين يديه قصـيدة للترحيب ، فتنـاول الخديو وأذن له ، وربما فعـل لعلمه بأن القطـار لن يقف بالمحطة الا دقائق معـدودة ، ولعله كان يعرف الشـاعر اذ كانت له شهرة مستفيضة فى خفة الدم والظرف والفكاهة ٠

وبدأ الشاعر تلاوة قصيدته ، بيتا بعد بيت ، والخديوى يهز رأسه بالرضى والاعجاب ثم يصبر ، والشاعر ماض لا يفتر عن التلاوة ، تتلاحق الأبيات ، دون أن تلمع بارقة أمل فى قرب الختام ، فتململ الخديوى وانتقل غليان القاطرة وضجرها اليه بالعدوى فقاطع الشاعر قائلا بضيق يقنعه بابتسام :

ـ هى القصيدة كام بيت ياشيخ أبو النصر ؟

فأجابه كلمح البرق :

ـ ٩٩ يا أفندينا ! •

هذا جواب لا يمكن السكوت عليه بل يثير بلا تردد سؤالا لا مفر منه ولا يختلف فيه اثنان •

فارتفع حاجب الخديو واختلجت عينه وقال بعجب :

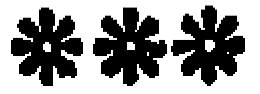
ـ طب وماخلتهاش ١٠٠ ليه ؟ •

فكان الرد أسرع من سابقه :

ـ أصلى ناقصنى بيت يا أفندينا •

ففهم الخديو هذه التورية وابتسم لها وأقطعه بيتا فى منفلوط ، مكافأة للشاعر على لباقته وظرفه ، ولينقذ نفسه ـ على الأقل ـ من قصيدة لا تنتهى •

وقد لحقت بعض فلول أسرة هذا الشاعر ، ورأيتهم هم أيضا أهل ظرف وسماحة وتحشم ، ولكنى لم أستطع أن أظفر عن شاعر منفلوط بخبر آخر ، ولا وقعت يدى على ديوان شعره حتى اليوم •



ذكرى الراحلين

كم كنت أود أن يعنى أبنـاء مدننـا بجمع آثار رجالاتها السابقين وحياطتها وابرازها ، فلا تعـدم مدينة منها رجلا من أبنائها كان له فضل سابق مشكور ينبغى ألا تنساه ، اما فى خدمة القضية الوطنية أو بالتفـوق فى ميـدان العلم والأدب سواء فى الأزهر أو المدارس ، أو بترك مؤلفات غلفها النسيان أو آثار تدل على احسانه وبره بالفقراء (المنشاوى فى القرشية ، كشك فى زفتى ، الغمراوى فى بنى سويف، حفيظة الألفية الخ الخ) وحبـذا لو جعلت لجـان الاتحـاد القومى هذا العمـل فى مقدمة برامجهـا ، بأن تجمع كل ما تعثر عليه لهم من وثائق ومؤلفات وصور ورسائل تجعلها نواة لمكتبة بلدية • كمـا تشـجع فى الوقت نفسـه دراسة أنساب الأسر العريقة وتاريخهـا ، وكان عنـدنا فى الماضى القريب أكثر من متخصص فى علم الأنسـاب (وكانوا من اعز الناس عندى) مثـل رمزى ، بسـيونى ، فخـرى عبد النور ، عبد اللطيف سعودى ، وأخشى مع الأسف أن يكون هذا العلم قد انقرض بموتهم جميعا عليهم رحمة الله •

الست ظريفة

سـأذكر هنـا مثـلا آخر على خلو مدننا من مراجع عن الفضـلاء من أبنـائها السـابقين ، ولـكنى لست أدرى ـ والتسامح يتباين ـ هل يصلح هذا المثـل عند الناس كما يصـلح عنـدى ، لعلهم يقـولون اننى أجـرح حجتى باثارة نموذج لما قد يجره « التفتيق » أحيانا فى دفاتر بعض هؤلاء الراحلين ، والأفضـل عنـدهم أن أكفى ماجـورا على سيرة

يؤذيهم فيها سوء المطلع وكان يجمل بهم الا يروا منها الا حسن الختام ، ولكن ما حيلتي والمثل مستبد من منفلوط ، التي جعلت من همي ان أستوفي لك صورتها بما قدرت عليه من ألوانها المتعددة المتضاربه •

أكبر المساجد في منفلوط وأعمها بالناس يوم الجمعة هو مسجد الست ظريفة (وهذا مثل فذ على تسمية المساجد في الريف بأسماء السيدات) وقد حاولت عبثا أن أعرف من هي هذه الست ظريفة وأين منشؤها ومتى عاشت وكيف أقامت مسجدها • لم أظفر من أهل البلد على كثرة سؤالي بجواب نافع ، نسوها ونسوا كل شيء عنها ولم يذكروا لي (هل السيئات أبقى أثرا في ذهن الناس من الحسنات ؟) الا أنها ـ فيما يقال ـ امرأة أمضت أبرك عمرها في تجارة الهوى ، ثم استتابت ربها فتاب عليها ، فأنفقت كل مالها في طاعته ورضوانه • ومنعني اليأس من أن أسأل أين كانت تجارتها ؟ في العاصمة ؟ في منفلوط ؟ • وماذا كان مبلغ جمالها ؟ وهل « ظريفة » هو اسمها حين ولدت أو اسم الشغل ؟ وللفضوليين أمثالي أسئلة سخيفة تقلقهم ولا ينسونها الا اذا جدت لهم أسئلة أسخف منها •

فالست ظريفة اذن هي رابعة المنفلوطية •

بائعات الهوى

جاءت سيرة المومسات في الفقرات السابقة فخير لي أن أفرغ هنا من التحدث عنهن •

لم تكن نقطة المومسات فى منفلوط ذات شهرة مستفيضة ، وليس لها اسم يمت الى الطبيخ كما تسمى قرينتها فى أسيوط باسم « الخبيزة » ، ولا أظن لها أصلا عريقا وأقدمية تاريخية مثل نقطة المومسات في « بهجورة » في الصعيد الجوانى • لا تروى عنها مغامرات التبذير في الهوى أو المال أو المخدرات ، لم تكن وكرا للمجرمين والفتوات ، ولا تحدث فيها مشاجرات • وقد بقيت في المركز سنتين فلا أذكر أنها أزعجتنا طوال هذه الفترة الا بقضية واحدة غامضة عجيبة سيأتي لك خبرها بعد قليل ، بل هي دكان شغل في مستوى دكان بقال في قرية ، كل بضاعته رخيصة وتصر في منديل ، لا يباع فيه الغاز الا ملء مصباح الفتيلة ليلة بليلة ، لأن الرزق يوم بيوم والرحمن لا ينسى عبيده •

وكان من التقاليد المرعية أن الموظفين يتحاشون هذه النقطة وان سمح بعضهم لنفسه أن يستضيف في منزله احدى نزيلاتها في تكتم شديد وفى ستر من الليل البهيم ، وكان لهم في البغاء السرى فرج ومتسع ، فان أهل الصعيد يغفرون أشياء كثيرة ولا يغفرون قط انتهاك حرمة الحى وأهله • انها كبيرة الكبائر وقد يستباح فيها قتل المضيف قبل الضيف •

قد لا يجد أحدهم عيبا فى أن يتستر على قاتل سفاح محترف أو لص يغتال الولايا ، ثم يجد من العار الذى يفضل عليه الموت أن يتستر على خنا داخل قمقم •• هيهات أن تفوح اليه رائحته لبعده عنه •

ومع ذلك لا أزال أذكر بعض أهل هذه النقطة : الأولى

معلمتهن « جليلة » ، هى التى تسير على رأس الموكب يوم الكشف عند الذهاب الى طبيب المركز ، انها تمثل الجيل المنحدر ـ ذوق عتاق العمد ـ ضخمة البطن والثديين وجهها مكتئب قبيح ، الدق على ذقنها مبرطش باهت كأنه مرض جلدى ، الخزام المدندش فى أنفها لا يبدو أنه للزينة بل لشكم وحش ضار ، من أكبر النكبات أنه قدر على الانسان ـ وهو الذى اختص وحده دون بقية المخلوقات جميعا يتذوق الجمال ـ أن ينفرد وجه هذا الانسان بعينه دون سائر المخلوقات أيضا بقدرته الفائقة على التعبير عن أبشع معانى القبح وغلظ الطبع • كنت أسأل نفسى تارة : كيف يمكن أن يباع عندها الهوى ويشترى ؟ هل لها سر لا نعلمه؟ وتارة أخرى : ماذا يكون مصيرها بعد قليل ؟ لها رب اسمه الكريم • ومع ذلك يروى عنها أنها كانت صاحبة مجد وحاشية • « وجليلة » هو أيضا اسم عشيقة سيد درويش (ولم تكن أقل من صاحبتنا قبحا !) •

والثانية « بهية » : فتاة الجيل الصاعد كما يقال اليوم ـ ذوق بندر وأفندية ـ فتاة شرخ الصبا ، لو أعطيت لها لعبة لفرحت بها كالأطفال ، صافية البشرة ، رخصة اليدين ، ساذجة ، تكاد توحى نظراتها أنها فى غيبوبة عن العالم وما يجرى لها ، وقد جالستها عند التحقيق فى القضية فما راعنى الا أنها رغم قميصها اللبنى المسخسخ يبدو تحت فستان مزين بالدنتلا والركاما والترتر والشرائط ، تفوح منها رائحة القرويات ، مع أنها لا تحلب ولا تقرص الجلة ولا تأكل خبزا من دقيق الذرة مخلوط بالحلباء ، وكنت أسأل نفسى : من أين جاءت وكيف وصلت للنقطة ؟ لم أعرف خبرها لأننى لم أسع للانفراد بها •

وكن جميعا اذا رأين فتاة من أهل البندر اسمها «سليمة»، تهفو وتمر أمام النقطة تخبىء وجهها الا عينا لها فى ملس لا يغطى كعبها المحنى فوق شبشب زحافى ، قذفنها بالحجارة والطوب لأنها بطلة البغاء السرى ، شخصها كأنه منفصل عن رسم لراقصة فى قبر فرعونى ، سمراء ممشوقة القد هضيمة الكشح ، عالية الرأس ، طويلة العنق ، مستقيمة الكتفين ، لوزية العينين ، أنفها أقنى ، وشفتها السفلى ممتلئة بارزة ، نظيفة الجسم والملبس • سمعت من يقول عنها انها طيبة الريق ، حتى رائحة البصل من فمها حلوة • كانت تدور على الموظفين العزاب جميعا ، فلا تفشى رغم الالحاح عليها سر أحد لأحد ، قطعت لسانها وألقته فى بئر ، لا تحدد أجرا ، بل تقبل على الرأس والعين ما يعطى لها ، لا تحرم الفقراء من مرتعها وتهب لهم كل ما عندها ، ثم لا تصد عن الغنى الخسيس بل تعامله بخسته ، فتنقص له من نفسها مقدار ما أنقصت دناوته من ماله ، يكاد يكون لها ميزان لا يخطىء فى درهم • تنفذ بشرف التعاليم المتوارثة ـ لم تدون بالكتابة ـ لقوانين الأخلاق الفاضلة التى سنتها مدينة الفساد لرعاياها عن حكمة وتجربة ، وتطيع بلا رقيب تعليمات المرور فى دروبها وان لم يكن هناك أقل احتمال للتصادم • أكبر لذتها أن تجلس مع الفندية ، تسمع أحاديثهم وتنصت بنهم لنكتهم وحكاياتهم ، وتزج نفسها هكذا فى حياة تبدو لها براقة وأرقى من حياتها واغنى بالتمدن والرفاهية • حياة تظل دائما أبعد من منالها •

لا تشرب الخمـر الا في مجـلس يروق لهـا وتحس فيه بالصفاء والكرم وكسر الموازين ، الا ميزان أخوة البشر في الضياع وطلب الرحمة فلا تشيل فيه كفة عن كفة • واذا لم تجد هذا المجلس صدت عن الخمر وان طاب ، الا مجاراة المضطر ومن طرف اللسان ، وان شربت تقهقـر بها العمر وارتدت صبية غريرة ينحسر عنها الخبث ، وزادت رقبتها الطويلة انكشافا من فرط امالة الضـحك لرأسـها ، تفتح الكتب وتقلب المجلات وتتأمل صـورها بلذة كبيرة ، فان وجدت على صحيفتين متقابلتين وجهين يلتفت الأول منهمـا للثاني ظنتهـا قصة عن شـخصين يحـدث أحدهمـا الآخر وتسألك :

ـ ماذا يقول له ؟

وكانت تقول :

ـ هذه هي سعادتي ، والذى أخرج به من دنياى ••

لم تسمع قط تشكو حالها ، ولم تر ألا مبتسمة ، الا أن الدمعة طفرت من عينها فجأة وهي تجلس ذات ليلة الى فتى متلفت ، زائغ حائر ، حمله شيطان حب الاستطلاع على أن يوجه اليها ـ بدون منـاسبة ـ سـؤالا باردا سخيفا كأنه بسبيل اعداد ريبورتاج صحفى خاطف رخيص ! وان كان مبعثه ادراكه أنها تخاطر بحيـاتها وتعيش والسـكين على رقبتها :

ـ ما أفظع مأزق صادفك في حياتك ؟

قالت بعد تردد ، وما أفضت بسرها الا لاحسـاسها أنه يحنو عليها : ان موظفا جديدا ـ وهو شاب صغير ـ دعاها

لمنزله ذات ليلة ، وكانت لم تعرفه بعد ، وان سلف لها أن رأته في الطريق يسـير وجهه الى الأرض • فتوسـمت فيه الطيبة ، والمروءة ، وعلمت أنه جاء منتدبا رفق بعثة لمقاومة الجراد ، وكان قد اتخذ مسـكنه في نهـاية درب ضـيق ، يحتاج الوصـول اليه في عز الليـل الى حذر شـديد حتى لا ينتبه لها الجيران ، ثم الى حذر أشـد من أن ينبعث من هذا المنزل المدفوس أقل صوت يدل على سره ، وظلت تجول في الشارع وتغوص في الجـدران سـاعتين أو أكثر حتى سنحت لها في ظنها أول فرصة مواتية فمرقت كالسهم الى منزله ، وأغلق الباب عليها واصـبعه على فمـه • وكانت تحس في نفسها نشوة تلازمها كلما دخلت لأول مرة منزلا لا تعرفه • عساه يتكشف لها عما قليل عن نوع جديد من العلم والتسـلية • وكان المفـروض هو العـكس ، أى أن يخيفها المنزل المجهول أكثر من المنزل المألوف ولكن هذا ، كان قلبها يدق من أثر الترصد الطويل ، ولكن وجهها كان متهللا ، فما رابها من صاحبها أول الأمر شيء • وصعد بها في الظلام وهو يجرها من يدها الى حجـرة نومه وأشـعل مصباحا ، ولكن صوتا ما ــ أشبه بخرخشة الفيران ــ بلغ أذنها فطرطقت واتقد انتبـاهها اليه ، ومالت عن كل شيء سواه نحوه وتعطل ما بقي من ملكات عقلها ، كانت هامدة متوثبة كالطائر المفزع تلبث مشلولا برهة قبل أن ينطلق كالرصاصة عن فرعه لينجو بنفسه من الخطر الصادق أو الموهـوم ، وهى مع ذلك ماضـية في حـديث مع صـاحبها يسيل من فمها سريعا كسيل الماء من صنبور مختل • ولكن صاحبها كان متعجلا ، فلم تجد مجلسـا ولا صـحبة ، ولا ندوة ولا دردشة ، بل أسرع يقضي لبانته منهـا ثم خرج ،

وفتح الباب ودخل شاب آخر ، قالت لعلهما صديقان ولا باس باثنين ، وقد سبق لها تجربة ذلك مرارا ، ولكن لماذا أخفى خبره عنها ، وخرج الثاني وفتح الباب ودخل ثالث ، فأدركت أنها وقعت في مأزق بغيض وعذاب حتى هي لا تطيقه . ولكنها لم تتصور حينئذ قط أن يقفل الباب ويفتح عشر مرات متعاقبات . لم تكن تستطيع المقاومة ، ولم تكن تستطيع الاستغاثة . لم تشعر قط من قبل كما شعرت تلك الليلة بمهانة نفسها وضياعها لحرمانها وحدها دون سائر الخلق من حق مجرد طلب النجدة ولا تقول حق نوالها وهي بها جديرة . دفعوا لها أجرة نفر واحد ، وألقوا بها في الطريق قبل أن ينجلي الليل حتى لا يطلع عليهم النهار وتدب الأرجل في الدرب .

فلما انتهى كلامها طفرت الدمعة من عينيها فمسحتها بأناملها ، ثم عادت لتوها الى مرحها لم ينقص منه شيء الا أن ابتسامة نظرتها زادت لمعانا .

ودمعت عيناها مرة أخرى ـ ولا يدرى لماذا فهى لا تفشي سرها ـ حين سمعت لأول مرة اسطوانة لأغنية شعبية تنشدها مغنية ريفية بصوت شوى على نار الوجد حتى احترق ، مقطعها المتكرر يقول :

ـ والملتقى يا حبيبى بين أيادى الله ..

أعرفت هي أيضا لوعة العشق في ماضى حياتها ؟

والغريب أن خير من وصف بائعات الهوى في الصعيد هو كاتب يونانى ، صديقى الأديب « ساجارادس » مؤلف القصة الجميلة المترجمة للعربية باسم « عذراء أسيوط » بقلم عبد السميع المصرى .

توبة

كان لا يزال لتتويب الضالة عند الفلاح مكان في سجل الفضائل وان جاء في ذيلها ، يضمن له ثوابا ، ولم يكن تطوعه للانقاذ نتيجة احساس مرهف بمعنى الانتشال ، بل لتسليمه بأن الضالة لم تخطىء عن عمد وارادة ، بل صاغرة لحكم المكتوب على جبينها ، فان كان لكل ذنب قدر ، فلكل توبة أوان ، وما سقوطها الا فترة طارئة ، اذا زالت اتصلت من جديد على راحة الهداية طرفا حياة مستكينة كأن لم يصبها من قبل قطع ٠

هذا الفلاح الذى جاء من قريته البعيدة ـ ولا أحد يدرى دوافعه ـ ليعود اليها ومعه احدى نزيلات نقطة المومسات بعد أن عقد قرانه عليها ٠ لم أشهدهما لا هو ولا هي أحياء ، بل رأيتهما جثتين مهشمتين ٠ أركبها من منفلوط بعد العشاء ـ كأنما لا يريد حياؤه أن يدخل بها قريته الا في الليل ـ سيارة أجرة ، « فورد » صغيرة ، من الطراز القديم ، محملة بالركاب ٠ هذه السيارة الكهنة المعطلة الفرامل والمصابيح ، ان اتسعت فلخمسة أشخاص خلو الأيدى ، من بينهم السائق ، ولكنها كانت تحمل داخلها وعلى كل رفرف وسلم ، وعلى التصادم الخلفى والأمامى ، وفوق السطح أكثر من خمسة وعشرين راكبا ـ بخلاف السائق ـ في يد كل منهم زكيبة أو مقطف ٠٠ (انني أتكلم عن خبرة ، فطالما ركبت مثل هذه السيارة) نخت مختبئة وسط كتلة من اللحم والخيش ، ومع ذلك سارت مسرعة على جسر الابراهيمية ٠ هذا الطريق يقطعه على مسافات متتابعة بوابات لتصريف المياه بين الأحواض والترعة ،

يضيق عندها الجسر ويصبح جناحه من اليسار واليمين حافة هاوية سحيقة يصعب تمييزها فى الظلام ، فلا نجاة للسيارة المسرعة بالليل الا اذ أحكمت التزام وسط الطريق قبل الوصـــول الي هذه البوابات ، مر السائق من هذا الطريق أكثر من مرة بحمولة مماثلة ، ولكنه فى تلك الليلة دفع حياته ـ ومعها ـ الله يسامحه ـ حياة أغلب الركاب ـ ثمنا حان سداده لبخت سالف ، طالما قامر بحماقة علي دوام ابتسامه •

وذهبت لمكان الحادث وعلى ضوء المصابيح رأيتهما ، هذه هي جثتهـا ، امرأة غلبـانة ليست بذات شـباب أو رواء ، عليها قميص لبني ، تحت ثوب وردى ، تحت جلباب أسود، ترقد فى حضن جثة منقـذها ، فلاح فقير ، جلد على عظم ، جسد ما أظنه عرف تمـام الشـبع ، غاية ترف هذه الجثة المهشـــمة الرأس أن جلبـابها الأزرق كان حـديث عهـد بالغسيل •• وقد تتبعت خبره فيما بعد فعلمت أنه متزوج من غيرها ، وأب أولاد ، يعيش كادحا من حقلـه الى بيته ، ليست فى حياته مغـامرة وما عرف عنه شرب الحشيش أو ارتكاب المحرمات ، وما زار منفلوط الا لعمل مرةأومرتين، فليس هو الذى يتردد علي نقطة المومسات ، لعل الزوجة لما بلغها خبر فعلته رفعت رأسها للسماء ـ وطاقة بها مفتوحة ـ ودعت على القادمة بالحنجل والمنجل والقضا المستعجل • فان لم يكن هذا هو القضاء المستعجل فأى شيء يكون ؟

عدت الى دارى مكتئبا ، تلازمني صورة هذه الفتاة التى جاءتها النجدة بعد لأى لحد عندها فكان الردع أسرع منها •

حاشاى أن أسأل : أكانت ستجتاز الإمتحان فى المستوى الجديد بصحيفة بيضاء وتشـارك صـابرة فقر زوجهـا أم

ستعود ريمة ـ بجحود وضيق صدر وحسرة ـ الى عادتها القديمة ؟ • يكفى أنها لقيت ، وهى تائبة ، ربها الرحيم الغفور •

الخمارة

يقودنا الحديث عن نقطة الموسات الى الخمارة ، وكان المفروض هو العكس • لم تخل منفلوط من خمارة تقع وسط البندر ، يملكها أجنبى ، كنا في أواخر عهد لا يزال يعد فيه ارتياد الخمارة فضيحة علنية ، يتحاشاها كرام الناس من أهل البلد ، ويتحاشاها الموظفون الا السكير المدمن منهم حينما يهيج به شيطان الخمر ، يذهب اليها متنكرا ، بالجلابية والمعطف ، وكان لهؤلاء الموظفين فرج فى قهوة المحطة ، فهي قهوة لا خمارة ، يشربون فيها الويسكى وهم يلعبون الورق ، حتى الغشاش المعروف له مكان بينهم• وكان معاون البوليس لا يجد بأسا أن يشرب كأسا أو كأسين بعد نهار مرهق ، الى أن غاظه من صاحب القهوة شيء لم أعرفه ، فحرر له على التو محضر مخالفة لأنه يبيع الخمر بالقطاعى بدون رخصة • وظل صاحب القهوة يلطم خديه لا لنكبته فى الغرامة ، بل لنكبته فى وفاء الزبون القديم •

وكانت خمارة البلد تثير في نفسى تأملات عن تطور مجتمعنا ، لا أظن أن البشرية أثبتت فى سجلها الطويل جيلا لا يعرف نوعا من المسكرات ، ولكن على كثرة ما قرأت فى التاريخ قبل الاسلام لم أعثر على حملة عنيفة تحارب الخمر ، بل كانت تعد تارة متعة لا تتم الا بها بقية المتع ،

وتارة محكا للرجولة ، حتى كان من المبارزات تشارب الخمر وينهزم فيها من الخصمين من تصرعه قبـل الآخر • ثم جاء الاسـلام فأنزل بهـا ضربة قاضـية ، اذ جعلها اثما مجلبا لسخط الله ، في الدنيا بقلة البركة والانذار بالفقر ، وفي الآخرة بنار جهنم ••

أجيـالنا القـريبة السـابقة كانت تؤمن أن الخمـر ام الكبائر ، اذ ذاع عن رجل أنه شربها سقطت كرامته ورفضت شـهادته وربمـا طلقت منه امرأته ، فلا عجب أن لم يجرؤ واحد من أهل البلد على فتح خمارة • ثم استشرت الامتيازات الأجنبية وتبعها الاحتلال البريطاني ، فتمشت الخمامير من العـواصم الى مدننـا الصـغيرة وقرانا الـكبيرة ، يملكها أجانب ، وتجذب الناس أيضا باعداد وجبات نظيفة وقهـوة طيبة وأنس سفور زوجة أو ابنة ، وانقلب صاحبها أغلب الأمر الى مراب يعـرف أسرار العـائلات ، يقرض بخـراب البيوت الفلاح المعذور عند الدودة أو الجمع ، والأعيان غير المعذورين ليمد لهم حبل الفساد وتخرج أملاكهم من أيديهم له أو لنفر من شيعته ، وان تستروا وراء بنك من البنوك ، وتمشت الخمر أيضا تحت اللواءين السابقين من الخمامير الى بيوت الأعيان ، وفي ذهني مثل عجيب على ذلك :

هو بلد صغير في الصعيد ، سوقه كأغلب بلاد الريف ، يسمى بالقيصرية (نسبة الى قيصر الروم) مسـقوف على صفين من الدكاكين الصـغيرة المعتمة ، يخـرج أصـحابها جميعا من بيوتهم قبل الفجـر الى المسجد ، فاذا فرغوا من صلاتهم فتحوا دكاكينهم ، وتربع كل منهم ــ بعد أن يخلع حذاءه ــ عند مدخل دكانه يتلو القرآن والأوراد والابتهالات

بصوت غير خفيض ، يسمع من بعيد كطنين النحل •• اذ جاء أول مشتر لتاجر يسأله عن بضاعة عنده أجابه « طلبك عند جاري هذا فاذهب اليه » ليضمن بذلك أن يستفتح جاره قبله •

وكان الرجل الذى أتحدث عنه من أعيان هذا البلد • بلغ الأربعين من عمره دون أن ينقطع فى يوم منذ صباه عن صلاة الفجر فى المسجد ، وقلما أدى صلاة قضاء ، محافظ على ميعاد تلاوة القرآن والأوراد في منزله قبل محافظته على موعد أكله ، هو من أسرة يهمها استبقاء نفوذها ، فلاذ بالخديو عباس الثانى أول الأمر ، فوجده ـ فى رأيه ـ على قلة سلطانه العبانا مستبدا لا يؤمن منه الغدر ، همه جمع الأموال بنهب الأوقاف وبيع الرتب والنياشين ، فعدل عنه الى « كرومر » ، وأسلم اليه ولاءه ، وأصبح من المهنئين بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا .

وأبلغه أصدقاؤه ذات يوم أن المستر فلان مفتش الداخلية سيزور البلد ولن ينصرف عنها دون أن يذهب اليه فى داره لتحيته ، تكريما له واعلاء لشأنه عند الحكام ، فأعد له مأدبة تتحدث بذكرها الركبان ، ولكن قيل له ان الحفاوة بحضرة جناب المفتش لا تتم الا بأن يقدم له الخمر أيضا ، حتى لا يحرمه من مألوف متعته ، فأخذ يسأل يمينا ويسارا : ماهى هذه الخمر ؟ وما نوعها ؟ فالخمر عنده كلمة عامة لا تحدد بصنف معين ، حتى عثر على الخبير فقال له ، اعلم أن الخمر أنواع ، فينبغى أن يقدم له أولا ما يصلح منها لفتح الشهية وهو « الأبرتيف » من فرموت وسينزانو وارد ايطاليا ، ثم النبيذ الأحمر العتيق عند أطباق اللحم وارد فرنسا ، ثم النبيذ الأبيض عند الديوك الرومى والدجاج ،

وارد بلاد الراين فى المانيـــا ، ثم شامبانيا ذات جبب فى نهاية الأكل من فرنسا أيضـــا • فاذا قدمت له القهـوة كان معها الكونيـاك والليـكور المعسـول ، ولكل نوع كأسه ، فالأبرتيف فى كأس طويل بين الصغير والمتوسط ، والنبيذ فى كأس متوسط طويل ، والشامبانيا فى كأس مستدير، قصيرة ، وآخرها فى كئوس صغيرة كالكستبان الكبير •

وسافر الرجل للقاهرة ليستدل على أكبر تاجر للخمر ، فقيد اسمه وعنوانه عنده ، واشترى منه صناديق عديدة ، واشترى أيضا الكؤوس من خالص الكريســتال •• وقدم كل هذا لضيفه ، ولكن المصيبة الكبرى أنه رأى من المبالغة فى اكرامه ألا يتركه يشرب وحده ، كأنمـــا يقترف دونهم ذنبا ، فشرب معه كأسا بكاس ، وأحيانا كأسين بكأس •• وظل منذ ذلك اليوم مخلصا للخمر فى « عفونة » الغشيم ، وقطع صلاته وأوراده •

انظر اليه يوم حضرته الوفاة وهو فوق السبعين ، مسجى على الفـراش وأهله حوله يكتمـون دموعهـم ، زاغت منـه العينان وامتنع عليه الكلام ، فرفع بجهد يدا مرتعشة يهزها مشيرا الى زوجه ، مثنيا اصبع السـبابة نحـوه ، أسرعت اليه بكوبة ماء ، فاشاحها عنه ، وعادت سبابته تشير •• حتى فهمت أنه يطلب كأس الكونياك الذى اعتاد أن يكون آخر شىء يشربه قبل النوم • وكان حقا آخر شىء شربه فى حياته قبل أن يقابل ربا ظل يتعبده من قبل أربعين عاما •

***

مزايدة

آن الأوان لأن نخرج من هذا الجو البغيض ـ بغاء وخمر ـ لنتنفس الهـواء النقي ، لا عجب أن عاد الى ذاكرتي يوم خرجت غيه من داري قبل الفجـر ملبيا اشـارة عاجلة من المأمور ٠٠ لا أعرف كالفجر شيئا يبعث في نفسي الراحة ! الصفاء ضارب أطنابه ، والدنيا طيبة الأعراف ، تسـتقبل صـحيفة بكرا لم يسـودها بعد سـطر من الشرور ٠٠ ثم يبعث فيها مع ذلك نوعا من الرهبة ، لجلالة لحظة انهزام ليل كان يمكن أن يكون سرمديا أمام صـبح جديد يزحف جيشه اللجب بأبهة وخيلاء ، معقود على لوائه النصر ، تنتظر أذنك أن تسمع نداء بوق سحرى جبار يعلن مقدمه ٠٠

كانت الحيضان قد امتلأت بفيضـان النيل ، وعلا الماء فوق أرضها وضـغط بالمنـاكب على جسـورها الهشـة ، فانكسرت قبل منتصف الليل صليبة بنى كلب ، وبدأ الماء يتدفق من الحـوض الى الحـوض الذى يليه شـمالا ، بقى احتمـال ألا تـكون الأرض قد نالت حقهـا من الماء وتبقى شراقى ٠ وكان سد القطع يحتاج الى عمل ٢٥ رجلا تقريبا ، فوردت الاشارة التليفونية التالية للنقطة :

« من عمدة بنى كلب الى النقطة :

انكسرت صـليبة بنى كلب بالقضـاء والقـدر ولم كان يفعل فاعل ، الحالة خطيرة ، المطلوب ٥٠ رجلا » ٠
وأرسلت النقطة للمركز الاشارة التالية :

« انكسرت صليبة بنى كلب رغم موالاة المرور من طرفنا، الحالة خطيرة جدا ، المطلوب ١٠٠ رجل » •

وأرسل المركز الى المديرية الاشارة التالية :
« انكسرت صليبة بنى كلب رغم كافة الاحتياطات من موالاة المرور ووضع البوص وأكياس التراب ، الحالة خطيرة جدا جدا ، المطلوب ٢٠٠ رجل » •

وجندت المديرية كل قواها لارسال النجدة ، ولما ذهبت مع المأمور وجدت ٢٠ رجلا يعملون فى سده ••

وطلع علينا الفجر بنوره وبهائه ونحن واقفون على الجسر ، هذا الماء الضحضاح أمامنا ينحدر سطحه فى سبيل هدار يأكل الجسر من على الجانبين •• فى هذا الصباح شهدت لأول مرة قوة الماء وجبروتها •

وتبين أن الأرض بلغت غايتها من الماء ، فطار الخبر للفلاحين أن يسرعوا لبذر الفول •• فرأيت بعينى فلاحين يغوصون عرايا فى الطين الرايب الى وسطهم ، وقد علقوا فى ظهورهم بالحبال غلاية الشاى ووابور الغاز ••

الأم ••

لا أنسى هذا المنظر الذى شهدته وأنا منشغل فى تحقيق قضية تافهة ، معزة نزلت فى حقل برسيم •• فطارت أسرتان الى السلاح ، هذه لصون الكرامة ، وتلك لصد الهجوم • كنا نعلم أن النصح والشفاعة والزجر والتهديد

لن تغني شيئا ، وأن بين السلام واطلاق الرصاص خيطا اوهى من نسيج العنكبوت ، ان لم يكن فى حضورنا فبعد ذهابنا ، ان لم يكن اليوم فغدا أو بعده ، وان غدا لناظره قريب . حين يطلع الشيطان برأسه في الصعيد لا تدخل جحره من جديد الا بعد أن يلغ فى الدم .

رايت أول الأمر افراد الأسرة صاحبة البرسيم ، خمسة اخوة ، كل منهم تمثال بديع لرجولة الصعيدى وأنفته وصلابته ، لهم جميعا شوارب طويلة منتفشة ، ورقاب لا اني عن التغني بجمالها وكبريائها ، هم في غضب شديد كانما قتل لهم قتيل ، ووجدت من الحكمة أن أذهب الى بيتهم ، بحجة الاستماع الى أقوالهم وتحرير المحضر وأنا أرمى الى تهدئة نفوسهم ، دخلت واحدا من هذه البيوت الريفية العادية ، وجلسنا في الحوش ، فى جانب منه سلم من الطوب الأحمر بلا درابزين يصعد الى حجرة لها باب من لوح خشبي رقيق ، وعلت الأصوات وتشابكت واتقدت العيون ، ليس فى الأرض قوة تثنيهم عن الشر ، فاذا بهم جميعا يصمتون فجأة حين سمعنا صوت صرير باب الحجرة العليا ، وهلت علينا منه امرأة عجوز محطمة ، قد انقلب سواد عينيها الى بياض ، رمادية الجلد ، هذه امرأة أفنت عمرها في عمل مرهق متصل ، وحمل وولادة ، وعرفت كافة الأمراض ، جرى الابن الأكبر فصعد اليها فى لمح البصر وتضاءل أمامها ومد لها ذراعه لتستند اليه ، وجرى الابن الثانى ومد لها من جانب آخر ذراعه وهو يحنى رأسه ، وحوط الباقون عليها يفتحون لها الطريق خطوة خطوة .. وقبل أن تبلغنى كانوا يقولون لها : « لماذا تتعبين نفسك ؟ » ، فاجابت وهى تجلس بجهد قبالتى بعد أن سلمت على :

ـ ييجي حضرة المعاون عنـدنا ولا أسلمش عليه ؟ دي تبقى عيبة كبيرة قوى •

سـألت ان كنت شربت الشـاى ، وألحت على الحـاحا شديدا أن أبقى للغـداء عنـدهم • أدير نظرى فى الرجال فأراهم يجلسون فى أدب قد غضوا أبصارهم ، لا يبدو عليهم أنهم قادرون على ايذاء ذبابة •

سألت عن سبب الضجة ، فلما علمت الخبر هونت منه ، ولامت أولادها على سرعة غضـبهم ، تزوم فيهم أحيـانا ثم تضحك لى ، وقالت :

ـ اتركوا لى هذه المسألة أفضها مع جارنا ، فان لنا به سابق ود ، فاذا تحدثت اليه لان فى يدى ••

بقيت صورتها فى ذهنى بقيـة اليـوم ، أحمد لها أنها فضت نزاعا كاد يؤدى الى مجزرة ، وأحمد لها قبل كل شيء أنها أنقذتنى من تحرير محضر طويل عريض من أجل معزة•

تنفيذ حكم طاعة

كنت حديث عهد بالعمل حين عهـد الى المأمور لأول مرة تنفيذ حكم بالطاعة صادر من المحكمة الشرعية ، اننى أمقت الاكراه ولكن ينبغى لى أن أعترف بأن نفسى نشطت وتهللت شأن المقبل على متعة لذيذة •• فلن يكون من الظلم أن ألقى الجزاء ••• وقبـل أن أغادر المكتب قرأت الحـكم فاذا به يقول « وأعد لزوجه المقيمة فى كفر الشيخ مبارك منزلا فى

الكفر المذكور ، يحده من بحرى طريق ، ومن قبلى منزل فرغلى ابو مجاهد ، ومن شرقى طريق ، ومن غربى منزل محمد أحمد محمد » ، وكنت لم أذهب بعد الى كفر الشيخ مبارك بل ولا أعرف أين هو • فلما سألت ، علمت أنه كفر صغير •• يقع على جسر « الابراهيمية » ، بحرى منفلوط بمسافة سأقطعها على ظهر الحمار فى ثلاث ساعات ، فتوكلت على الله وخرجت بعد أن تم التنبيه على العمدة المسئول عن الكفر أن ينتظرنى عنده مع شيخ الخفر •• فتنفيذ حكم الطاعة يتطلب جيشا من ثلاثة على الأقل ومعهم السلاح ••

وجسر « الابراهيمية » أصل كيانه من الطين المتخلف من شق الترعة ، مكوم بجانبها ، فارتفع سطحه عن الغيطان بعلو مترين أو ثلاثة على الأكثر ، حتى أن الأشجار المنزرعة فى الحقول لا تبدو منها فوق الجسر الا فروعها مما يضفى عليه بالليل منظرا رهيبا •• وسار بى الحمار بين الترعة والغيطان ثلاث ساعات فاذا بى أصادف العمدة وشيخ الخفر جالسين تحت فرع شجرة ، فقلت لهما بعد السلام •

ـ هيا بنا ••

ـ الى أين ؟

ـ عجايب ! الى كفر الشيخ مبارك ! فقربنى العمدة الى حافة الجسر ناحية الغيطان وقال لى « هذا هو كفر الشيخ مبارك ! » •

رايت فى حضن الجسر ، بين الحقول وسطحه ، بارتفاع مترين ، كوما صغيرا من كهوف متلاحقة ، هيهات أن تسمى فى أى قاموس فى العالم باسم منازل ، يكاد لا يصل سطحها

الى مستوى الجسر ، مغطاة بالبوص والقش ، كان حصيرة واحدة تغطي الكفر كله ، كلها من الطين الجالوص ، لا اذكر انني رأيت بينهــا ما هو مبني بالطــوب النيىء ، غيــر أن جدران بعضها من حجارة مكومة فوق أخرى ، وأقسم لك أن العمدة وشيخ الخفر سنداني وأنا أدب على أسطح هذه الكهوف ، فلا خوف من الوقوع ، لأهبــط منها الى الأرض أمام منزل الزوجة ، فقلت في نفسي وأنا فوق السطح : «أين الطريق القبلي ، وأين الطريق البحرى » ..

أحنيت رأسي ــ وأعــلم أنني قصــير القــامة ــ ودخلت سردابا ليس به جنس متاع ، أرضه مغطاة الى الركبة ببوص الأذرة ، ورأيت فيه فتاة تجرى في أنحــائه وهي مذعورة ، تخربش في البوص ، فقبضنا عليها ورفعنــاها الى سرداب مماثل في بيت مجاور ..

لم أمــكث في كفر الشــيخ مبــارك كله أكثر من خمس دقائق ، وعدت أركب الحمار يهزني هزا وينفضني نفضــا ثلاث ساعات ، والهواء يجاذبني ثيابي ، ولكن لم أكد أبدا لكز الحمار حتي لسعني برغوث في رقبتي ، وتسلل آخر من رجل البنطلون شــاقا طريقه ــ ولا أدرى كيف ــ حتي بلغ بطني ، مع أن تكة لباسي مشدودة ، وبدأ ثالث يتلاعب ما بين صدرى والفانلة ، وأنا لا أملك حرية الهرش لانشغال يدى كلتيهمــا بالشــمسية والمنشــة ، وظللت أتلوى حتي بلغت دارى ، وخلعت ملابسي فانطلق منها في فرح جيش لجب ، أراه لشدة كثافته رأى العين ، وظللت ليالى عديدة لا أنام من وخز الابر ..

***

يوم الفرز

يومان عصبيان مختلفــان ، ومع ذلك يجمعهمــا وصف واحد ، فكلاهما فيضان قوى جبارة تدهم الأرض ، لا أعرف مثلهما شيئا ارتجت له نفسى وأنا فى الصعيد •

أولهما يوم الفرز ، وما أدراك ما يوم الفــرز •• جاءتنا بالأمس لجنة القرعة ، ضــباط من مختلف الرتب ، بينهم طبيب ، فأخلينا لهم بعض مــكاتبنا ، ووقفنــا أنفســنا على خدمتهم •

وباتت منفلوط ترقد فى أحضان ليل وديع خلى البال، يلف القرى المتناثرة حولها كما يلف القماط الوليد •

فاذا لها قبل الصباح انتفاضة على رهبة ، كأنما نفخ فى الصور ، تدفقت عليها من النجمة سيول من جموع كثيفــة من شــباب القــرى ، من الشرق والغــرب ، من الشـــمال والجنوب ، ومع كل جماعة شيوخ القرية وخفراؤها ، فى أيديهم عصى طويلة كأنما يسوقون بها قطيع أغنام ، تحوط عليهم نسوة يولولن ، هن أشــد منهم جزعا واضــطرابا ، والتقت هذه الســيول فغصت بها الســاحة الكبيرة بجانب المركز ، وسدت الشوارع المجاورة ، وامتنع فيها المرور ولو للسائر على قدميه ، صدر الأمر للفلاحين أن يخلعوا ملابسهم فخلعوها وبقوا عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، وان اســتبقى بعضهم منديله الأحمر معقــودا فوق الرأس ، ثم أقعوا على الأرض ، تتخطى رقابهــم أرجل الخفــراء وهم يجوســــون خــلالهم •• ولم العجلــة والــوقت يدرى ؟ ذلك أن طبيب

القرعة سيفحصهم وهم عرى وليس لديه وقت يضيعه فى الانتظار حتى يخلع الفلاح أمامه جلبابه الأزرق وما أسهل خلعه فليس فوقه غيره ، وليس من الممكن وضع نظام يتم فيه الخلع فوجا بعد فوج ، فلا مفر من أن يصدر الأمر للجميع منذ وصولهم ، والمساواة فى الظلم عدل • سيظل الفلاح هكذا عاريا مقرفصا على الأرض ساعات طويلة تحت الشمس الى أن يأتى عليه الدور ، لم أر أحدا يكسب فيهم ثوابا ويسقيهم ويدور بينهم بقربة أو قلة أو كوز •

لم يكن سبق لى أن رأيت مثل هذا المحشر الضخم من الأجساد البشرية العارية ، ان رائحتهم بخار منعقد ، سيظل عالقا فى الجو أياما بعد اختفائهم ، كأنما تتطاير من اجسادهم نخالة ، لعلها فتات القشف ، أنفاسهم تزيد من حرارة الشمس كثرهم يضع الكفين تحت الابطين ، وبعد قليل بدأ العرق يلمع على القفا والجبين والظهر والصدر ، حتى عمهم بحر واحد من ماء آسن عكر ، تطفو عليه الطحالب ، وجزائر من المخاط الأزرق ، ولطخ لزجة من اليرقان والعلق والديدان ، وأعشاب عفنه •

لم يسبق لى مثل هذه التجربة ، رأيت لشدة وألمى ولأول مرة ، وكأن الصورة تضخمت مليون ضعف بسبب هذا الحشد ـ أن رءوس معظم الفلاحين مصابة بالقراع ، انقلب الشعر الذى خلقه الله لهم زينة الى دهان قبيح لطخ رءوسهم ، تتخلله بقع رمادية وزرقاء ، كأنها بطحات مطرقة ملوثة بروث البهائم ، بقع يخال لك أنهـا تنز ، الشعر القليل الذى يكتنفها هيش نبات شيطانى خبيث اقتلعته يد فلم تبق منه الا جذوره الذابلة • لا أدرى لماذا وقع فى نفسى

ان راسا هذه حالها هي كالبيضة المششة لا تجد داخلها الا أفكارا فاسدة ، على عكس ما يقال عن القراع ـ ويلحق به أيضا الصلع ـ من أنه دليل الذكاء ••

الحديث بين الجالسين ممازحة ، مبعثها الخجل ، ومع ذلك فان الهمهمة المنطلقة من هذا الحشد كانت تصل الى اذني كأنها ضجيج محنقين ، أو جياع تأخر عنهم مرة بعد أخرى طعام موعود ، هي ضجة أناس معذبين ، فيها حدة مكبوتة ، كأنها تهارش وحوش مفترسة بالأنياب والأظافر ، يخالطها احتجاج يحبو دون أن يمشي أو يثب ، يدور بين الرجل ونفسه ، وبينه وبين جاره ، ثم تعلو فجأة وسط الهمهمة زمجرة عالية فتهوى العصى حتى يعود سطح الهمهمة الى الاستواء من جديد ، فاذا جاء الدور قام الفلاح تدفعه الأيدى باللكمات فى قفاه ، وبالنخس فى ظهره ، حتى يدخل أمام اللجنة ، ساترا سوأته بكفيه •

واتخذت مكاني بجوار طبيب القرعة ، وهو رجل من الشرق باع نفسه للغرب فى ذلة الرقيق وكبريائه حين يعتز بسيده ، (وكان أغلب جيشنا فى العهود البائدة من هذا الصنف العجيب الذى طالما سار فى ركان الاستعمار كالعقبان فى مصر والسودان) • وكان مع ذلك آكرش محتقن الوجه • يضع منديلا معطرا على أنفه ، هو متأفف ضجر ، وقح أفحش الوقاحة ، لو كان يفحص كلبا جربا لكانت يده أحن عليه منها على الفلاح ، هو قبل أن ينطق الفلاح باسمه واسم شياخته وقريته يسخر منه ومن غبائه وبلاهته وتخبطه وتعثره وهو يطلع على المقياس ، وتهبط خشبة فوق رأسه بعد أن يلكز فى بطنه ليشد قامته • أرى الفلاح يرفع بصره مع الخشبة حين ترتفع ـ وهو لا يراها

ـ ويغلق عينيه حين تهبط ، لا شيء يدل على خوفه مثل حركة حاجبين يتتبعان نظرته .. حتى أمام الطبيب لم يسلم من النخس بغضب ، كأنه داهية ثقيلة ..

ثم يصرخ الطبيب وكأنها صرخة انتصار :

ـ سعفة بالرأس غيره ، اللى بعده .

ويأتى فلاح آخر فيصرخ الطبيب :

ـ فتاق .. غيره .

سعفة .. فتاق ، فتاق .. سعفة ، ما أكثر ما سمعت هاتين الكلمتين في ذلك اليوم . لم أكن أعرف من قبل أن القراع والفتق منتشران بين الفلاحين بهذه الدرجة الفظيعة. ان تفشى القراع ليس بعجيب ، وهو ينتقل بالعدوى ، ولكن ما علة انتشار الفتق بين الفلاحين ؟ أهو لمجرد اضطرارهم لحمل الأثقال أم يضاف الى ذلك سبب آخر له علاقة بالنهم الجنسى فيما يقال . وقد قرأت بعد ذلك سيرة الدكتور شفايتزر الذى يعيش فى أذغال افريقيا (والحائز على جائزة نوبل) فعلمت أن الفتق منتشر أيضا بين أقوامها البدائية ، وليس هذا بالمرض الهين . اذ قد ينتهى الى اختناق الأمعاء فيسبب آلاما جهنمية ، واذا لم يسعف المريض بجراحة كان مصيره الهلاك ، ليتك تقرأ كتاب الدكتور شفايتزر لتعرف ماذا يقوله لمرضاه عندما يجدون على يديه الشفاء .

واقترب العصر ونحن لم نفرغ ، وتضاءل البحر الى جداول ثم الى جرعات ثم ذاب من بين أيدينا ، واعجب حين أقول لك : ان هذا العذاب كله الذى تحمله الفلاحون قد ضاع هباء فاذا كانت اللجنة قد قبلت عددا منهم فان الذين طلبوا الى التجنيد من بيوتهم كانوا أقلية ضئيلة .. كأنك تقطع ثمار حديقة بأكملها ثم تأكل منها حبة واحدة .

وخرجت الى الطريق فخيل الى أن منفلوط قد مر بها اعصار ، واكتسح معها أيضا روحي •

وفاء النيل

أما اليوم العصيب الآخر فهو يوم البطل فيه هو النيل ، لا أقصد يوما من أيام جبروته ، حين يجلس الفلاح على الجسر يرقب في وجل ارتفاع الماء أنملة أنملة ، ولا يوم عبثه في عز فيضانه بالشواطيء فيتقطع ويضيف كما يشاء ، بل هو يوم في أوائل أغسطس أجوس فيه خلال الوادى على ظهر حمارى ، الحقول من شدة الجفاف والعطش قد تشققت ، ينفذ بصرك الى أعماق غارقة في الظلام ، كأنك تمشي فوق غطاء هش مخادع من تحته هوة ، أرض قشلانة جربانة ، انقلب سطحها من طين الى تراب ناعم ، تسقيه أقل الرياح ، تحس أن الأرض قد فغرت فاها ، تكاد تلفظ أنفاسها ، لم يبق الا انتفاضة ضئيلة واحدة ، يمسكها الاعياء لا الأمل في البقاء ، هي على وشك أن تجود بها وتستسلم للعدم •

اذا ذهبت الى أقصى الوادى شرقا الى أن تصدني التلال عند قرية أم القصور ، أو الى أقصى الغرب عند قرية«جحدم» أكاد أرى رأى العين حركة الرمال الصفر تزحف كحمم البركان ، قليلا قليلا ، بترصد خبيث ، ومكر شديد ، تمد الى الطين الأسود يدا مغتالة في لمستها الجدب والفناء ، الفلاح وجاموسته تشرب من بواقى ماء آسن متخلف فى حفر صغيرة من أيام فيضان سابق ، كوم الحبوب فى داره يهبط شيئا فشيئا •• هل ستتصل آخر حبة منه بأول حبة

لن تنبتها له الا هذه الأرض التي جثت على ركبتها واحنت راسها وتهيأت للموت !

يلف الكون كله ـ أهله وطينه وحيوانه ـ جو غريب من التوتر ينفذ الى النفوس على غفلة منها ، ولكنه توتر رهيب، لا تفلح الضجة مهما علت أن تفسد غلالة من الصمت قد حطت على الوادى ، لو كان الكون شخصا لرأيته واقفا يقلب وجهه في السماء ويتصنت يمنة ويسرة •

وكنت في ذلك اليوم لا أنتظر شيئا ، أسير بجوار أحد الحيضان كعادتى كل يوم •• وفجأة رأيت ثعبانا نحيلا من ماء داكن يتلوى على الأرض ويهوى بين الشقوق ، له ذيل طويل يجره فيلاحقه ، لم أر طول اقامتي في الصعيد شيئا مثل هذا السرساب الضئيل من الماء يملأ روحي حتى كاد يسحقها بشعور مختلط من الرهبة والفوز ، واليأس والنجدة ، بل الموت والحياة تجمعهما لحظة واحدة • لا أدرى من أين جاءت هذه النسوة ، كأنما انشقت عنهن الأرض ، ورفعن رءوسهن وانطلقن في زغرودة مجلجلة عالية اهتز لها قلبى ، كأني أسمع لعلعة بوق جيش منتصر مقبل الى أهله من بعيد •• جاء الفرج ما أجمله •

ذكرى هذين اليومين تتضاءل بجانبها صور فيلم يستغرق عرضه عاما كاملا ، ولا يتغير فيه شيء سنة بعد أخرى ، تمتلىء الحيضان وتنقلب كل قرية وسطها الى نافورة من نخيل غارق فى الماء فلا نصل اليها الا بالقوارب ، ينحسر الماء ويزرع البرسيم ، ما أجمل منظره فى الحقل بنواره الأصفر الدقيق ، عنده تعرف الأرض والحيوان لذة الربيع ورقة السماء وحنانها • تلد النعاج ، ويهنأ الجاموس ببرسيم غض حشو فمه ، ثم بعد البرسيم فول ما ازكى

رائحة أزهاره ، أو قطن يراق فوقه العرق حتى يفتح لوزه ٠ لا أدرى لماذا لا أعرف للقطن ولا شجره ولا أزهاره ، مسحة من الجمال ؟ لعل السبب انه متحنط مستبد ، حتى حين يخال لى أن ندفا من الثلج قد هبطت على الوادى لا تنشرح لها نفسي ولا أراها الا بقايا حجرة عمليات فى مستشفى أو ضمادا متناثرا عالقا على جثة ضخمة ٠

ثم يكون فى الأرض بدل القطن وبعد القمح أذرة عويجة، محصولها هو خلاصة حياة الفلاح ، اذا قال « مونة السنة » عنى بهـا ما يدخله من حبـه فى داره ، اذا وفر لزوجتـه ما يكفيهـا منه فليس لها ان تسـأله عن شيء غيـره ، من عيدانه يقيم الأخصاص ويصنع الجدران والسقوف ، ووقيد الفرن ، ويقتل ان شاء من بين عيدانه الطويلة خصمه ، هذا هو موسم القتل ٠ اذا تكومت الكيزان المستديرة ودقت على الغناء ــ بالعصى ، ونشأ تل من الحبوب وقف عليه الفلاح الميســور ــ وهو يذكر ربه وزكاته ــ يوزع العــوايد ، هذا الكوم للمعدية ، وذاك للمــوالدى ، وآخر لبــائعة الحلوى الفقيرة التى تجلس على رأس الدرب فى القــرية ــ آه ٠٠ نسينا انسانا آخر ٠٠ الحلاق ٠٠ انه أقبل يهرول وفى يده كيس ، هو أكبر الأكياس فى ذلك اليوم ٠

وآخر صورة فى ذهنى عن غيط الأذرة هى هذه البقــع الدموية التى تتناثر على الأرض مستديرة كالدنانير ، تنعقد فيها أشعة الشمس بعد أن تسربت بجهد بين عيدان صــفر متمايلة ، ما أمتع منظرها ، لم أر للون الأحمر فى غيرها مثل جماله ، من أجلها أنسى لهذه العيــدان ما تبعثه من أنفاس خانقة ، ورائحة زخمــة عطنة ، وهاموش ، وما تخبئــة من مكامن البنادق شغل اليد ٠

فراق

كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهك قواى وأن له جسدى ، أقلب ولا أقرأ صحيفة يومية فاذا بنظرى يقع على اعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعين الفائزين فيها بوظائف أمناء المحفوظات — أى سكرتير — فى القنصليات والمفوضيات • القاء النظرة كان مجرد صدفة ، ولكنها قلبت حياتى رأسا على عقب ، فقد تقدمت ونجحت وان جاء اسمي فى ذيل قائمة الفائزين ، فصدر الأمر بتعيينى أمينا لمحفوظات القنصلية فى جدة ، باعتباره أسوأ المناصب الشاغرة •

ما أبلغ هذا الانقلاب في حياتي ، سأغادر الصعيد بل الوطن كله الى بلاد مجهولة وراء البحار •

سأترك ظهر الحمار لأركب سيارات ترفرف عليها الأعلام ، حتى هي — لا شاغلها وحده — لها حصانة •• سأخلع بذلة لجنة المساحة (وهي أشد ملابسى قدما ورثاثة) لألبس السموكن والبونجور والفراك والردنجوت ، ومن القبعات : الميلون ، والسلندر ، وقبعة الأوبرا ، وقبعة رمادية للصباح ، وسوداء للمساء ، وفوقها قبعة بيريه لركوب السفن •

سأترك مجتمعا تعيش فيه المرأة وراء الحجاب لأعيش فى مجتمع تتربع المرأة فيه على عرشه ، هى التى تحرك الخيوط وتصنع الأقدار ، وبعد أن كنت أخاطب المرأة بلا مراسيم تعلمت كيف أنحنى أمامها فاذا مدت لى — دون أن تقف يدها ، وكانت سيدة لا آنسة — والحذر كل الحذر من الخطأ فانها تكون غلطة لا تغتفر — وضعت على أناملها قبلة

يجعلها الأدب والعرف وسطا بين البرود والاندلاق ، ثم أمد لها ذراعي لندخل معا حجرة الطعام • فاذا جلست جانبي قاست هي والآخرون مقدار براعتي وثقافتي بمقدار نجاحي في اثارة انتباهها وتسليتها •

سأضع كل كلام اعتدته بما فيه من رقة وغلظ في حقيبة أختمها بالرصاص لأتعلم نوعا آخر من الكلام ، وبلغة غير لغتي • اذا دخلت الصالون المزدحم بالمدعوين في حفلة شاي ينبغي أن أتحدث حديثا فارغا سهلا خفيفا ، مع التنقل كالنحلة من حلقة الي أخرى ، ثم تنفض الحفلة فأقابل الوجوه ذاتها ـ لا تنقص او تزيد الا قليلا ـ في حفلة أخرى لشرب الكوكتيل ، وينبغي لى أن أدير الاسطوانة مرة أخرى، ثم تنقضي الحفلة وأقابل الجميع لثالث مرة في يوم واحد في حفلة عشاء جلوسا أو وقوفا ، فأمثل الدور من جديد ، لم أجد شيئا أشق من هذا العبث على نفسي •

سأنتقل من حياة يفيض فيها العمل المرهق عن الزمن المحدود الى حياة يفيض فيها الزمن الفارغ عن عمل موهوم• كدت أنحشر في زمن الباحثين عن قتل هذا الوقت الفارغ بالعبث والمجون • كنت في خطر شديد من أن تأسرني هذه المظاهر البراقة وأضيع وأصبح تفاهة لابسة سموكن ، ولكن شيئا واحدا انقذني ، ليس هو طبعي ولا تربيتي ، فالانسان مهما صلبت ارادته غير معصوم من ضعف طارىء تنزلق عنده قدمه ثم لا يعرف كيف يقوم ، انما الذى انقذني هو عملي سنتين بالصعيد ، هذا العمل الذى طالما أرهقني وأذاقني من عذاب الجسد والروح أشكالا وألوانا ، والآن أحمده وأبوس يديه فقد عرفت بفضله ـ كما رايت أنت ـ بلدي وأهله ومشاكله وشدة حاجته لمن يأخذ بيده من أبنائه •

انقذني هذا الشعور من الضـياع وأقامني اقامة وجدت فيها السلامة وراحة القلب بقدر ما في الدنيـا من سـلامة وراحة قلب ، حتى كدت أومن لا زهوا بل اقتناعا ـ أن خير من يصلح للتمثيل الدبلوماسى هو من غرق فى الريف بين احضان أهله زمنا غير قليل ٠

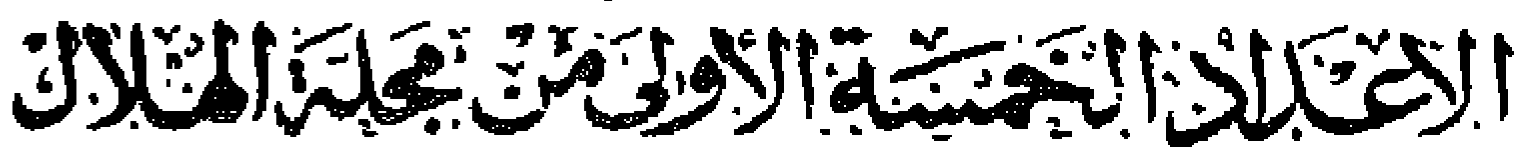
سأزور الحجاز وأدرس المذهب الوهابى ، وأعرف مشاكل الحج والكورنتينات ، وأرى جميع الشـعوب الاسـلامية ، وبعض كبـار المسـتشرقين ، وكيـف أن بعض الدول الاسـتعمارية تعين قناصـلها هنـاك من بين رجال وزارة المستعمرات لا الخارجية ، ثم أزور تركيا فأشـهد الحركة الكمالية فى عنفوانها ، ومظاهر تحول حكومة شعب مسلم من دوله تعترف بدينه الى دولة تتجاهله بل تعـاديه ، ثم أعود اليها بعـد غيبة طويلة ، فأرى انحسـار هذه الموجه وأقارن بين العهدين ٠

عشت فى ايطاليا مع أطماع موسولينى وبهلوانيته خمس سنوات ، وزرت المانيـا ورأيت وسـمعت هتـلر وأعوانه ، يؤججـون الحـركة النـازية بمشـية الأوزة ، وذهبت الى فرنسا لأرقب مبادىء احتضار الجمهـورية الرابعة على يد أحزابها المتفتتة ، ثم الى ليبيا فاشـهد مشـاكل أمة عربية تحاول تدعيم استقلالها وسط مصاعب هائلة ٠٠

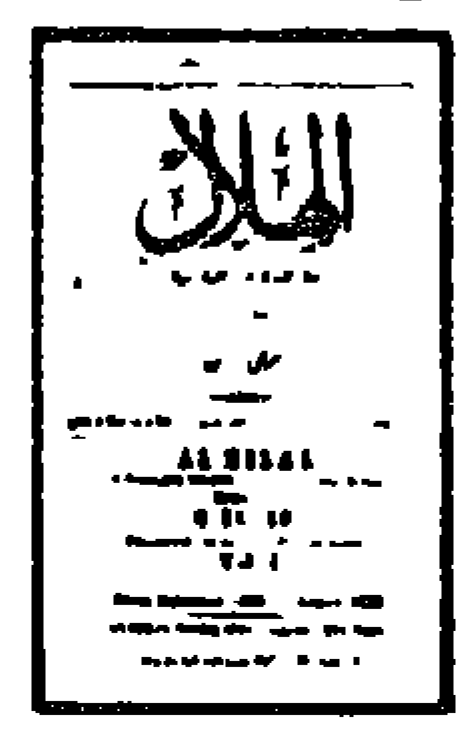
وشهدت بعد هذا وذاك نمو سياسة مصر الخارجية مدى ثلاثين عـاما ٠ انى أحب أن أحـدثك عن كل هذا اذا رأيت أننى لم أثقل عليك بهذا القدر من مذكراتى ، ووجدت أنا فى العمر بقية ، وفى الهمة اقبالا ، ومن الزمن مهادنة ومن النفس تواضـعا ، فادع لى بخير كما أدعو لك ، ولنفترق هنا على أمل باللقاء ٠

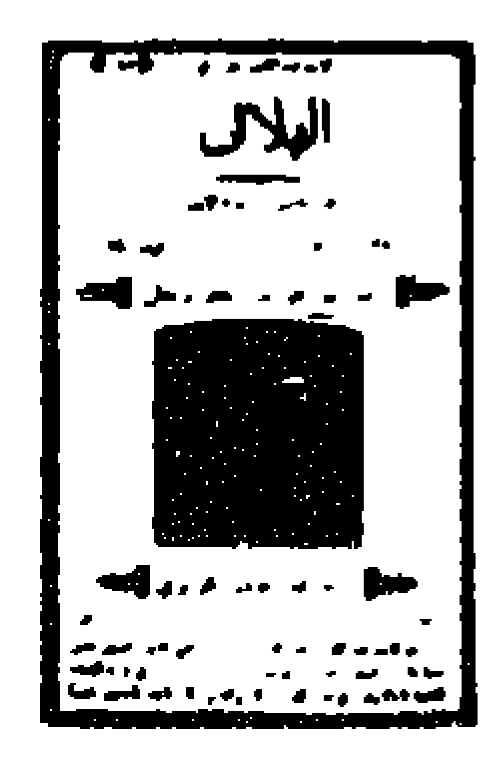
الفهرس


مصر والعالم
يوم صدر
الهلال
سبتمبر ١٨٩٢


الأعداد الخمسة الأولى من مجلة الهلال


الهلال


الهلال


الهلال


الهلال


الهلال

هذا الكتاب

خليها على الله

خلافا للسير الذاتية ، والتى تدور اساسا حول شخصية صاحب السيرة ، فإن «خليها على الله» بانوراما اجتماعية ، الشاهد عليها هو صاحب السيرة ، وهو شاهد لاتهمه تفاصيل اللوحة الكبيرة ، الا لابراز العبرة ، واستجابة لفنية الكتابة ، فنحن مع كاتب ، قد يكتب الجملة الواحدة ثلاثين مرة ، لتستقيم حسبما يريد لها ، ويرضى عنها .

وقد اختار يحيى حقى ، مرحلتين من حياته وحياة المجتمع الذى عايشه بوعى وبصيرة ، حدثنا عن احداث المرحلة اللاحقة لتخرجه فى مدرسة الحقوق العليا سنة ١٩٢٥ ، وامتزجت اهتماماته باحداث الفترة ، ليتعاشق العام بالخاص .

ثم حدثنا عن عمله معاونا للادارة بمركز منفلوط . حيث عايش الصعيد بقلب محب ، وعقل متعطش الى المعرفة ، والبانوراما التى قدمها للصعيد ، لم يفلت منها تفصيله : الطبيعة ، الانسان ، الحيوان ، النبات ، علاقة الانسان بالسلطة الحاكمة ، والهوة التى تفصل بينهما ، ولأن تأثره بحياته الجديدة ، كان عظيما ، فقد تبدت فى الكثير من اعماله الابداعية ، قصة «البوسطجى» وباقى قصص مجموعة «ماء وطين» وبعض قصص مجموعة «ام العواجز» بل ان رواية «صح النوم» تجد مذكرتها الايضاحية فى « خليها على الله » نشرت حلقات «خليها على الله » فى جريدة الجمهورية سنة ١٩٥٩ ، وكان جمال عبد الناصر ، يقرأها وعند حد معين ، قال : يحيى حقى .. كفى .

وربحنا «خليها على الله » .

وخسرنا اوراق كثيرة من الرحلة العميقة والممتدة .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت · السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٩٤٩٢ / ١٩٩٠
I. S. B. N
977 — 07 — 004 & — 7